وزارة الثقافة

# أوّل الشوط

## محمود سيف الدين الإيراني

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

# أوَّل الشَّوْط

## تأليف: محمود سيف الدّين الإيراني

صدرت الطَّبعة الأولى منها عام ١٩٣٨
عن مطبعة الفجر في يافا

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: محمود سيف الدّين الإيراني
اسم الكتاب: أوَّل الشَّوط
الطبعة الأولى: ١٩٣٨ عن مطبعة الفجر في يافا

---

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

# أوَّل الشَّوط

# تقديم

## سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

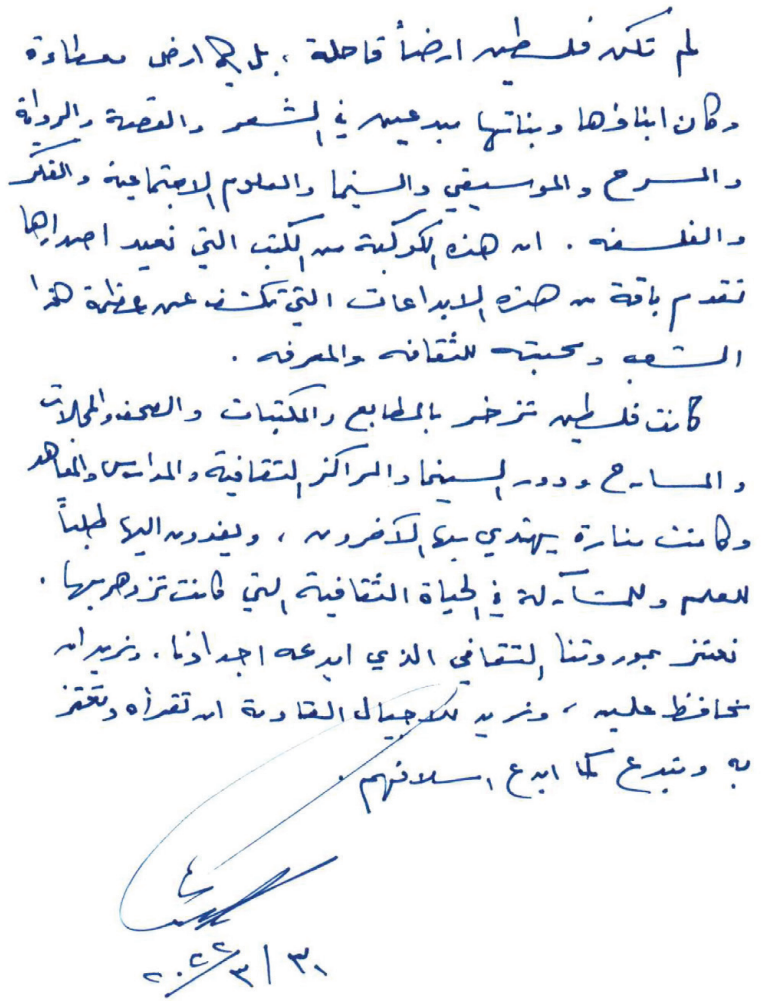

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارض معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه المكتبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب ومحبته للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفد اليها طلبة العلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا. ونريد ان نحافظ عليه، ونريد لكل الاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٢٠٢٢/٣/٣٠

# مقدمة المؤلِّف

تتطور الحياة الأدبية في البلاد العربية جميعًا، بسرعة لم تكن معروفة منذ بضع سنين، وهذا التطور لا يقف عند الظواهر الخارجية، مكتفيا بالتجديد «الشكلي « المحض، قاصرًا جهده على هذه الألوان العرضية التي تكسب العمل الأدبي ضربا من الفتنة «السطحية» قد تحول دون الجوهر وتقضي على فضائل الشمول والإحاطة والعمق والنفاذ. بل إن هذا التطور ليتناول الصميم ويحاول أن يخط للحياة الأدبية اتجاها جديدا يكون الإنسان وتكون حياته بكل آلامها وآمالها، بكل عذاباتها وتشوفاتها، بكل ما فيها من قوة وإرادة واشرئباب وتطلع إلى الخير والسعادة والنقاء والتطهر؛ الغاية التي يسفر عنها هذا التطور، ونحن نعيش في ظرفٍ يفورُ بأسبابِ الظّلمِ. ولم تكن «حياةُ» الإنسانِ مهدّدةً في يومٍ من الأيَّامِ بمثل ما هي مهدّدةٌ به اليوم، فإذا لم يتَّجهْ رجلُ الفكرِ، وهو بحكمِ وضعِه الاجتماعيِّ أقوى صلةً وأوثقُ أسبابًا وأعمقُ إدراكًا، وأشدُّ إحساسًا بشقاء الإنسان وتعاسته، ومختلف ألوان محنه وفواجعه، هذا الاتِّجاه الذي يجعل من جهوده جميعًا قوَّة لها شأنها وخطرها في تقرير مصير الإنسان، والقضاء على أسباب إذلاله وقهره جميعًا، فإنَّه حينئذٍ يخون نفسه وينكر إنسانيَّته، وتكون رسالتُه شرًّا خالصًا ولعنةً أبديَّةً. الجيل الجديد من المفكِّرين في البلاد العربيَّة غدا شديدَ الشُّعورِ بهذا كلِّه، عظيمَ الوعيِ والإدراك، يحسّ على منكبيه بوطأة هذه المسؤوليَّة نحو مجتمعه ونحو إنسانيته وضميره، ويحاول جهده أن ينهض بهذا العبء الخطير متّجهًا ببصره نحو النّور والسَّعادة

مـن صميـم عذاباتـه وآلامـه وتشـوّفاته النـيّرة.

هـذا هـو السَّـبب الأصيـل، فيـما أرى، الـذي يحفـرُ الهـوَّة ويعمِّقهـا يومًـا بعـد يـوم بـين مفكِّـر الأمـس الـذي لا يحـاول أن يخـرج عـن الدَّائـرة الضيِّقـة التـي رسـمها لنفسـه، والتـي قوامهـا: أن ينظـر إلى مـا هـو «كائـن» كقـدر محتـوم ومصـير مقـرر لا معـدى عنـه ولا مفـر منـه، فيرتضيـه ويتلـذه ويـروح جهـدَ طاقتـه يفـتن في تصويـر مظاهـره الخارجيَّـة وتحليـل تفاعلاتـه السَّـطحيَّة مبتعـدًا، مـا اسـتطاع، عـن تقليـب النظـر فيـما عـدا ذلـك، كأنَّمـا تخفيـه الأعـماق ويفزعـه ويديـر رأسـه النّظـر إلى قرارهـا السَّـحيق، حيـث تصطخـب وتتفاعـل البواعـث الأصليَّـة التـي يقـوم عليهـا شـقاء الإنسـان وتعاسـته وآلامـه جميعًـا، وأمَّـا مفكِّـر اليـوم، الجيـل الجديـد، فإنَّـه ينظـر إلى مـا هـو «كائـن» بعـين يومـض فيهـا ذكاءٌ نـادرٌ وإدراك عميـق، ووعـي لا مثيـلَ لـه، فـإذا بـه فجـأة تعـروه رعشـة مـن يفزعـه كل هـذا الهـول الإنسـانيّ، فيسـخط ويتمـرَّد ويثـور ويشرئـب ببـصره إلى مـا «سـيكون» فـلا يـرى أيّـة قيمـة لـكلّ مـا ينـدّ عـن قلمـه وفكـره، إلَّا إذا كان يـؤدي مبـاشرة إلى مـا يكـون فيـه الخـلاص النِّهـائيّ للإنسـان مـن قيـود آلامـه وهوانـه وذلّـه. هـذه هـي «نقطـة الانطـلاق» التـي تنبعـث منهـا جهـود الجيـل الجديـد ليجعـل مـما «سـيكون» سـعادة وخـيرا ونـورًا وإعـزازًا لحيـاة الإنـان وسـموًّا بكرامتـه إلى غايـة السـموّ.

وهـذا الكتـاب الـذي أدفـع بـه إلى النّـشرِ إلى جانـب مـا يذيعـه إخـواني وزمـلائي وينشرونـه كلّ يـوم، لا يـكاد يعطـي إلى معنـى ضئيـلًا مـمَّا قدمـت، وغـيره كثـير مـما نـشر إخـواني أبلـغ دلالـة وأقـرب إلى الغايـة وأشـدّ اتِّصـالًا

بالفضائل التي ذكرتها من هذا الكتاب، غير أنَّه له قيمة أخرى عندي قد يكون هي وحدها التي أغرتني بنشره، ذلك أنَّه أشدّ ما يكون تصويرًا للتطوُّر الذِّهنيّ الذي ساور حياتي الفكريَّة، مدى عشر سنوات، في غموض وإبهام بادئ بدءٍ، حتى تُؤُكِّدَ واتَّضح لحياتي الفكريَّة محور خاصّ لا قيمة عندي «للفكر» إذا لم يكن متّصلًا أشدّ اتّصال بهذا المحور، وقد بينت هذا فيما تقدم وفيما قررته في كثير من الوضوح في فصول هذا الكتاب، ولولا ذلك لما قدر له أن يظهر إلى الوجود.

**محمود سيف الدِّين الإيراني**

# نِداءُ البَدَن

## ١

قالت دلال: «لا أستطيع الهبوط الى الوادي بهذا الحمل، حسبي أني أنهكت قواي لأصنع لكم هذا، وأشارت إلى الأطباق الحافلة بألوان الشواء والأسماك والخضر.

ثم أردفت وهي تحدج أختها: هي تستطيع ذلك - وأومأت إليها - فقد أضاعت يومها فيما لا فائدة فيه؛ الرسم، والتطريز وفيما لا أدري ماذا أيضا، وأنا أموت في المطبخ».

فارتعشت ندى ارتعاشة خفيفة وتورد خداها، وهمت أن تهضب بكلام كثير، وكأنما طاف بذهنها خاطر، فكظمت غيظها وردت لسانها، وقالت غير مبالية وكأنها تخاطب نفسها:

- إن كان يعجبك!

ودارت على عقبيها برشاقة متعمدة، واتجهت إلى النافذة المطلة على الوادي العميق. فتقدم قاسم زوج دلال بقامته الفارعة وجسمه الضخم الهائل، وقال وهو يجيل بصره في أفراد الأسرة وينفض أطباق الطعام بعينيه المنتفختين نفضا:

- هذا جميل... ومثير جدًّا للأعصاب. ما رأيك في أن أحضر قفازات الملاكمة. هه؟! ونجعل من نزهتنا في الوادي حفلة ملاكمة. إنني كفيل بدعوة المصطافين جميعًا ليشاهدوا هذه الحفلة الشائقة؟! فابتسم الضيف المريض وقال موجها الكلام إليه ليستفزه ويثير

حنقـه ويجـري لسـانه:

- أمـا كان أولى بـك أن تـدع هـذا الهـذر وتقـوم بـشيء مفيـد... أن تحمـل شـيئا مـن هـذه الاطبـاق وتهبـط بهـا إلى الـوادي مثـلا... وإن عـز عليـك حمـل الطعـام، فهـاك الفونوغـراف، أو هـذه الوسـائد، فإنـك أحـق منـا جميعـا بـأن تصغـي إلى نـداء معدتـك أم ينبغـي أن أقـول...

- فقاطعـه قاسـم دون أن يفطـن إلى مـا وراء كلامـه: «أصبـت واللـه، لا بـد أن أكـون أول مـن يتحـرك وأول مـن يعمـل وأول مـن يسـير في كل شيء، حتـى أسـخف الأمـور، والحمـد للـه الـذي لا...

فصـاح بـه والـد زوجتـه ورب الأسرة وكبيرهـا وقـد نيـف عـلى السـبعين: «أمـا تدعنـا يـا هـذا مـن الـكلام الفـارغ. هيـا احمـل الفونوغـراف وبعـض هـذه الوسـائد، وسـنكون عـلى أثـرك بعـد هنيهـة يحمـل كل نصيبـه».

وإذا تكلم الشـيخ، كما يدعونه، عندما يحشر نفسـه في كل شيء، أو «شـيخنا» حـين يلتفـون حولـه و يتكأكـؤون عليـه طلبـا لرضـاه و تملقـا لـه، أو «عبـد الهـادي أفنـدي» كـما يدعـوه أصدقـاؤه وزمـلاؤه في السـن حـين تضمهـم قهـوة «عبـد السـميع» المتواضعـة يشربـون القهـوة السـادة ويدخنـون «النرجيلـة» ويذكـرون أيـام زمـان ويـروون نوادرهـم وحوادثهـم إذ كانـوا في ربيـع العمـر وعنفـوان الشـباب، فيترحمـون عـلى المـاضي ولياليـه المـلاح، وينقمـون عـلى الحـاضر ومـا فيـه مـن شر كثـير وخـير قليـل، ويذكـرون أن مـن آيـات اللـه التـي تـدل عـلى اقـتراب السـاعة ضـلال أبنـاء هـذا الجيـل، وتهتـك الشـباب والنسـاء. نقـول إذا تكلـم الشـيخ وجـب الصمـت والطاعـة،

فإن نظرته نهي وهمسته أمر، والويل لمن يخالف أو يجادل، فسيناله من قارص كلام الشيخ ما لن ينسى مرارته على الأيام، أو من عصاه القديمة الغليظة ما يشج الرأس أو يكسر منه الساق، فهو لا يوقر أحدا ولا يقيم وزنا لكبير أو صغير؛ لهذا الاعتبار وحده تناول «قاسم» الفونوغراف وبعض الوسائد وراح يقول وهو في طريقه إلى الوادي:

- هيا أيها السادة... فليحمل كل منكم نصيبه، سأبقى في الوادي أنتظركم... لن أصعد إليكم إذ لا يبعد أن تضطروني إلى حملكم واحدًا واحدًا على ظهري لأهبط بكم الوادي... هيهات أيها السادة، استعمل عصاك أيها الشيخ إذا تباطأوا...

وانطلق مهرولا...

أما أفراد الأسرة فقد انفجرت ضحكاتهم المكتومة وتناول كل منهم ما وسعت يداه من معدات النزهة، إلا الضيف فقد أبوا عليه أن يحمل شيئًا، إذ قال الشيخ؛ وكانت له عليه دالة:

- لو لم تكن مريضًا لما رحمناك

فأجاب على الفور:

- أو لما رحمتني عصاك على الأصح.

فقال الشيخ وهو يقهقه وقد ملأ السرور نفسه:

- صدقت والله يا بني...

وأخذوا طريقهم إلى الوادي. الشيخ أولا يساعده ابنه أمين، ويجعل باله إليه حين الهبوط، ثم زوجته «زهر» ومعها حفيداها «توتو» و»سري» ثم «دلال» وأختها الصغرى «حياة» وتأخرت «ندى» و تأخر معها «أكرم» وهذا اسم الضيف؛ ليحضرا آلة التصوير و بعض أواني المائدة.

قال أكرم وهو يرنو إلى نشاطها وحيوية حركتها بإعجاب:

- لم هذا الجفاء بينك وبين أختك يا آنسة؟ بالطبع لم تكن تقصد أن تسيء إليك، إنما هو التعب الذي أنطقها...

فالتفتت إليه موردة الخدين، يشع في صفحة وجهها الوضيء نور ابتسامة:

- أختي؟! إنها هكذا أبدا...

وهزت كتفيها ومطت شفتها السفلى فعل من لا يكترث أو من يتعمد عدم الاكتراث. ثم انصرفت تجمع ما تريده من الأواني وفي ضميرها سؤال يحيرها «كيف؟ مازال يدعوني بـ»يا آنسة! ألم يفهم بعد!»

وظل واقفا يشرب بعينيه هذا الحسن. ماذا لو أنها التفتت فجأة ورأت نظراته النهمة يتقد فيها لهب غريب؟!

إنها تفتن وتأسر، وتضل وتخبل بهذا الجسم، فقد طفر ذراعاها في حدة وعنف تشعان نورًا نارًا، وبان ردفاها في امتلاء مثير، وقد زادها إغراء أن ضاقت بها البيجامة حتى كادت لفرط الحبك أن تتمزق وتشي بما يخفيان من فتون. وثدياها، ثدياها المتمردان الطائشان في ظمأ

وجنون. على صدر عامر يزخر ويمور! كل هذا يدعوه ويضله ويغويه. «لمن خلقت كل هذه الفتنة يا الله!» أجاب قلبه: «لو طلعت بهذا الجسم على جيش بألوية لهزمته... يا مسكين...».

وأفاق من ذهوله على صوتها يناديه: أكرم... أكرم أفندي. لا شك أنهم ينتظروننا... أسرع... لا تنس آلة التصوير، ولحق بها فأدركها وهي تهم بالانحدار، فقال:

- لا تغامري يا آنسة... يحسن بك أن تتأكدي من موضع قدمك، فالطريق منحدر وتكثر فيه العثرات، دعيني أساعدك...

قالت وهي تبتسم:

- خذ بيدي إذا شئت. واحذر أن تزل قدمك فنهوي كلانا.

ومدت إليه براحتها الرخصة الطرية، فتناولها بلهفة وطوى كفه عليها وشرعا يهبطان.

قالت عيناها: أنت الرجل الذي انتظرت. لقد تأخرت وكدت أن أفقد الأمل... ولكنك أتيت أخيرًا...

فأجابت عيناه: لقد بحثت عنك طويلا. ولم أهتد إليك، ولما يئست أخذت أول امرأة اعترضت سبيلي.

فعاودت عيناها الكرة: فلنتمرد... ولنصدع القيود... ولنأخذ حظنا من مائدة الحياة الحافلة.

فردت عيناه: ونشبع نحن وتقتلنا الكظة، وغيرنا يموت جوعا

وظمأ...

فقالت عيناها: انطلقنا في عرض العالم تبحث عني وأبحث عنك وقد التقينا هنا بعد طول التشرد وفرط العياء... فلننصف الحياة ولنأخذ ملء أكفنا من زادها، ولنعب حتى نرتوي من فيضها، فإن من العدل أن تنصب الجداول الصغيرة في انسجام واتساق في المحيط الأكبر وتمتزج في هذه الوحدة التي هي مظهر للوحدة الكبرى... وما ذنبنا أن يعترض طريقنا من يحول دون وصولنا إلى غايتنا فننحيه فيشقى؟!

فأجابت عيناه في حيرة: ومتى استطاع آدم أن يعصي حواء؟

وزلت قدمها وسقطت وكادت تهوي لولا أنه تلقاها بسرعة غريبة وحال دون أن ترتطم رأسها بصخرة هائلة تعترض الطريق. وراح يتمتم في اضطراب واشفاق:

- عفوًا يا...آ... نسة..

فقالت في غيظ:

- لا أراك ستكف عن مناداتي بـ»يا آنسة حتى في أحرج الظروف. ألا ترى أن الأولى بك أن تتدبر الأمر حتى تجد لنا وسيلة للهبوط إليهم؟ لقد تأخرنا عنهم جدًّا... وأنا كما ترى لا أستطيع الحراك أو الوقوف على قدمي

وهـذه دعـوة صريحـة، وسـيكون غبيـا لـو تجاهلهـا وصـم أذنيـه مـن دونهـا. فانحنـى ورفعهـا عـلى سـاعديه وسـار بهـا خطـوات، ثـم كـف عـن السـير، وظـل واقفًـا هنيهـة يتأملهـا وهـي عـلى سـاعديه... فراعتـه أسـارير وجههـا تناديـه مـن الأعـماق. وفي لحظـة حاسـمة أهـوى بفمـه عـلى صفحـة وجهـا وغمرهـا بقبـلات سريعـة عصبيـة، نهمـة، ثـم دفـن وجهـه في شـعرها الأسـود، وأخـذ يسـتروح شـذاه في هـم ثـم التقـت شـفاههما في قبلـة مسـتغرقة.

قالت في نشـوة طامية وهو ينحدر بها وهي إلى صدره:

- لقـد قاومت يا خبيث ولكنك...

فقاطعهـا وهو بضمها ضما عنيفا:

- ولكنـي انهزمت... يا... حواء...

**٢**

كان كل شيء مهيئـا. فقـد مـد القـوم خوانـا حافـلا، تتخلـل أطبـاق اللحـوم المنوعـة والشـواء المغـري، أكـؤس النبيـذ تنعـش الصـدر الصـادي وتبعـث النشـوة في الـروح. وانـصرف أمـين وحيـاة يوقـدان نـارًا مـن الغصـون والأعواد اليابسـة، وراح الطفـلان توتـو وسري يلهـوان ويعبثـان ويطفـران خفيفـين في كـروم الـوادي لا تسـعهما الدنيـا لفـرط النشـاط والمـراح. ولاح مـن بعيـد أكـرم ونـدى يسـيران بتـؤدة كأن لا شيء هنـاك يحتثهـما مـن طـول انتظـار القـوم، فقـال الشـيخ محنقـا:

- ظننـت واللـه أن قـد هويـا في إحـدى الحفـر أو عـلى إحـدى الصخـور

فتحطـما، ولكـن خـاب الأمـل.

فالتفتـت إليه زوجتـه في غيظ، وقالت كمن ينوي أن يثير شرا:

- كفانا الله شرك يا شـيخ، أما أمسـكت لسـانك عن هذا السفه؟

فاحتقـن وجهـه المتغضـن المتهضـم وهـم أن يثـور بهـا. ولكنـه لمـح ابنتـه والضيـف يقتربـان، فكبـح نفسـه وردهـا عـن الاندفـاع وقـال مغمغـما:

- سـترين يا امرأة، ووالله لأؤدبنَّكِ

وأقبـل الاثنـان وتحركـت شـفاههما بـكلام أراد أن يكـون اعتـذارًا عـن تأخرهـما، فـإذا هـو تبريـر للتأخـر.

وقالت ندى:

- كنـت ألتمـس الأواني هنـا وهـا هنـا، ولا أجدهـا فأضطـر إلى اللـف والـدوران في غـرف البيـت جميعًـا.

وقال أكرم:

- وكنـت أنـا سـببا في التأخـر أيضـا؛ لغبـائي وجهـلي إذ كنـت أضطـر نـدى؛ الآنسـة نـدى، إلى التـماس الآنيـة في غـير نطـاق وجودهـا، وقـد ضـاع الوقـت في هـذا، فاغفـروا لي هـذا ال..

فنفد صبر قاسـم وصاح بهما:

- لم يبـق إلا أن نشـكل محكمـة وننظـم قضيـة ضدكـما، مـا رأيـك يـا

سـيدي الشـيخ؟ - والتفـت إلى عبـد الهـادي أفنـدي - إني أحكـم عليهـما بـــ... بـأن يـأكلا حتـى الاكتظـاظ والتخمـة.

وعلـت الضحـكات في أرجـاء الـوادي والتـف الجميـع حـول الخـوان يأكلـون، وتعمـد أكـرم أن يجلـس بجانـب نـدى، وتعمـدت هـي ألا تنـأى عنـه.

***

قـال قاسـم، وقـد عبثـت أصابعـه النهمـة بالأطبـاق كلهـا، وأخـذت أحسـن مـا فيهـا، وبعـد أن جـرع مـن النبيـذ جرعـة رويـة:

- لـو لم تكـن لـك سـوى هـذه الحسـنة يـا امـرأة، موجهـا الـكلام إلى زوجتـه، في طهـي هـذا الطعـام وإنضاجـه وتنويعـه وإعـداده، لكانـت حسـبك في اكتسـاب عطفـي ورضـاي و...

فقاطعه والد زوجته في سـخرية حادة:

- وهـل أنـت أبقيـت لنـا شـيئا مـن هـذا الطعـام لنشـاركك في الرضـاء والعطـف عـلى زوجتـك؟ اصدقنـي القـول يـا هـذا، أأنـت تـرضى عـن زوجـك وتمحضهـا العطـف والـود أم... أم معدتـك؟

وضحـك القـوم مـرة أخـرى حتـى كادوا يشرقـون. وتلاغطـوا، وأسرَّ كل إلى رفيقـه الجالـس بجانبـه كلامـا عـن ظـرف الشـيخ وسرعـة بديهتـه، وكيـف أن النكتـة حـاضرة أبـدا بـين يديـه. ولكـن هـذا كلـه لم يكـن ليخجـل قاسـما، وعـلى أنـه كان الهـدف لسـهم الشـيخ ومـدار النكتـة والهـزء، فـما ارتـج عليـه ومـا وقـع في حـيرة ومـا أخـذ عليـه الطريـق، ولم تحبـس لسـانه عـن

الـكلام بـل قـال لزوجتـه معرضـا بالشـيخ:

- هـل توافقـين أبـاك عـلى هـذا يـا امـرأة؟ أرأيـت كيـف يمـلأ فمـه مـن زادي، ويكـظ معدتـه مـن إنتـاج تعبـي وكدحـي ثـم... ثـم يسـخر منـي بمزاحـه... هـذا كثـير يـا امـرأة و يحـز في النفـس... و... و...

ولم يجـد شـيئا آخـر ليقولـه، فطـوى راحتيـه عـلى زجاجـة النبيـذ ورفعهـا إلى فمـه وراح يعـب منهـا ويعـب.. وأغـرق القـوم في الضحـك ونهـض الطفـلان توتـو وسري يضجـان ويخرجـان لسـانهما لأبيهـما ويـدوران حولـه، فـما تحـرك ومـا أعـار كل هـذا الضجيـج التفاتـا ومـا ألقـى إليـه بـالا، وكأن سـواه المقصـود بـه، وظـل رافعـا رأسـه وقـد طـوى شـفتيه الغليظتـين عـلى فـم الزجاجـة يكـرع ويكـرع حتـى ارتـوى ونضـب مـا في الزجاجـة، فوضعـه بتـؤدة عـلى الخـوان، وقـال وهـو يسـترق أنفاسـه اسـتراقًا

- أجل، هذا جزاء الإحسـان.

وكان أكـرم ونـدى قـد انتهـزا فرصـة انشـغال القـوم بالمـزاح واللهـو فتسـاقيا كـؤوس الـراح، فـشرب مـن كأسـها وشربـت مـن كأسـه، وقبَّـل موضـع شـفتيها عـلى الـكأس وقبَّلـت موضـع شـفتيه...

رفـع الخـوان، وقـام أمـين وأختـه حيـاة يعـدان القهـوة عـلى نـار الأعـواد اليابسـة، ويجمعـان عـن الاشـجار «حـب قريـش» ينضجانـه في اللهـب.

وتفـرق القـوم؛ فذهبـت دلال وتبعهـا زوجهـا قاسـم إلى ظـل شـجرة مديـد، وانطرحـا هنـاك عـلى الأعشـاب الناميـة يتحدثـان، أو يتناجيـان عـلى الأصـح،

بصوت خفيض لا يسمعه أحد، ولم يهتم بهما، أو على الأصح، لم يرقبهما أحد سوى ندى. فقد أحست لذلك بغيرة خفية وتمنت لو أنها تستطيع أن تصفع أختها بقوة. وانسحب الشيخ بتثاقل يجر جسمه المتهدم جرًّا، وتمدد بقرب زوجته الكهلة، وجلست ندى وأسندت ظهرها إلى دوحة ضخمة عتيقة تشهد جذوعها وفروعها بأنها قاومت الأعاصير والزعازع وصمدت للرياح الهوج والعواصف المجنونة. وأخذت ندى كتابا وفتحته وأجالت بصرها في صفحاته هنيهة فلم تقرأ شيئا، بل أحست أنها لا تفهم ما تقرأ، فطرحت الكتاب جانبا بعصبية وحدَّة، وكان أكرم لا ينفك يرقبها ويسعى بحذر إلى الاقتراب منها. وانطلق الطفلان توتو وسري يطفران في الوادي ويلاحقان الفراش، ثم بدا عليهما الكلال ففترت حركتهما، وأخذا يدلفان نحو أبويهما ليرقدا بجانبهما، وأديرت القهوة وفاحت رائحة البن ممزوجة برائحة «الحبهان» الزكية، وشرع القوم - وقد استووا في مجالسهم - يشربون القهوة في حسوات متمهلة ويدخنون في هدوء وصمت وذهول.

الوادي عميق عمقا يستهوله القلب، وقاعه فسيح يضل فيه البصر، وتزخر فيه الخضرة المريعة. وهنا وهاهنا دوالي العنب مبعثرة ومثقلة بقطوف دانية، ينعكس عليها نور الشمس فتشع وتضيء بين أوراقها. يتخلل هذا كله شجر السرو الساهم الذاهب في السماء، وأدواح باسقة منيفة ذات أفياء وارقة. ويمر بين حين وآخر طير شارد في عرض السماء يرف بجناحيه رفيفا متداركا سريعا ثم يكف ويسبح في الفضاء فترة وجيزة، ثم يعود جناحاه إلى الرفيف، وهكذا في تعاقب مستمر إلى أن

يغيب عن النظر ويضيع في فجاج السماء. والجبال العاتية الجبارة تبدو من بعيد كأنها ملفوفة فيما يشبه الضباب الأبدي، هاته الجبال إنها هنا تحرس القرية منذ أجيال وأجيال.

والشمس تنحدر في موكب من نور أخذ يخبو، ونار راح يخمد لظاها، وتبترد وقدتها، ونسمات ندية شاعت فيها رائحة أعشاب الوادي وخضرته، تهفو رفيقة رقيقة على وجوه القوم، وكانوا في حال من الحلم واليقظة، هنا الشيخ الراقد بجانب زوجته الكهلة ولكنه لم ينم، إنما هو يحلم، حلمًا من أحلام اليقظة؛ إنه يرى إنسانا متهدمًا مكدودا، متقوس الظهر كأن عبئا خفيًّا يبهظه. إنه يسير بخطى وئيدة مترنحة حيرى، وها هو يقترب من الهوة العميقة المظلمة التي لا قرار لها، عما قريب ستبتلعه، وارتعش الشيخ ومرت في جسمه رعدة. هو يعرف هذا الانسان. يعرفه تمامًا، فقد عاشره سبعين عاما كاملة. لم يكن هذا لا يقوى على السير، بل كان فتى في إهاب من الشباب الطرير. لقد كان وكان. ولكن ماذا هو الآن؟ لا شيء، لا شيء مطلقا، ذبالة تحترق ولا تلبث أن تفنى. واختلج الشيخ مرة أخرى وأثنى فكره إلى أفراد أسرته، ماذا؟ إنهم بعيدون عنه، وهو بعيد عنهم، بعيد جدًّا، إنه يعيش بينهم وكأنه واحد من أهل الكهف، له زمانه وعصره وعيشه، ولهم زمانهم وعصرهم الذي يعيشون فيه. أجل إنه غريب، وقد آن أوان الرحيل.

وهنا زوجته، زهر، بجانبه، إنها تحلم أيضا أحلام اليقظة، كان أعذب أمانيها، في عنفوان شبابها، أن يكون لها زوج تحبه، وأطفال تعبدهم،

ولقد تحقق كل هذا، وهل هذا يعني أنها أدت دورها وانتهت؟! أوه، كلا، ما زالت أماني الحياة تجيش في صدرها، تريد أحفادًا يملؤون دارها؛ أحفادا كثيرين، بين يديها اثنان، ولكن أول الغيث رذاذ ثم ينهمر، ولكن هل هذا كل شيء أيضا؟ والتفت قلبها إلى زوجها الشيخ، مسكين، إنه ضعيف، ضعيف جدا، إنها بدأت تكرهه، أدركت ذلك بغريزتها فقط، لِمَ؟ لا تدري، لعلها ليست على حق في هذا الكره، فهو لم يسئ إليها، وهو اليوم أشد ما يكون عطفا عليها وحبًّا لها، ولكن الكره بدأ على كل حال يدب في قلبها؛ ما أبعده اليوم عن قلبها، شيء يشبه الجوع والظمأ، تئن له أحشاؤها. لقد كان هذا الشيخ يستطيع أن يشبع هذه الأحشاء النهيمة ويروي ظمأها، أما الآن فهو عاجز، وما زال الظمأ يستعر ويطلب ريا. ولاح في بهرة خيالها طيف قاسم؛ زوج ابنتها الكبرى، إنه شاب قوي، تصرخ الرجولة في صفحة وجهه، وتنبعث من حركاته ولفتاته حيوية زاخرة متدفقة، ولكن هذا الرجل ليس لها، إنه ملك لامرأة أخرى، وتحرك في قلبها شبه حقد على ابنتها، وأحست كأن نصلا حادًّا يمزق أحشاءها، وجاشت في مآقيها الدموع الخرساء.

دلال، هي الأخرى تحلم مفتوحة العينين. هناك عند جذع الشجرة، ها هي منطرحة على العشب في كلال وسأم، إن جسمها الذي كان ظمآن، ظمآن هذا الجسم، لقد وجد من يعبده. إنه رجل أحلامها، كانت تحلم به وهي بعد تلميذة تدلف إلى السابعة عشر، كان طيفه لا يفارقها لحظة واحدة أثناء الدرس وفي الشارع. أجل في الشارع، في كل رجل كانت تراه وتدعوه، وفي غرفتها في فراشها فراش العذراء، هذا

الفـراش الـذي تـراه الآن بعينـي خيالهـا، بسـيط صغـير الحجـم، ضيـق لا يتسـع لغـير جسـم واحـد. وقـد كان كل شيء فيـه أبيـض ناصعًـا؛ الأغطيـة، الوسـائد. كل شيء كان بسـيط النسـيج، لا وشي عليـه ولا ترقيـم، عقـدة مـن الحريـر الأزرق فقـط، شـد مـا ضـج هـذا الفـراش بأحلامهـا؛ أحـلام العـذراء. لقـد كانـت تتعمـد أن تدخلـه نصـف عاريـة، لم؟ لا تـدري، إنمـا هـو إحسـاس غامـض مبهـم كان يدفعهـا إلى ذلـك، وغرفتهـا؛ الغرفـة الخـضراء الصغـيرة، وأثاثهـا القليـل، دولاب ومـرآة ورف صغـير للكتـب؛ آه، كادت تنـسى أصابـع (الأحمـر) التـي كانـت تشـتريها خفيـة، ولا تسـتعملها إلا في نزهاتهـا مـع صديقاتهـا اللـواتي كـن يتجملـن مثلهـا، وعنـد عودتهـا إلى البيـت تزيـل عـن شـفتيها الدقيقتـين كل أثـر لهـذا اللـون الصـارخ، فتبـدو أمـام ذويهـا كمـلاك. وكتبهـا؛ كتبهـا المختـارة، كانـت تخفيهـا هـي الأخـرى عـن الأعـين، كـم شـغفت بكتـاب «رسـائل إلى فرانسـواز» لمارسـيل بريفـو، وكتابـه الآخـر (رسـائل نسـاء) وشـعر (بيـر لويـس) كانـت تحبـه وتحـب ذلـك الغمـوض الـذي يشـيع فيـه، لأن كل لحـن فيـه وكل نغمـة كانـت تهزهـا تهـز أعصابهـا هـزًا وتدعوهـا إلى عـالم غريـب زاخـر تلتمـع فيـه ألـوان شـتى خاطفـة وتشـيع في أفقـه عطـور مسـكرة. وتتدافـع في ارجائـه أجسـام حـارة ثائـرة. تسـعى إلى شيء مجهـول. بعيـد. ثـم تتهافـت منهوكـة متهالكـة في شـبه إغـماء. وأشـياء أخـرى في ذلـك العهـد كانـت تحيرهـا، فـإن نفـرًا مـن الشـباب، ممـن تربطهـم بعائلتهـا وشـيجة نسـب أو سـبب قرابـة، كانـوا يضايقونهـا بأشـياء كثـيرة بنظراتهـم النهمـة التـي كانـت تحـدق في نواحـي خاصـة مـن جسـمها وتطيـل التحديـق والتأمـل بأحاديثهـم الجريئـة، بفضولهـم، أوه... لم تكـن لتطيـق هـذا أو شـيئًا منـه، إنهـا متأكـدة. كانـت

تنفـر منهـم وتتحاشـاهم أجـل لم يخفـق قلبهـا لأحـد منهـم، لا ريـب في هـذا ومـع ذلـك فإنهـا كانـت تحـب، مـن؟ لعلـه ذلـك التلميـذ الهزيـل الحائـر الـذي كان يطالعهـا كل صبـاح مـن النافـذة المقابلـة لنافـذة غرفتهـا بوجـه الشـاحب وعينيـه الغائرتيـن ككهفـين، كلا. عـلى وجـه التحقيـق، شـد مـا كانـت تكرهـه وتسـخر منـه وتخـرج لـه لسـانها. لم تكـن تحـب شـخصًا معينًـا، فـإن قلبهـا كان يهفـو إلى كل بطـل مـن أبطـال السـينما، كانـت أبـدًا تتصـور نفسـها بـين ذراعـي واحـد منهـم يوسـعها قبـلات ثائـرة مجنونـة ثـم تنفـر مـن بـين ذراعيـه وتـشرد ويظـل يلاحقهـا ثـم ينالهـا الإعيـاء فيتهافتـان معًـا عـلى أريكـة في عنـاق مسـتغرق، وفجـأة، أجـل فجـأة جـاء هـذا الرجـل الغريـب مـن مـكان مجهـول وانتزعهـا مـن بـين هـذا كلـه انتزاعًـا لقـد كان هـذا في سرعـة غريبـة، فقـد أصبحـت زوجـة وربـة بيـت، صحيـح أنهـا تهيبـت زوجهـا بـادئ الأمـر وعاشـا فـترة لا يتفاهـمان وأن هـذا كان ينـذر بـشر، ولكنهـا ألفتـه وألفهـا ثـم تفاهـما.

لقـد هـدأ أخـيرًا هـذا البـدن الفائـر وأصبـح لـه سـيد قـوي مسـيطر وهـذان الطفـلان (توتـو) و(سري) هـما ثمـرة هـذا الـزواج الموفـق. وغمـرت صدرهـا موجـة مـن نعيـم مباغـت.. ثـم تمطـت وتثاءبـت وإن شيء في أحشـائها، فالتفتـت إلى زوجهـا، إنهـا تشـتهيه الآن. ولكـن زوجهـا بجانبهـا نائـم. ولـه غطيـط، فـأي إخفـاق!

ونـدى. أيـن هـي؟ إنهـا مـا تـزال في جلسـتها مسـتندة إلى الدوحـة العتيقـة، وقـد اتـكأ أكـرم بقربهـا. وهـما يتحادثـان

هـي: كان مرضك خطيرًا. وكنا نخشى عليك.

هو: أجل كان شـبح الموت لا يفارقني لحظة.

هـي: ولكنك مع ذلك هزمته.

هـو: الرغبة في الحياة لا أكثر.

هي: مسـكين. لقد تألمت.

هـو: لا تكتمـل الرجولة إلا حين يدهمها ألم كبير.

هي: لقد قرأت.

هو: ماذا؟

هـي: ما كتبته بعد مرضك

هـو: (ضاحكًا) من أطلعك عليه؟

هـي: إننـي أتتبـع مـا تكتبـه منـذ طويـل. لقـد كان مقالـك (الألم الكبـير) خارجًـا مـن الأعـماق.

هو: إنـك تبالغين. وتبغين أن تحرجيني.

هـي: وأحفـظ منـه بالخصـوص قولـك: إن سريـر المـرض قمـة يـشرف المريـض منهـا عـلى حقائـق الحيـاة.

هـو: هـذا هـذر. وكلام فـارغ فـلا تصدقـي. إن زيارتـك لي، وباقـات الزهـر

الأنيقة التي كنت تحملينها إلي، ثم تضعينها برشاقة في الزهريات، وتلك الابتسامات المشرقة التي كنت تجودين بها علي، هذا كل ما خرجت به من ذكريات مرضي.

هي: ألا تذكر امتعاض زوجتك حين كانت تراني مقبلة وفي يدي تلك الباقات؟

هو: زوجتي؟! إنها على الأقل ليست هنا.

وصمت.. هو لا يكره زوجته ولكنه يظن أن لا سبيل إلى الاتفاق بينهما. لقد حاول جهده وهي حاولت أيضًا ولكنهما أخفقا. هو لا يستطيع أن يحدد تماما

لِمَ لم يتفقا، وهي لا تستطيع ذلك أيضا. لكن مما لا ريب فيه أنه يحس أن نفورًا كاملًا متأصلا بين جسده وجسدها يباعد بينهما، إنها حين تعاطيه القبلة يشعر تمامًا كأنها تلقمه قطعة من الحلوى لتلهيه وتملأ فمه بها، وحين يأخذها بين ذراعيه ويدنيها من صدره الظمآن، ماذا؟ إنها تصبح مجرد جثة فاترة لا تجيش فيها حياة ومنذ لحظة فقط كان هذا الجسم يحيا وكان حارًا. ومن ذا يظل يفتك الجوع في أحشائه وزاد الحياة أمامه لا يستطيع أن يمد إليه يدًا؟ فهل هذا هو الذي يحول دون أن يكونا سعيدين؟!

والتفت قلبه المحروم إلى (ندى) وصاح جسده: من الأعماق أناديك...

فأجاب جسدها: أنا لك...

وانهـزم النهـار وراحـت الشـمس تتـوارى في كلال وإعيـاء وراء الجبـال الصامتـة، وقـد تركـت أنفاسـها الأخـيرة في حـواشي السـماء جمـرًا ولظـى فـترة وجيـزة ثـم انتـشرت الظـلال وقـد نهـض أفـراد الأسرة وراحـوا يصعـدون الجبـل.

همـس قاسـم في أُذن نـدى: اتفقنـا، غـدًا سـأعد كل شيء، سـتكون غرفتـي عـلى رأس الجبـل معبـدًا صغـيرًا لنـا..

٣

قـال: لقـد انتظـرت.. وانتظـرت.. واشـتعلت النـار في قلبـي ولكنـك جئـت أخـيرًا..

قالـت: كادوا يحولون بيني وبينك.

قال: كيف؟

قالـت: لم يكـن يسـيرًا أن أقنعهـم بـأن أخـرج وحـدي. ولـو للنزهـة وترويـح النفـس. فقـد أصروا وأصررت. وثـرت بهـم وأفهمتهـم أني لسـت بعـد طفلـة يخـشى عليهـا أن تضـل الطريـق.

وكانـا عـلى رأس الجبـل والقريـة تحتهـما سـاكنة هادئـة مستسـلمة. لا يعكـر صفوهـا إلا سـيارة تمـر بـين حـين وآخـر تحمـل المصطافـين. لحظـة مـن الزمـن. ثـم يعـود الهـدوء شـاملًا كـما كان، وقـد فـرغ الفلاحـون مـن أعمالهـم في الأوديـة، يجمعـون الأعنـاب والفاكهـة ألوانـا شـتى ويعبئونهـا في سـلال صغـيرة، فيبيعـون منهـا مـا يبيعـون للمصطافـين ويأخـذون منهـا

حظًا لأنفسهم ويصدرون ما تبقى - وهو كثير - إلى المدن القريبة فإذا لهم من ورائها ربح إلا يكن وفيرًا فهو على الأقل يقيهم العوز والفاقة ويتيح لهم أن يعيشوا وادعين مطمئنين في كنف هذه الطبيعة المحسنة التي تنمي أجسامهم هكذا فارعة متينة الأسر شديدة المنة وتدفق في عروقهم دمًا نقيًا خالصًا، كانا على رأس الجبل ومن حولهما الجو ينبئ بأن ريحًا غربية ستشتد بعد قليل و سيكون لها دوي وزئير.

وهذه هي بكل فتنتها وسحرها واقفة قبالته تعبث الريح بشعرها الفينان فتهدل خصلًا منه على صفحة وجهها الوضيء في فوضى آسرة، وإنه ليحدق بها وإن شفتيه لترتعشان وتتمتمان الصلاة. الثمرة ناضجة مغرية، وتنبئ أن رحيقها سيكون ثرا، حلوًا، مسكرًا، لن يحول شيء دون ذلك.

قال وهو يأخذ صفحة وجهها بين راحتيه ويثيرها بقبل خفيفة مختلسة على خديها: «لقد عنيت بإعداد عشنا. عش غرامنا. ما وسعني ذلك في هذا المصيف النائي وما تهيأت لي أسبابه، ألا ترين أن نلجأ اليه؟

وهي تسمع كلامه كأنها في حلم: كيف لم تفكر في ذلك من قبل. كيف؟

لم لم تشعر بهذا إلا في هذه اللحظة؟ هناك هاتف يهمس من بعيد. من الأعماق القصية، يقول لها انظري، إنك على وشك أن تهتكي بيديك هاتين حجابًا يقيك السوء.

قالت العزيزة بحدة وعنف: «لن أظل في ظمأ إلى الأبد. إني أريد ريا. لن أنثني ولن أرتد:

قال الهاتف البعيد في خضوع: قد تسقطين! قالت العزيزة في إصرار: لن أموت جوعا والمائدة ممدودة والزاد وفير.

وارتعش جسمها. وغمرتها موجة من نور. فتألق محياها وضحكت أساريره واختلجت شفتاها هنيهة ثم مالت على صاحبها وفي عينيها إشعاع خاطف وقالت في نشوة: امض بنا إلى عشنا. إلى عش غرامنا.

****

الطريق كما ترين غير مستوية وهي ذات التواءات تصعد حينًا وتنحدر حينًا آخر. وستزداد التواء وتعقيدًا كلما أوغلنا في قلب هذه الغابة. ويحسن يا صديقتي أن تحني رأسك قليلًا فإن هذه الفروع والغصون المتشابكة المعقدة هي الأخرى لا ترحم. وسواء أكان عندها الرأس الذي تصدمه وتشجه رأسا ضخما غليظًا صلبًا أو.. رأس أميرة معبودة.

قالت في ضحكة مكتومة وهي تحني رأسها قليلًا وتنحي بيديها الأغصان الصغيرة التي تعترضها وتتلمس الطريق بتؤدة وحذر: ما كنت أحسبك تؤثر هذا الغار الصامت المهول على النواحي الدمثة التي لا ترهق ولا تقصم الظهور.

قال في غموض: أنا؟ إني هكذا خلقت، أعني إني هكذا أبدأ أبغي ما يشق على الناس وأطلب ما يضيقون به وأسعى إلى ما يجدون فيه

حرجًا وعسرًا. قد لا يكون هذا مزية أو فضيلة. ولكنه مزاجي.

ولست أضيق به، ولا يشق عليّ أن أكون غير الناس، ما علينا، أليس آمن لنا أن نخلو بنفسنا على هذه الربوة في عش مجهول كهذه الطير التي ترين وادعى إلى أن تكون فترة متاعنا ونعيمنا بين يدي هذه الطبيعة أحفل وأملا. وأن يكون تذوقنا لهذا النعيم أتم وأكمل وأعمق وقعًا وأبقى أثرًا؟

فقالت في سذاجة نقية كطفل: ما كنت أعرف أن في الحياة كل هذه السعادة الغامرة، وما كنت أحسب أني سأجد مثل هذا النعيم.

وكانا قد انتهيا إلى فناء البيت في آخر الغابة، وهو يقوم هناك كواحة ظليلة في صحراء تائهة محرقة، يجد المجهد المكدود في كنفها راحة ونعمة بعد شديد عياء وطول برح. ولحظ أكرم أن صاحبته قد نالها شيء من الإعياء فهي غير خفيفة الخطوات، وفي حركتها بعض الفتور والتراخي، وفي تنفسها ضيق وصعوبة، وآية هذا إنها تتنفس بسرعة، وصدرها يعلو وينخفض بعصبية ظاهرة، وفي عينيها ما يشبه الحيرة، ليس إذن تعبًا ما بها.

وفي التماعة ذهنية سريعة فهم أكرم سبب هذا الفتور الفجائي وهذا التردد المبهم. وهذا الذي يبدو عليها من إعياء وفقدان القوى، ورأى أن خير ما يفعله وهي تترجح بين الأقدام والأحجام، أن يخطو بها هذه الخطوة الباقية التي تباعد بينهما والتي ما زالت على قربها ويسرها أقوى حائل دونهما، ولكن كيف! بسرعة، يجب أن يفجأها، أن يذهلها،

أن يغمرها بألوان متراكمة، صارخة، تخنق هذا الهامس الذي يكاد يفسد كل شيء، لا يجب أن يدع لها وقتًا للتفكير وإلا ضاعت الفرصة وأفلتت من بين يديه إلى الأبد.

«عشنا ينتظرنا يا صديقتي. وقد بدأ علينا الملال لفرط الانتظار، لقد أعد لنا في أرجائه لذة ومتاعًا وحياة مفعمة» ولف خصرها بساعده وخطا بها خطوات سريعة واقتحم الباب اقتحامًا. فإذا هم في قاعة غير فسيحة ينهزم فيها النور بتؤدة وصمت. وهنا وها هنا أصص الزهر تشيع في الجو شذى فياحًا يعبق في الصدر ويملأ الرئتين وهنا وهناك مقاعد قليلة من القصب ومناضد صغيرة. ولاشيء غير هذا إلا السكون الجاثم والحلم الدائم.

قالت في حيرة: أين؟ ولم تزد. فقال في قوة وحزم: من هنا، أعني هذا الباب. وخطا نحو أحد البابين على جانبي القاعة، ونحي بيديه الستائر الحريرية وقال مرة أخرى في إرادة: من هنا. و تقدمت ندى في وجل موزعة الإرادة بين غريزة جائعة ملحة و بين هاتف بعيد يحاول أن يكبح الغريزة ويثنيها ويردها عما تريد. وإذا هي في لحظة حاسمة تندفع إلى الغرفة المجهولة كمذعورة قد حطت عن كاهلها

عبئًا يعيقها ويوقر ظهرها. وقفت هنيهة مبهوتة تحاول عبثًا أن تملك روعها وترد قلبها الذي يكاد يثب من صدرها ليفيض ويملأ الدنيا بجيشانه وطميه. وراحت تجيل في الغرفة نظرات حائرة قلقة، وكل شيء فيها يثير الأحلام الراقدة البعيدة، وكل شيء فيها أعد لرجل وامرأة.

كان السرير أول ما وقع بصرها عليه. عريض، فسيح، كل ما فيه من وسائد لينة وفراش وثير وأغطية هادئة اللون كأنها سحب رقيقة تجلله وتضفي عليه لونًا من الحنان المستسلم في رفق ودعة وحلم، كل هذا يجيش صدرها ويلهب دماءها، ومن حول السرير وفي أركان الغرفة منبثة الأرائك اللينة الطرية. ونمارق رخصة مبرقشة ملقاة هنا وهناك، ومنضدة صغيرة عليها زجاجة خمر وكأسان، وغلائل الورد منثورة على البساط والأرائك وعطر فائح ينبعث في جو الغرفة وينساب في هدوء ورفق إلى الصدور يخدر الأعصاب، والشمس المنهزمة تنسل أشعتها الواهنة من خلال الستائر الحريرية المسدلة والظلال تزداد كثافة.

شردت ندى حيال هذا كله. ثم التفتت إلى أكرم. وندت عن صدرها تنهيدة خافتة وقالت وعلى شفتيها طيف ابتسامة: أهي غرفة عرس؟

فقال في نشوة زاخرة: ولن يحتفل بهذا العرس أحد سوانا، وتقدم إليها وفي عينيه وميض الرغبة والإصرار العنيد وقال: دعيني أساعدك في نضو هذه الملاءة، فإنها تربكك وتخفي محاسن جسمك. وأجابته إلى ما يريد في إذعان وتسليم. وقف أكرم يتأملها كعابد مؤمن. وقد نضت ملاءتها، في ثوبها الحريري الأزرق المنسجم وبان ذراعاها يصرخان بنداء البدن وأريق على صفحة وجهها لا أدري أي أضواء مشوشة فاتنة. وانتابت شفتيها اختلاجات سريعة مطردة منومة، لم يقو أكرم على احتمال كل هذه الفتنة المميتة. فقد اكتسحته أنوثتها اكتساحًا، فاندفع نحوها وأخذ ذراعها وأهوى عليها بشفتيه الملتهبتين وظل كذلك مغمضًا عينيه، يشتف اللذة اشتفافًا كمن يشرب كأس خمر، هنيهة غاب فيها

عـن دنيـاه ثـم فتـح عينيـه كمـن يسـتيقظ مـن نـوم عميـق وأراد أن يرفـع رأسـه فـإذا هـي الأخـرى كمـن أخذتهـا نشـوة مفاجئـة فقـد حنـت عـلى رأسـه برفـق تقبلـه بحنـان حـالم، وتمـر بأناملهـا عـلى عنقـه وخديـه بتـؤدة ورقـة وقـد سـبحت في عينيهـا الواسـعتين سـحابة رقيقـة مـن الدمـوع.

ولم يسـتطع في هـذه اللحظـة الزاخـرة أن يقـول شـيئًا غـير هـذه الكلمـة الأبديـة: «أحبـك» قالهـا في همـس عميـق مؤمـن يـردد صـلاة في تـضرع وخشـوع. أي سـحر في كلمـة الحـب هـذه وأي عمـق وأي جـلال! كان يحسـبها مبتذلـة سـخيفة ولكنهـا الآن عـلى شـفتيه وقـد نـدت عـن قلبـه الزخـار مـا أعذبهـا ومـا أروع جدتهـا ومـا أفـتن وقعهـا في لفائـف القلـب. وعرتـه فجـأة اختلاجـة ومـال عـلى صاحبتـه وقـال كالملهـوف: نـدى، إني أخـشى كل هـذا النعيـم، فقالـت في ابتسـامة غامضـة: إني أحـق منـك في أن أخشـاه وأسـتريب في مـا يخبـئ لنـا في حواشـيه و ثنايـاه، وأراد أن يقـول شـيئًا، ولكـن ذهنـه انثنـى إلى الفكـرة الثابتـة، ولاح في خيالـه البـدن كأفـتن مـا يكـون البـدن العـاري، تنبعـث منـه رغبـات ظامئـة، وأحـس بالجـوع ينهـش أمعـاءه ويـكاد يمزقهـا، وعـادت دمـاؤه تجيـش في عروقـه ملتهبـة مندفعـة تصعـد إلى رأسـه وتخيلـه. فالتفـت إلى صاحبتـه كحيـوان جائـع وقـد اتسـعت حدقـات عينيـه

وقـوي تنفسـه وشـاعت في أنفـه رائحـة واحـدة، رائحـة المـرأة، وقـال كذئـب يعـوي: تعـالي، كلام فـارغ.. لا يجـب أن نخـشى شـيئًا.. تعـالي. وأخذهـا بـين ذراعيـه وعصرهـا عـلى صـدره بقـوة عاتيـة، وراح يهـوي بالقبـل عـلى وجههـا وفمهـا وعينيهـا كمجنـون، وكان يسـتمرئ القبـل ويحـس لهـا بنكهـة لذيـذة

مسـكرة ثـم حملهـا إلى أريكـة عنـد المنضـدة الصغـيرة، وأخـذ زجاجـة الخمـر وصـب في الكأسـين وناولها أحدهـما وأخـذ الآخـر وقـال في جنـون: هيـا.. فلنـشرب نخـب.. نخـب... وبـدرت منـه التفاتـة نحـو السريـر الكبـير: فلنـشرب نخـب السريـر. وانطلقـت مـن صـدره ضحكـة فاجـرة في قهقهـة متقطعـة ثـم أفـرغ الـكأس في جوفـه.

والظـلام ينتـشر بتـؤدة ورهبـة وأشـجار الغابـة صامتـة، كأنمـا هـي تنسـجم بعـد عراكهـا الطويـل مـع العاصفـة، والسـماء كابيـة لا يومـض في فجاجهـا نجـم.

والقريـة في سـفح الجبـل نائمـة نومهـا العميـق المطمـئن والغرفـة تتكاثـف فيهـا الظـلال وتشـد حلوكـة الظـلام، وليـس يسـمع فيهـا غـير همهمـة واضحـة آنًـا وغامضـة مبهمـة آنًـا آخـر. ثـم همسـات خافتـه: « أنـت لي ولـن تكـوني لسـواي..» ثـم عربـدة مضطربـة، ثـم كلام غـير واضـح.

أنا سـيدك.. أنا سيد هذا البدن..

ثـم حركـة واضطـراب يشـبهان العنـف، ثـم كلـمات متقطعـة كأنمـا هـي تعقيـب عـلى كلام سـابق:

ولكنـي مع ذلك عبدك.. عبد هذا البدن..

ثـم لا شيء عـلى الإطلاق، لا شيء غير أنفاس سريعة مضطربة.

## ٤

من مذكرات أكرم

١٥ سبتمبر ١٩٣٠

استفقت هذا الصباح وقد شاع الضعف في جسمي كله. فقد قضيت الليل ساهرًا ضائع الرشد. مخبولًا، ما أن يأخذ الكرى بمقاعد أجفاني هنيهة حتى يعاودني الأرق والسهد فأستوي على فراشي مذعورًا أحاول عبثًا أن أثنى فكري عن حوادث هذه الليلة وأرده عن هذا الاضطراب الذي يستبد بي ويرهقني ويأبى إلا يغمر ذهني بهاته الصور المشوشة المضنية. إني أعتبر هذه الليلة حدًا فاصلًا في حياتي، لا أدري كيف اعترضت ندى سبيلي. لا أدري كيف التفت بدني إليها، كل ما أدريه أني كنت أشعر بفراغ هائل في حياتي، كان شيئا كالجوع والظمأ يفتك بي ويخبلني ويدفعني في ثورة مجتاحة إلى التماس المرأة، أو على الأصح التماس البدن، لقد كانت المرأة بجانبي وهي زوجتي، مسكينة! ولكن البدن الذي كنت أحن إليه، البدن الذي يشبعني ويروي ظمئي ويلهب دمائي، كنت أفتقده في زوجتي، ولقد وجدت هذا كله في هذه العذراء المسكينة ندى، كان يلوح لي أنها هي الأخرى تطلب الرجل، الرجل الذي يستطيع بقوته ورجولته أن يملأ راحتيها بزاد الحياة. لقد اندفعنا كلانا إلى المجهول بقوة خارقة مستبدة، لم يكن هناك سوى رجل وامرأة ولم يكن هناك سوى رغبة ملحة عاتية، هي إشباع البدن، اكتسحت في سبيلها الفضائل جميعًا في جبروت وطغيان، واحتوتنا غرفة

واحـدة وضمنـا سريـر واحـد. ولأول مـرة في حيـاتي أحسسـت بحيويـة البـدن المحمـوم الـذي يتأهـب للانفجـار، وينـذر أن الانبجـاس سـيكون غامـرًا مدمـرًا، وعندمـا رفعـت الـكأس إلى شـفتي وأردت أن أعـب وأعـب، إذ فجـأة ينبثـق في الظـلام الرهيـب الـذي يحيـط بي ضـوء صـارخ، وإذا بي أنحـي الثمـرة عـن شـفتي في جهـاد مميـت وصراع فاجـع، إنهـا عـذراء، و... يجـب أن تظـل عـذراء. تركـت السريـر كمجنـون، وقبعـت هـي في ركـن مـن الغرفـة تـئن أنينًـا ممزقًـا في حشرجـات متقطعـة أليمـة.

٢٠ سبتمبر ١٩٣٠

كانـت شـاحبة اللـون، هزيلـة، ذابلـة العـود، غـاض الإشراق الـذي كان يشـيع في محياهـا نـضرة الحيـاة، حزينـة في كآبـة مـرة، نظـرت إلي طويـلًا واختلجـت جفونهـا، وكادت دموعهـا تنفجـر لـولا أنهـا تداركـت الأمـر والتفتـت إلى الراقصـين مـن المصطافـين ينسـابون في رشـاقة وخفـة عـلى أنغـام التانجـو، يغمرهـم مـوج مـن نـور مختلـف الألـوان، وخيـل لي أن هـذا النعيـم الدافـق الـذي يـبرق عـلى شـفاه الراقصـين في ابتسـامات رقيقـة عذبـة وتفيـض بـه انثناءاتهـم الرشـيقة، وهاتـه الموسـيقى التـي تمـلأ أرجـاء القاعـة فرحًـا و نشـوة، خيـل إلي أن هـذا كلـه يسـخر بنـا في حقـد وشـماتة، فلـم أطلـق المكـث في هـذا الجـو المتناقـض، فنهضـت واسـتأذنت أهلهـا ومضيـت.

٢٩ سبتمبر ١٩٣٠

عـادت الحمـى، حمـى البـدن، تعصـف بي عصفًـا، لجـأت إلى الصـلاة أدعـو اللـه مـن أعـماق روحـي أن ينقـذني مـن هـذا العـذاب وأن يمـدني بقـوة مـن عنـده.

ولكنهـا كانـت فـترة قصـيرة، إذ اسـتفاق الحيـوان المفـترس الـذي يقبـع في أعماقـي يثـيرني ويطـوح بي، إنهـا تمـلأ حـسي وتغمـر خيـالي بصـور فاتنـة خلابـة. أرى البـدن في أبعـد أغـوار نفـسي يفـتن في تعذيبـي وإيلامـي وإلهـاب دمـي. إني بعـد أن عرفـت هـذا البـدن وامتـلأت عينـاي بمفاتنـه وأحسسـت بنارهـا اللافحـة في صـدري، غـدا حنينـي إليـه أشـد وأقـوى واسـتشرى الجـوع الـذي ينهشـني ويفتـك بي، لا بـد لا بـد مـن أن أعـود إليهـا، ذليـلًا.

لا شـك في أنها تتألم هي الأخرى وتذوب.

١٠ أكتوبر ١٩٣٠

كل شيء في هـذه القريـة السـعيدة - رام اللـه - أخـذت تشـيع فيـه مسـحة مــن الكآبــة الخرســاء. رائحــة الخريــف الحزيــن تفــوح وتمــلأ الأرجــاء والنفـوس ضيقًـا وكآبـة.

الريـح تـئن وتتنـاوح، والأشـجار تتعـرى مـن أوراقهـا في اسـتسـلام وخضـوع، والغيـوم الدكنـاء تتجمـع في عـرض السـماء وتحجـب الشـمس ثـم تنـداح عنهـا وتذهـب سـابحة في هـذه الفجـاج المهولـة، والمصطافـون يعـودون

لاستئناف حياتهم في المدن بآمال جديدة ونفوس متفتحة للحياة، وأنا وحدي في صدري كل ما يحمل هذا الخريف من كآبة وحزن. وتمر في ذهني ذكرى الأيام الأخيرة، فقد قضيناها - أنا وهي - في جحيم من الألم، مثل كل يوم مأساة الليلة الأولى أو مهزلتها، لا أدري، حتى تمزقت أعصابنا، ولم ينقذنا من هذا الجحيم إلا الرجل الذي جاء من مكان مجهول يطلب يد ندى إلى أهلها، وهو شاب في نحو الثلاثين بادي القوة منيف الجسم. ورأيت أن خير ما أفعله هو ألا اظهر أمامها في هذا الظرف الدقيق، وقد تم كل شيء - لا أدري كيف - وعادت الأسرة إلى المدينة لتتأهب للعرس.

٢٠ فبراير سنة ١٩٣٠

في المدينة استطعت أن أشبع رغبات البدن. والميدان هنا واسع الرحاب، والفارس المحنك يستطيع أن يغترف بالراحتين.

وقد تهيبت هذا الميدان بادئ الأمر وخشيته، ولكن ما إن خطوت فيه وتمكنت من مداخله ومخارجه حتى ألفته وأحببته ورحت أفتن كل يوم في اكتشاف نواح جديدة فيه. وقد مددت يدي إلى موائد كثيرة وأكلت من زاد غيري حتى شبعت ولم تعد لي رغبة إلا في مائدة واحدة، إنها غنية حافلة، هذه المائدة، وهي غير شحيحة ولا مقترة، وتقدم لي كل يوم ألوانًا جديدة مدهشة.

بيني وبين هذا البدن تجاوب عميق. وكأنما هو أعد لي وكان ينتظرني من أمد بعيد. وكلما حاول الضمير أن يهمس في روحي خنقه دوي بدن حوائي الجديدة وصعقه وأغرقه في طميه وتدفقه.

١٧ أبريل سنة ١٩٣٠

رأيتها الليلة. عذرائي القديمة، ندى، في حفل عائلي. وقد جاشت بي الذكرى واغتنمت فرصة اختلائي بها برهة فهمست في أذنها بذكرى الماضي وسألتها عن زوجها، فارتدت عني وهي تضحك ضحكًا عريضًا يهتز له صدرها. لقد شبعت يا مسكين والذكرى باهتة، باهتة في نفسي، وأعطتني ظهرها في سخرية لاذعة ومضت وهي تقول في همس: لقد وقعت إليّ إخبارك يا سيد أكرم. لا يغربن عن بالك أن تملأ دائمًا راحتيك وتعب حتى ترتوي، وأرسلتها ضحكة عالية ساخرة.

٨ يونيو سنة ١٩٣٠

كنت الليلة أنا وزوجتي في غرفة مكتبي، أنا أعمل هادئًا في بحوثي الفكرية التي يزعم النقاد أنها تحمل في المدة الأخيرة طابعًا واضحًا من الاتزان والعمق، وزوجتي تشغل نفسها فيما لا أدري من شؤونها الخاصة. وقد التقت عيوننا مرات في هذه الأثناء، ها أنا أسجل هنا ما خيل إليّ أنني فهمته من نظراتها وما أجبتها عليه:

عيناهـا: أعـرف كل شيء؛ هنيئًا لك ما أنت فيه.

عينـاي: لـك الشـكر، أرجـو أن تكـون الحيـاة قـد أنصفتـك وأرشـدتك إلى الرجـل الـذي أعدتـه لـك.

عيناها: هو ذلك وإني لسـعيدة.

عينـاي: لقـد عشـنا حينـا مـن الزمـن أشـقياء، ولكـن وجـد كل منـا سـبيله أخـيرًا.

عيناها: ألا يحسـن أن ننفصل لنسـتكمل حريتنا؟

عيناي: أليس كذلك؟

عيناها: هو ذاك.

# صِراع

أطرق صاحبي قليلًا وبدت على ملامحه أمارات التفكير فعل من يكد ذهنه ليتذكر حادثًا بعيدًا غام النسيان على تفاصيله، ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة مبهمة وقال يحدثني حديثه الغريب:

سم ما سأقصه عليك حكاية أو قصة أو حديث خرافة أو ما تشاء من هذه الأسماء المختلفة المتباينة، ولكن كن واثقًا من أن حديثي حديث صدق وقد وقع بتفاصيله الدقيقة لا ريب البتة في ذلك، وقد شهدت كل ما حصل وتتبعته حتى النهاية او ما أعتبره النهاية لأن الحادث انقطع بصورة غريبة مدهشة. ولعل أغرب ما في الأمر أن ما بين ابتداء الحادث وانتهائه على الصورة التي ذكرت سنوات ثلاثًا طويلة كانت تفاصيل الحادث تقع خلالها ببطء وعلى شكل شاذ، أعني أن النتائج لم تكن لتتفق وطبيعة المقدمات. أي إنها كانت تجيء دائما عكسية مباغتة.

* * *

لعلك تعتقد مثلي أن لبعض الأماكن تأثيرًا علينا وسلطانًا خفيًا كما لبعض الأشخاص أو العادات المتحكمة المستبدة. أجل كأن لهذه الأماكن روحًا مستترًا مبهمًا يسيطر على إرادتنا ويجتذبنا إليه دون وعي أو إرادة. وأريد أن أكون واضحًا فأقول إنك قد تترك بيتك وتقصد مكانًا معينًا تحب أن تمضي فيه شطرًا من فراغك فإذا بالرغم منك تتجه بك قدماك إلى مكان آخر كنت تحسب نفسك مللته لكثرة ما أويت إليه.

لعلك تريد أن تقول إن ليس في هذا كله شيء من الغموض والإبهام

وإن المسألة لا تعدو أن تكون عادة، أو أن هناك ألوانًا معينة تحبب إليك هذا المكان حتى لتفضله على غيره وتنساق إليه دون وعي. ولكن اسمح لي أن أرفض هذا الرأي فاني أكاد أؤمن أن الأماكن بل أن الألوان والأنغام روحًا كما قلت لك، روحًا قوية غلابة كما لبعض الأشخاص.

* * *

أنت تعرف كيف يمضي معظم الموظفين عندنا أوقات فراغهم. حياة متشابهة مملة ما بين المكتب والبيت والمقهى!

وأنا من هؤلاء الموظفين الذين لا يعرفون كيف يصرفون أوقات فراغهم في غير لعب النرد والتحدث في الترقيات والعلاوات - وكنت أحب أن آوي إلى هذا المقهى الصغير الواقع في نهاية شارع (جمال باشا) والمشرف على حي (النزهة). ليس في المقهى شيء معين يغريني إذا استثنيت وجود بعض الموظفين وتلك الحديقة الصغيرة المتواضعة وهذا الهدوء المبهم يخيم في أرجاء المقهى وبعض مدمني الخمر من غير المعربدين الصاخبين، ولم يكن حتى منظر الشارع الطويل - الذي يقوم المقهى في نهايته - بما فيه من أدواح باسقة وأفياء مديدة؛ ليغريني على الجلوس في ذلك المقهى به، إنما شيء حائر خفي كان يحببه إلي رغم مظهره المتواضع وبعده عن قلب المدينة الصاخبة، كنت أشعر أن هناك اتصالًا مبهمًا بيني وبين هذا المقهى يزهدني في كثير من ألوان الترف التي تعج بها مقاهي البلد الفخمة.

أرجوك ألا تقاطعني فإن تأثير الأمكنة أمر ثانوي في قصتنا وحين أخبرك عنه إنما أريد أن ألفت نظرك إلى ما يتصل منه ببطل القصة وقد جاء عرضا ما ذكرته عن إيثاري للمقهى دون سواه.

كان ممن ألفت رؤيتهم هناك رجل مديد الود عريض المنكبين في تثاقل وتراخ، نحاسي اللون في نظراته ابتسام ومرح محمل صندوقًا صغيرًا ويمر بالزبائن جميعًا من آن لآخر وهو يسأل كلًا منهم بابتسام (أمسح يا بيه؟) فمنهم من يجيبه إلى طلبه دون اكتراث ومنهم من يرده ردا جميلًا، وكان يخيل إليّ أنه راض بحاله وبما يأتيه من كسب ضئيل.

ولا أدري كيف احتك بي وكيف ألفته ورحت اوثره بتنظيف حذائي دون سواه، ربما كان ذلك لأني أميل بطبعي إلى النكتة المصرية. وكان هو بارعًا فيها. وكان حديثي معه لا يتعدى حدود هذه الفكاهة البريئة. غير أنه فاجأني في أحد الأيام بسؤال غريب انكشف لي بعده كثير من أسرار حياته وعدد المهن التي يمتهنها. قال لي بعد تفكير قصير: «والنبي تقولي يا بيه سعادتك متجوز والا لا» ودهشت حقًا لهذا السؤال. ولحظ عليّ امتعاضي، وشعر أنه أساء إلي فأردف مبتسمًا بخبث: «ما فيش حاجة إن كان البيه ما بيحبش يقول لكن كنت بفكر بحاجة حلوة قوي لسعادة البيه بس. بس. لو ما كنش متجوز» ولست متزوجًا يا صاحبي كما تعلم، وأنا أعتقد أن الزواج كارثة، كارثة كبيرة تقع في حياة الإنسان بمحض إرادته. هذا رأيي. ما علينا، فإن دافعًا من الفضول وعبث الشباب و استهتاره جعلني أندفع مع

أحمد المصري، وهذا اسمه، و كان هو ذكيًا يعرف كيف يرضي زبائنه، ولا أطيل عليك فإني وثقت به وكنت، كلما عاودني شيطان العبث والمجون الآثم أعتمد عليه، وكان إن نشأ بيني وبينه لون من الألفة الوثيقة كانت تدفعه لأن يفضي إلي بأسرار حياته وهجسات نفسه، فعلمت أنه يشتغل أيضًا مع عصابة قوية من مهربي المخدرات متصلة بعصابة قوية مثلها في القاهرة وأن هذه العصابة تعتمد عليه كثيرًا، وأنه يضطر في كثير من الأحيان أن يرتكب جرائم فظيعة قد يستنكرها هو إذا خلا بنفسه ولكنه على كل حال مضطر، مضطر بحكم مهنته «لكن والله يا بيه أنا برده راجل طيب وما أحبش الحاجات الوسخة دي ولي ضمير، بيوبخني لكن ما أقدر شي، أنت فاهم يا بيه ما أقدر شي أبدًا. دول يقتلوني إذا خالفتهم»

ثم يتجهم وجهه بعد هذا الكلام وتربد أساريره ويحمل صندوقه وهو ينظر إلى الأفق البعيد ويقول بخفوت «أهي برده العيشة محمولة، على كل حال. سعيدة يا بيه، ما تنساش اني في خدمتك دائمًا» ثم ينصرف ليؤدي عمله كماسح أحذية.

ومرت الأيام ثقيلة متباطئة لا تحمل في ثناياها جديدًا. وكان أحمد المصري يواظب دائمًا على خدمتي إلى أن كان عصر أحد الأيام بينما أحمد ينظف حذائي وأنا أقرأ أخبار اليوم في إحدى الجرائد وأختلس النظر إليه فإذا هو على غير عادته. مكتئب، صامت، في عينيه شرود وفي حركاته فتور، دهشت ولم أشأ أن أسأله عما به ليقيني أنه لا بد أن يطلعني على ما يدور في نفسه، وبعد برهة قال وفي صوته رنة حزينة

«تعرف يا بيه صحيح الدنيا دي مافيهاش خير، بس الواحد يعمل إيه، يقتل نفسه وخلاص. أنا لازم أموت نفسي»

يحب امرأة من هاته النسوة الغامضات ذوات التاريخ الحافل، قال إنها جميلة وإنه عاش وإياها سنة كاملة حافلة «أنا والله كنت أحس نفسي في جنة..وما أعرفش ازاي تركتني وهربت، ضحكت عليّ يا بيه وراحت تعيش مع راجل ثاني، دي كانت بتقول إنها بتحبني وإنها بتفضل تموت تحت رجلي ولا تعرف راجل غيري، وآهي عملتها بنت الكلب، ويمكن بتقول للراجل الآخر الكلام اللي كانت بتقوله لي».

غاب أحمد المصري عن المقهى عشرين يومًا جاءني بعدها بحديث غريب. قال إن الرجل الذي تعيش عنده عشيقته قد أذلها كثيرًا وهو يشتغل اليوم عليها وأنه ذهب هو بدافع الانتقام ليقضي لبانته عندها ثم يقتلها بخنجر أخذه معه لهذه الغاية. «لكن ما تقدرش تتصور يا بيه. لما دخلت على البنت دي في غرفتها حسيت رجلي جمدت. والحب الذي كان ملان قلبي به واللي جعلني احتم قتلها، الحب ده يا بيه راح. ووقفت قدامها لا أنا بحبها ولا بكرهها. وشعرت أن البنت دي تنقصها حاجة، علشان تكون جميلة ومحبوبة، يعني يا بيه ماقدرتش أتصور إني بحبها إلا إذا كانت في بيتي... في فراشها هناك... ما أكذبش عليك لو قلت لك يا بيه إن سر حبي للبنت دي هو في بيتي أنا... و يمكن تعدني مجنون لو قلت لك أن لبيتي ده روح يستحيل أحب البنت دي بدونها، رجعت يا بيه بعد ما كنت عاوز أنتقم منها، رجعت وأنا أحس إنها بعيدة، بعيدة، عن قلبي، لكن برده لما أكون

في بيتي يرجع حبي لها ثاني... وأروح أكلم حاجاتها السرير، المرايا، كل حاجة يا بيه».

ومرت أيام كنت لا أرى فيها أحمد المصري إلا مطرقا في صمت وذهول يحمل صندوقه ثم يدور على زبائن المقهى في خمول ويأس يستجديهم استجداء.

ساءت حاله وأصبح يهمل ملابسه فتراكمت عليها الأوساخ، وهزل جسمه، وكان يطل من عينيه ما يشبه الغباء، وعبثًا حاولت بعد ذلك أن أظفر منه بحديث فقد أمسك عن الكلام إلا بضع كلمات كان يناجى بها نفسه من آن لآخر «الدنيا دي مافيهاش خير، دنيا غدارة ملعونة».

وأقبل موسم الحج وكان المزمعون على السفر يخرجون من بيوتهم في حفل حافل من أعلام كبيرة مبرقشة وطبول وموسيقى وزغاريد وقد ارتدوا ملابس بيضاء وأحاط بهم ذووهم من زوجات وأولاد وأحفاد. تخترق هذه المواكب أسواق البلد والطبول تدوي والموسيقى البلدي تضج والنسوة يزغردن في نشوة وهذيان والأعلام الكبيرة تخفق فوق رؤوس الجميع؛ إلى أن يبلغوا المحطة.

وكان مما استرعي انتباهنا وأثار دهشتنا أن أحمد المصري كان كلما لمح موكبًا من هذه المواكب آتيا من بعيد يعدو بقوة حتى ينضم إليه ويسير مع جمهور المودعين حتى المحطة، ثم يرجع منهوك القوى محمر العينين لشدة ما بكى، وتكرر منه هذا العمل مرارًا كثيرة؛

ولشد ما كانت دهشتي حين جاءني ذات يوم وقد زال عنه بعض خموله وغبائه وأسر إلي بخفوت وهمس «خلاص يا بيه أنا عاوز أحج. ربنا هداني وعيشة البهايم اللي أنا عايشها لغاية دي الوقت عاوز أتخلص منها، مين يعلم، يمكن ربنا يغفر لي... معايا فلوس تكفيني أحج وأرجع ثاني».

تطورت حياته بعد الحج تطورًا كبيرًا. فقد أرخى لحية كثيفة سوداء ووضع على رأسه عمامة بيضاء وارتدى أيضًا الملابس البيضاء فوقها جبة خضراء وحمل سبحة طويلة، وانضم إلى المشايخ وأصحاب الطرق والزوايا وأصبحنا نراه في حفلات الموالد والذكر يدق الصاجات بحماس وقوة إيمان! كان هذا التطور في حياة الحاج أحمد المصري مثار دهشتنا. وكنا نشك في كل هذه المظاهر التي اتخذها لنفسه وإن كنا نرجو أن يكون صادق السريرة.

مضى على ذلك نحو ستة أشهر نسيت خلالها أحمد أو على الأصح الحاج أحمد المصري. وكانت أخباره لا تقع إليّ إلا عرضًا فإذا هو ما يزال شيخًا معمما مواظبًا على العيش مع الدراويش والمشايخ أصحاب الطرق.

ولكن يا صاحبي عاد الحاج إلى صندوقه القديم فجأة ورجع إلى المقهى المألوف بشكل يثير الضحك فقد احتفظ بالعمامة على رأسه ولم يمسس لحيته السوداء بسوء وما دون ذلك فقد تغير، وجعل يدور كعادته على الزبائن وقد نشط للشغل وعاد إليه مرحه. وحدثني عن سر هذا

الانقلاب «والله يا بيه دانا كنت تبت تمام وكنت عايش عيشة شريفة والناس يحترموني لكن ما أعرفش جرى إيه لما ربنا حط البت الي كنت أحبها من زمان في وجهي تاني ودي يا بيه بقيت حالتها تقرف بعد ما طردها الراجل الآخر مش ملاقية حتة عيش تأكلها ووقعت على رجلي تبوسهم وتقول أنا تبت خلاص يا أحمد لازم تخدني ثاني عندك وحابقى خدامة في بيتك طول عمري ما تقطعش في ربنا ما يقطع فيك - الكلام ده يا بيه فتت قلبي، وأخذتها لبيتي، أيوه لبيتي وهناك رجع حبي لها زي ما كان من أول، وقلعت يا بيه الهدوم الطاهرة ورجعت أهو زي ما كنت. ما فيش فايدة.. أنا بحب البنات دي قوي واللي عاوزه بنا يعمله في يعمله».

ورجع الحاج أحمد يزاول المهن القديمة وكأن توبته وذهابه إلى الحاج، كأن كل ذلك كان حلمًا ضائعًا في حياته.

مر على ذلك عام كامل لم يطرأ خلاله على حياة صاحبنا ما يوجب الالتفات، لكني كنت ألحظ في أواخر العام أنه رجع إلى ذهوله القديم ثم تحول الذهول إلى نوبات عصبية شديدة فكان يثور في المقهى ويرفع عقيرته بالصياح دون موجب، أجل كان يتردد في فترات متباعدة بين الهدوء والثورة والهذيان. وكان لما أقبل موسم الحاج الثاني كلما سمع من بعيد ضجيج الصاجات يرتعش ارتعاشًا خفيفًا وهو ينظف حذائي - ثم تتقلص ملامح وجه ويسرع في عمله وهو يتمتم ببعض كلمات مبهمة. مرت الأيام وقد زاد اهتمامي بمراقبة أحمد المصري وملاحظة ما يطرأ عليه من تطورات... ولم أعرف سر انقلابه الفجائي إلا حين

جلس ينظف حذائي في ذات يوم، وكان في المقهى (فونغراف) تدور عليه أسطوانة جديدة اسمها (عودة الحجاج) أذكر منها هذين البيتين:

امتى نعود لك يا أبي ونمتع الأنظار

والسعد يرجع يا نبي والطبل والمزمار

وكان صوت المغني حنونًا فيه خشوع وتشوف، وقد أصغى إليه أحمد المصري وفتح عيينه بصورة غريبة وقوي تنفسه وتوقف عن التنظيف مأخوذًا مبهوتًا. ولما أخذ الصوت يردد بخفوت وتشوف «والسعد يرجع يابني» تشنجت يدا أحمد المصري واربدت أسارير وجهه واختلجت شفتاه وأخذ جسمه يرتعش ارتعاشًا قويًا متداركًا، ثم انبجس الدمع من عينيه غزيرًا...بقي على حاله هذه التي تشبه الصرع ما يقرب من العشر الدقائق، أفاق بعدها وقد عاوده هدؤه نوعًا، وقال بعبارة مقتضبة أن عشيقته قد تركته هذه المرة أيضًا وذهبت لرجل آخر وأنه أصبح يكره الدنيا وكم حدثته نفسه أن ينتحر «ولكن يا بيه كل ما هميت بقتل نفسي أو بقتل الخاينة كنت أسمع صوت بعيد في قلبي يقولي: لا، وأتصور ساعتها نفسي وأنا في الكعبة المشرفة مع الناس أبكي واستغفر ربي. وأهو موسم الحج جه وأنا عاوز أرجع ثاني للحج وماعمريش أترك البلاد دكه ابدًا لو يقتلوني. خلاص يا بيه. فلوسي خلصت. لكن ربنا ما ينسانيش. أشحد من هنا وأشتغل هناك. ويبقى معايا الوقت الفرج اللي يكفيني أما أوصل» ومددت يدي إلى جيبي وأعطيته الجنيه الوحيد الذي كان فيه.

ومـضى عـلى هـذا الحـادث مـا يقـرب مـن الثلاثـة الاشـهر علمـت بعدهـا أن أحمـد المـصري بقـي في مكـة وهـو يسـتجدي آنـا ويخـدم آنـا آخـر. وقـد أصر أن يبقـى هنـاك حتـى يمـوت.

# رغيفُ خُبز

## ١

انبثـق الفجـر بعـد أن ظـل شـاردًا في ضمـير الليـل، سـادرًا في هـذا التيـه الضريـر مـن الظـلام يلـف الوجـود كلـه ويلقـي الإنسـان والطبيعـة: أدواحهـا، غدرانهـا، طيرهـا، حتـى النبـت الضعيـف، والعشـب النامـي والحـشرات المختلفـة النشـيطة، في سـبات عميـق، يجـدد القـوى ويـرد النشـاط ويبعـث الحيـاة، وكان النـور ينبجـس في عـرض السـماء في ومضـات متتابعـة تجلـو صفحتهـا وتشـيع في حواشـيها الابتسـام والإشراق، والديكـة يـتردد صياحهـا مـن بعيـد وهـي تسـتقبل الفجـر الوليـد في نشـوة وطـرب تعـبر عنهـما بهاتـه الصيحـات الطويلـة المتتاليـة، وصـوت المـؤذن ينبعـث في الفضـاء قويًـا حنونًـا، فيـه رهبـة وجـلال يدعـوان إلى الخشـوع والتأمـل والتسـبيح، وسـاروا جميعًـا في وجـوم وصمـت. لا يتحدثـون بـشيء وإن كانـت صدورهـم تنطـوي عـلى كلام كثـير وتزخـر بشـتى الخلجـات.

لخطوهـم الوئيـد عـلى أرض الشـارع وقـع كئيـب يهمـس في هـذا السـكون الشـامل بنغـم يائـس وإيقـاع رتيـب مستسـلم: «هـذا ثقيـل عـلى النفـس، ثقيـل... ثقيـل»

وغمـر صـوت المـؤذن الأرجـاء كلهـا، وسـبح في الفضـاء الوسـيع الشاسـع قويًـا متدفقًـا ثـم خافتـا حلـوًا ثـم أضحـى همسًـا، فانجـاب عـن الصـدور مـا كان عليهـا مـن أسى. وانحـدر هـذا الصـوت رفيقًـا ناعـمًا في ثنايـا القلـوب فأفعمهـا إيمانًـا وثقـة وذاب فيهـا نـورًا وهـدى، فاختلجـت الشـفاه تسـبيحا للـه وتطلـب الرحمـة والغفـران. وترجـو العـون والصـبر عـلى كل مكـروه.

أوسع الوالد خطاه يحمل بيده اليمنى حقيبة كبيرة. ويد ابنه الصغير بيده اليسرى يسير متعثر الخطى. والتفت إلى زوجه يستحثها: «عجلي يا شريفة الوقت ضيق. ولا بد أن العربة تنتظرنا من زمان. عجلي» وكان في صوته ألم وفي لهجته مرارة ولوعة، إذ رآها تخطو مجهدة مكدودة تحمل طفلتها بين ذراعيها. ملتفعة بملاءتها الحريرية السوداء، وهي آخر ما بقي لها من أيام اليسر.

أسرعوا جميعًا. الأم تفكر في المستقبل، فإذا هو مظلم. مظلم، لا تبدو في ثناياه أية بارقة تبعث على الأمل والرجاء، والأب يحمل هما جاثمًا على صدره كالطود، وولدها الصغير - لما يتخط العام الرابع لا يفهم شيئًا كثيرًا مما يقع حوله. ولكنه يلوذ بأبيه يستشعر الثقة والطمأنينة والقوة في كنفه.

وخفق مصباحان من بعيد، فقال الرجل: «هذه هي العربة تنتظر» ولم يزد ولكن قلبه اختلج يائسًا بين جنبيه. ثم أصبحوا على بعد خطوات من العربة وكان الحوذي - وهو ألماني الجنس واقفًا ثمة يرسل من غليون في فمه العريض سحبًا من الدخان يبددها نسيم الفجر الندي. وقد دس يديه الغليظتين في جيبي سترته الخشنة. واندفعت كرشه إلى الأمام كأنما تريد أن تفلت وتنطلق متدحرجة على الأرض ككرة كبيرة لولا أن قوة خفية تمسكها وتكبح جماحها، وجرى في خاطر الصغير أن يركل بقدمه هذه «الكرش» وتملكه في هذه اللحظة عبث الطفولة فود لو أن يتسلق هذا الجبل من اللحم ويعبث بشاربي الحوذي الكثيفين الطويلين. أو أن يغرس أصابعه الصغيرة في صفحة

وجهها المنتفخة فتغوص فيها، وشاعت في أسارير وجهه، لهذا الخاطر الغريب، ابتسامة بريئة ساذجة. أخذ الحوذي أجرته سلفًا. ووضعها في احتراس زائد في جيبه. ثم راح يهيئ الخيل للسفر وكانت قد ملت الانتظار وهي مشدودة إلى العربة الكبيرة تضرب الأرض بقوائمها وتصهل في فترات متقاربة.

صعدت شريفة إلى العربة، فاختار لها زوجها مقعدًا مريحًا نوعا ما في الصدر. وأجلست ابنها الصغير إلى جانبها ثم احتضنت طفلتها، وكان الحوذي في هذه الأثناء قد كظ العربة بأشياء كثيرة: أوعية اللبن الكبيرة، صفائح الزبدة، أكياس البطاطس، ومختلف الحقائب. ثم استوى على مقعده بهيبة وجلال يثيران الضحك، وأطلق من صدره المكتنز الوسيع آهة طويلة منغومة. وأمسك عنان الخيل في يد وتناول السوط الطويل باليد الثانية ولوح به في الفضاء، وكان الرجل في هذه البرهة يودع امرأته وولديه فأيقظته حركة الحوذي، فضم امرأته إلى صدره وتلاقت شفاههما في قبلة يائسة. ثم التفت إلى ابنه الصغير وأخذ صفحة وجهه الوضيء بين راحتيه ونظر إليه بعينين حزينتين تغالبان الدمع وتريدان أن تبوحا بأشياء كثيرة مرهقة، ولكنهما تأبيان أن تخذلا هذا الرجل القوي في هذه اللحظة القاسية المريرة. كان يريد أن تبقى صورته في ذاكرة ابنه في لحظة الوداع هذه، كما كانت دائمًا عزيزة قوية، واثقة، معتدة بنفسها لا يريد أن يتطرق إلى قلب هذا الصغير أي وهن ولا يدلف إلى نفسه المتفتحة الغضة أي شك أو خور ثم حنا عليه وقبله قبلة فيها ألم ولوعة، ثم حسر عن وجه طفلته واختلجت شفتاه أسى

وهـو يقبلهـا، والتفـت إلى زوجـه يخاطبهـا بصـوت خفيـض معـذب «اوعـي لصحتـك يـا شريفـة، وهبـة ونعمـة وعليهـم كـمان. هـم أعـز مـن أرواحنـا. شـهرين أو ثلاثـة أكـون عندكـم. ويمكـن ربنـا يكـون فرجهـا، مـين يعلـم. عـلى بركـة اللـه».

قالـت وقـد طفـر الدمـع مـن مآقيهـا: «مايكونلكـش فكـر أبـدًا، بـس أنـت كـمان مـا تفرطـش بصحتـك وأمـي المسـكينة اوعالهـا كـمان يـا إبراهيـم ماليـش حـد غيرهـا في الدنيـا بعـدك».

انطلقـت العربـة تعـدو بقـوة. وقـد خلفـت وراءهـا رجـلًا محطـمًا شـارد الذهـن غائبًـا عـن دنيـاه، ظـل واقفًـا يتبـع العربـة -تجرهـا جيـاد أربعـة - بنظـره وحواسـه وقلبـه وهـو يلـوح لهـا بمنديلـه الأبيـض بحركـة طائشـة كمخبـول، وهـم أن يعـدو وراء العربـة وأن يصيـح بمـلء فيـه، ولكـن قـوة خفيـة سـمرته في مكانـه، وإرادة مسـيطرة غلابـة أقـوى مـن إرادتـه، كبحـت جماحـه وهـدأت ثورتـه. ولاح لـه في أفـق نفسـه «رغيـف خبـز».

غابـت العربـة عـن الأنظـار. وظـل وقـع سـنابك الخيـل عـلى الأرض ينبـض مؤلمًـا في أذنيـه ثـم قفـل راجعًـا مهـدود القـوى زائـغ البـصر. وقـد خيـم في نفسـه ظـلام، وشـاع يـأس. وسرت في روحـه رعـدة المقـرور.

## ٢

انبلج الصبح. شمسه ضاحكة ونسماته فاترة وطيره تسبح في السماء مرحة نشيطة وكانت العربة قد قطعت مسافة بعيدة، وأشرفت على بساتين البرتقال. بعثت هذه الحياة الدافقة في الكون كله، شيئًا من الهدوء في نفس الأم. وبددت سحبًا من الكآبة كانت تتكاثف في صدر الصغير، وكأن هذا الهدوء قد وصل ما انقطع من تفكير شريفة. فعادت تتأمل هاته المنغصات التي أفسدت حياتهم منذ مدة قريبة. وتحاول ما استطاعت أن ترتبها في تساوق منطقي، إذ إنها جميعًا تهاجمها الآن حشدًا مشوشًا وتغمر ذهنها بعنف وتدفق.

لقد وقع كل ذلك بسرعة مدهشة كأنه حلم مزعج، من كان يظن ذلك؟ كل شيء كان رائقًا مشرقًا مناسبًا في هدوء ودعة، كهاته السماء المصحية النقية المشرقة، وفجأة هبت ريح العاصفة قوية مجتاحة. واربد الأفق وزأرت الأعاصير، ولف الكون ظلام، أجل على هذه الصورة تمامًا يبدو لها كل ما حدث.

كل ما تذكره الآن هو أن نار الحرب اندلعت على حين غرة. كهاته الصواعق تقذفها السماء والناس في غفلة وأمن. وكل ما تذكره هو أن هذه الحرب أفسدت كل شيء في بلدهم الهادئ الوادع. لم يكن ليجري لها ببال أن الحرب تحمل في تضاعيفها كل هذا الشر. أجل! فقد رأت بأم عينها كيف كان الجند يدأبون على اقتحام الدور، فيروعون ساكنيها

بوحشية، يدورون في البيوت غرفة، غرفة، وحجرة حجرة، حتى إذا عثروا بشاب أخذوه وضموه إلى «القطيع» ثم ساقوهم جميعًا، إلى أين؟ إلى الحرب، أما السلطة فلم تكن لتحفل شيئًا، عويل الأمهات. صراخ الزوجات، بكاء الأطفال. ماذا؟ كل هذا يلقاه رجال «السلطة الأتراك» بالسخرية والهزء حينًا وبالسوط والتشريد أحيانًا كثيرة، ياللسماء! إن كل هذه الصور البشعة القاسية، تلوح الآن واضحة في خيالها، حتى صرخات اليأس الأليمة المنبعثة من القلوب المروعة تدوي في أذنيها كأنها تسمعها لأول مرة.

أجل. كل ما تذكره هو أن الحياة السهلة اللينة الرضية انقلبت جحيمًا من الضنك والعوز، والعيش اليسير المؤاني، غدا عسرًا كله، وزوجها الرجل القوي، الجلد، الذي «ينتزع القرش من بين فكي سبع» هو أيضًا كالآخرين أجل. كالآخرين. أي إخفاق هذا، رغيف الخبز، كم هو ثمين وكم هو غال، إن زوجها ليبذل في سبيل الحصول عليه - ليعولهم - شبابه ويجود بنفسه.

كل ما تذكره هو أن زوجها أنفق في مدى سنة واحدة بعد نشوب الحرب كل ما ادخره من مال قليل، ولم يعد عملك أي شيء حيال «الجوع» الذي يهددهم. كان الجميع يظنون أن الحرب لا بد أن تنتهي في شهور. وها هي تستمر، ونارها تمتد، وتمتد، ولا شك ستأكل في سبيلها كل شيء، ولن تبقي على شيء. هناك أمل وحيد في كل هذا اليأس الحالك، فإن المصلحة التي يعمل فيها زوجها مدينة له بمرتب خمسة أشهر عجزت عن دفعها له. ومركزها الرئيسي «القدس» وقد

وعـدوه بالمسـاعدة إذ هـو أرسـل امرأتـه وأولاده يقيمـون هنـاك، أمـا هـو فيجـب أن يبقـى في يافـا يـؤدي عملـه. ريثـما تـرى «المصلحـة» أن نقلـه يفيدهـا في القـدس؛ عندئـذ تسـتقدمه، وشيء آخـر يعزيهـا في هـذا الظـلام هـو أن السـلطة لم تسـتطع أن تأخـذ زوجهـا للحـرب لأنـه أجنبـي. وابتسـمت بالرغـم منهـا، وقـد ذكـرت تلـك الضجـة التـي أثارهـا أهلهـا حـين رضيـت بـه زوجًـا وفضلتـه عـلى شـباب العائلـة جميعًـا، لقـد ثـاروا بهـا، وأفهموهـا أنـه أجنبـي غريـب لا يسـتحقها. إنهـا تذكـر تمامًـا كيـف قاومتهـم. وانتـصرت عليهـم. لقـد مضـت أيـام سـعيدة، هنيئـة كلهـا حـب وابتسـام، أيـام كثـيرة، وكان ثمـرة هـذا الـزواج الموفـق السـعيد هـذان الطفـلان بـل هـذان المـلاكان. وهـذه أيـام الضنـك والعـوز تـكاد تطغـى عـلى أيـام السـعادة والصفـاء وتـكاد تطويهـا في تضاعيفهـا السـوداء، واختلطـت الصـور في خيالهـا؛ مشرقـة باسـمة، وعابسـة قاتمـة، يتخلـل ذلـك كلـه. قصـف المدافـع المرعـب، والقنابـل المدمـرة تقذفهـا البـوارج الحربيـة عـلى معامـل الحديـد الألمابيـة في يافـا تـرج القلـوب وتخلـع الأفئـدة.

وأحسـت أن شـيئًا مبهـمًا يجـوس في صدرهـا يـكاد يخنقهـا، وانفجـرت مآقيهـا بالدمـوع، فتركتهـا تسـح حتـى كادت تـشرق بهـا، وأعقـب ذلـك هـدوء صامـت، أخـرس، وعـاد تنفسـها طبيعيًـا متئـدًا، وخـف عـن صدرهـا جبـل كان يجثـم عليـه، وأحسـت أن يـدًا رحيمـة رفيقـة تكفكـف دموعهـا. ونفحـة مـن عـزاء عميـق فيـه إيمـان وتسـليم ورضـوخ تفعـم قلبهـا وتهدهـده بحنـان، فحنـت مدفوعـة بعامـل غريـزي عـلى طفلتهـا وقبلتهـا في جبينهـا بشـفاه راعشـة. ثـم عطفـت عـلى ابنهـا وابتسـمت لـه وأقبلـت

عليه تطوق عنقه بذراعها وتوسعه قبلات مختلجة ثم اغرورقت عيناها بالدموع وندت عن صدرها تنهيدة خافتة وقد أراحت رأس طفلها على ساعدها وراحت تتأمل الطبيعة من حولها، فبهرتها روعتها ولم يعد يلفت انتباهها شيء آخر غير بساتين البرتقال وكأنها لامتدادها على جانبي الطريق أبعاد لا نهاية لها وقد اختلطت الخضرة القاتمة بالزهر الأبيض الناصع بحر لجي، فائر، مزبد، تتخلل هذا كله الحين بعد الحين، الأراضي الزراعية المنبسطة وقد نمت سنابل القمح وصوحتها شمس مايو وأنضجتها وانتثر الفلاحون هنا وهناك يؤدون عملهم المرهق في الحصاد. هؤلاء الفلاحون الخانعون على قوتهم، الراضخون للعنت والأذى. هؤلاء الأشقياء. أي شيء هذا الذي يقعد بهم عن التمرد؟ أي شيء هذا الذي يجعلهم يقنعون بالرغيف الأسود وما هو دون الرغيف الأسود دون تذمر؟ أي شيء هذا؟ إنه الإيمان! نعم هو الإيمان بالله ومشيئته، هذا الإيمان الذي لا حد له هو الذي يعمر قلوب هؤلاء وهو الثغرة المشرقة في حياتهم المظلمة.

قطعت العربة نصف الطريق تقريبًا، وكانت الساعة الواحدة بعد الظهر ثم وقفت عند باب الوادي، وهو يقع: تمامًا في منتصف الطريق وفيه نجد العربات ما تريد من ماء ومؤونة. وترجل الحوذي الألماني وقد نال منه التعب ففك الخيل بحركة بطيئة منهوكة. ثم سقاها وبعد فترة صب عليها ماء كما ينشطها وعلق لها وتركها حرة، ثم جلس يحشو معدته وفي هذه الأثناء كانت شريفة قد تناولت هي وصغيرها طعامًا خفيفًا، وبعد مضي ساعة شد الحوذي الخيل ثانية،

وانطلقت العربة بين جبال القدس الجرداء، في طريق تصعد حينًا ثم تنحدر ثم تلتوي صاعدة ثم تنحدر بدون التواء. وجبال القدس هذه تبعث في النفس لونًا من الكآبة، يثقل على الصدر، سامقة، مهولة، تنعب البوم والغربان على قممها وتأوي الوحوش إلى كهوفها ومغاورها. والمسافر تظل نفسه حبيسة هذا الانقباض إلى أن يتخطاها ثم ينحدر في طريق ملتوية إلى القدس.

وتنفست شريفة الصعداء حين بدت من بعيد قباب المساجد والكنائس ورؤوس المآذن الذاهبة في السماء وقد مالت الشمس إلى المغيب تاركة وراءها حمرة قانية في حواشي السماء تخالطها زرقة قاتمة تلقي على القباب والمآذن جميعا ضوءًا باهتًا يضيف إلى جلال هذه المدينة القديمة المقدسة معنى آخر من الرهبة والخلود.

## ٣

هي غرفة مظلمة جوها ثقيل كأن هناك قوة غير منظورة تضغطه، حارة من حواري البلد القديمة، الحواري الضيقة القذرة المعتمة تنضح جدرانها المغبرة رطوبة مهلكة، أمضت شريفة ثمة شهورًا ثلاثة مرهقة كم أراقت أثناءها كرامتها على أعتاب المصلحة لتمنحها بضعة قروش حقيرة تستعين بها على العيش، العيش المهين، كانت تستجدى هذه القروش استجداء، كأن زوجها لا يفنى في سبيل الحصول عليها كل شبابه، هذه القروش لا تكاد بشق الأنفس تكفي لتدرأ عنهم الجوع فكيف بها تنفع في معالجة الطفلة الصغيرة، إنها مريضة تتألم، شبح الموت

يحوم ملحًا يريد فريسته! كانت شريفة تنتظر ذاهلة، شاع الخبل في عينيها وحركاتها، تنتظر مجيء زوجها فقد استدعته لمصلحته أخيرًا. كل نأمة، كل همسة، تبعث في نفسها الفزع وتلقي في روعها الرعب، إنها ضعيفة، ضعيفة حيال هذا الشر الكثير، لم تعد تحتمل، جالدت العوز، وصعدت للإرهاق، ووقفت في وجه العاصفة، ولكنها صرعتها أخيرًا.

«ما عدتش أقدر يا إبرهيم، صبرت كثير، مسحت وجهي على أعتاب المصلحة، والبنت عيانه، عيانة تقيل، ويادوب نلاقي رغيف الخبز، أنا أحمد ربنا اللي جابك»

ماتت الطفلة بعد صراع طويل مع الموت، ماتت فجأة وهي في حضن أمها ومرت الأيام سوداء، كانت شريفة تحمل ملابس زوجها الثمينة، وتذهب هي وأمها المسنة الضعيفة وتظل في السوق النهار كله تبيع ما معها بثمن بخس، ثم أثاث البيت، ثم أوعية الطبخ، ثم، لم يبق شيء، يعيشون على ما تتيحه الظروف لإبراهيم، يؤدي بعض الخدمات الشاقة الخطرة ليحصل على بضعة قروش يعول بها عائلته، يحمل الأثقال، يلم «أعقاب السجاير»، بل ذهب في مهمة كان يرجو من ورائها شيئًا من الخير، كان عليه أن يقطع المسافة بين القدس والخليل سيرًا على الأقدام ليؤدي ما كلف به، كانت حياته في خطر، أيام ثلاثة بلياليها قضاها مرعوبا في الذهاب والإياب، بين دوي الرصاص وفرقعة القنابل. وقد أصيب في ذراعه بشظية كادت تودي بحياته، تغلب على الموت وظل في الميدان يكافح.

في يـوم، مـن أيامـه الموفقـة، اسـتطاع أن يعمـل جاهـدًا وكان نصيبـه رغيـف خبـز يسـتلمه بعـد الغـروب، هـو قـوت العائلـة تلـك الليلـة أرسـل ابنـه ليـأتي بـه، كان الليـل قـد هجـم يلـف الدنيـا بسـواده، والريـح تـئن وتنـاوح تـارة ثـم تزفـر وتعصـف تـارة أخـرى، والسـماء تسـاقط ثلجهـا في فـترات متقطعـة، يمـلأ الشـوارع ويتكـدس في الأركان وجوانـب الجـدران تـلألأ صغـيرة بيضـاء فتدثـر الصبـي بثيـاب خلقـة بعضهـا فـوق بعـض تمنـع عنـه عاديـة الـبرد، وذهـب يعـدو مخترقًـا الأزقـة والحـواري المظلمـة كالمأخـوذ وقـد تمثلـت لـه الدنيـا كلهـا رغيفًـا مـن الخبـز.

في عودتـه كان يشـعر كأنـه يحمـل كنـزًا، وقـد أقفـرت الشـوارع وخلـت الأزقـة إلا مـن بعـض العائديـن إلى بيوتهـم، والصبـي يجـد في السـير وقـد استشـعر الخـوف لـدى هـذه الوحشـة الرهيبـة، وخيـل إليـه أنـه سـيفقد رغيـف الخبـز، يسـقط منـه أو ينتزعـه أحـد الماريـن، وفجـأة أعـترض طريقـه جنـدي، ثيابـه الرسـمية خلقـت ممزقـة، باهتـة اللـون لكـثرة مـا تراكـم عليهـا مـن الغبـار والأوسـاخ، هزيـل الجسـم بـارز عظـام الوجـه بصـورة بشـعة مفزعـة، وهـو يرتجـف مـن الـبرد وخيـل للصبـي أن هـذا الجنـدي قريـب عهـد بمدينـة الأمـوات، وهـم أن يصيـح ولكـن صوتـه اختنـق في حلقـه، وأراد أن يعـدو هاربًـا ولكـن سـاقيه لم تطاوعـاه، تقـدم الجنـدي إليـه وقـد مـد يـده إلى الأمـام يسـتجد بـه «جوعـان، جوعـان..» دوت هـذه الكلمـة في سـمع الصبـي، وانحـدر صداهـا عميقًـا قصيًـا في صـدره، وشـاع في نفسـه إحسـاس عميـق، رحيـم، خـير، وتقـدم إلى الجنـدي وأعطـاه الرغيـف وهـو لا يـدري مـا يفعـل، في ذهـول، في غيبوبـة، أخـذ الجنـدي الرغيـف

بلهفـة، ثـم غـاب في الظـلام، أمـا الصبـي فتابـع سـيره إلى البيـت متئـد الخطـى، والظـلام المحيـط، ورذاذ المطـر... وأنـين الريـاح كلهـا تهمـس في أذنيـه «جوعـان... جوعـا.. ن جـو، عـا..ن..»

أمـا أبـوه وأمـه فلـم يخنقـا ولم يثـورا، بـل انكفـآ إلى فراشـهما في صمـت و يـأس ونـام هـو نومًـا متقطعًـا كان يـرى خلالـه الجنـدي خارجًـا مـن قـبره يسـتجديه الرغيـف وشـفتاه تهمسـان «جـو... عـا... ن»

**٤**

انتهـت الحـرب وانتهـى معهـا العـسر وانقـضى عهـد الشـقاء ونـسي النـاس أو تناسـوا آلامهـم ومصائبهـم، وأقبلـوا عـلى الحيـاة مـن جديـد يسـعون ويكـدون، يوفقـون ويخفقـون، ينالـون ويحرمـون. واسـتطاع إبراهيـم أن يجـد في ظـل الحيـاة السـعيدة كنفًـا أوى إليـه هـو وزوجـه وابنـه. وقـد كـبر هـذا الابـن وشـب عـن الطـوق وأصبح رجـلًا يـضرب في مناكـب الأرض. ويسـعى فيهـا سـعي أهلهـا وينـال منهـا مـا ينالهـم. وكان مولعًـا بكتابـة «يوميـات» لـه يضمنهـا خواطـره وتأملاتـه في نفسـه وفي غـيره. ومـا يقـع لـه في يومـه. ومـا يجيـش بـه صـدره، ومـا يلـوح في أفـق ضمـيره مـن ومضـات ويطـوف في روحـه مـن هجسـات. وهـذا بعضهـا:

لشـد مـا أدهـش مـن نفـسي! إني ألحـظ أن بي ميـولًا غريبـة. مخيفـة. وأن هـذه الميـول لتسـتبد بي وتسـلبني كل إرادة للمقـاوم. إني ضعيـف حيـال هـذه الميـول. لسـت أسـتبين الآن حقيقتهـا. هـي غامضـة حتـى لتبـدو لي كأنهـا ضائعـة في سـحب كثيفـة حائـرة. هائمـة. إنهـا تجـوس في صـدري وتملأ

روحـي.

يخيـل لي أن هـذه الميـول قديمـة. خلقـت قبـلي. وعاشـت في صـدر إنسـان آخـر. لشـد مـا أنـا عاجـز عـن صـد تيارهـا.

يخيـل لي أني غريـب عـن كل مـا يحيـط بي، كل هـؤلاء النـاس الذيـن أعـرف، والذيـن اتصلـت بهـم بأسـباب مختلفـة متباينـة، أشـعر وأنـا بينهـم بقلـق ونفـور، وبرغبـة ملحـة في الانطـلاق مـن بينهـم، أجـل فـما أكاد أفـترق عنهـم وأدخـل غرفتـي، حتـى أنسـاهم. لشـد مـا هـم بعيـدون عـن نفـسي. هـم يعيشـون في دنيـا محـدودة الآمـال والمطامـع. وإني لأتخيلهـم راسـفين في أغـلال وقيـود صلبـة يقدسـونها ويعبدونهـا. بـلى. إني اتخيلهـم هكـذا سـائرين جميعًـا في تيـه لا نهايـة لـه، يسـوقهم قـزم مشـوه مـا يفتـأ يلسـع أجسـامهم بسـوطه، ثـم يختفـي في أحشـاء الظـلام مقهقهًـا، أيـة سـخرية هـذه!

رغبـة مجنونـة جائحـة تطـوح بي، أصنـام عديـدة، أصنـام معبـودة، هـذا كل مـا أرى في وجهـي أني ذهبـت، أي شيء هـذه الأصنـام الفارغـة، إنهـا أصنـام مـن طـين حقـير، أولى بهـا أن تحطـم وتلقـي شـظايا تحـت الأقـدام تدوسـها بشـماتة وانتقـام. أجـل. هـذا مـا أريـد، أن أحمـل معـولًا رهيبًـا أحطـم بـه هـذه الأصنـام.

يـزداد إلحـاح هـذه الرغبـة المجنونـة، أنـه يعصـف بي، إنـه يطـوح بي في مهـاوٍ مخيفـة مظلمـة، حتـى لا أعـود أحفـل شـيئًا فامـضي في الهـزء

والسخرية بكل هذه المخلفات القذرة التي ابقتها لنا الأجيال، أية راحة، أية غبطة هاته التي تسري في جسمي كله حين أدوس بعض هذه القاذورات!

هي امرأة ككل امرأة. علاقتي بها كانت حقيقة أن تنقطع منذ طويل إذ أن قلبي لم يخفق بحبها قط. وما أظنها تحبني هي الأخرى. إنما هي تلك الرغبة المستبدة التي طوحت بنا بادئ الأمر في هذا الدرك هي نفسها هذه الرغبة ما تزال منهومة ظمأي تريد الارتواء، هي «الانتقام».

أجل، الانتقام، إني أشعر أن كل حركة، كل ارتعاشة، كل قبلة تبادلني إياها وهي بين ذراعي، إن هي إلا سهام مسمومة مصوبة إلى قلب رجل أجهله، يسهم حياتها ويسلبها شبابها، كنا معًا الليلة، في السرير الدافئ الحالم، الحافل بالذكريات، وكانت هي ثائرة، في عينيها العميقتين ومضات سريعة متتابعة مخيفة، وشفتاها تختلجان كأنهما تهمسان بكلمات غامضة. وذراعاها تصهرانني بقوة مجنونة، وجسمها كله يرتعش محمومًا. إن المسكينة لا تدري أنني أيضًا أنتقم لنفسي من كل هذه الحماقات، من كل هذا الغباء، من كل هذه القيود، من كل هذه الأصنام.

ماذا، أنا الذي لا أحفل مما يقدسه غيري ويعبده، شيئًا، أنا الذي أسخر من كل نظام، وأدوس كل خلق - مما هو خلق في عرف الناس فحسب – أنا، إن ميولًا ونزعات أخرى خفية تعيش في نفسي، كنت أجهلها،

طيبة رحمة، حنان، من يصدق؟! كنت سائرًا في طريقي، وكانت الليلة مظلمة غائرة النجم، والرياح تضج، والبرد ينفذ في الجسم كالإبر، وقد أعترض سبيلي صبي، بائس، تستر جسمه الناحل، المريض، فضلة من ثياب خلقة يرتجف مقرورًا، قال بصوت مخنوق «جوعان» خيل إليّ أني سمعت هذا الصوت من قبل، ولكن أين؟ متى؟ لا أذكر، أن بيني وبين هذه الكلمة «جوعان» صلة وثيقة، بل خيل لي أني «كنت في يوم من الأيام هذا الصبي البائس».

ماذا، لقد أثارت هذه الكلمة في نفسي كوامن بعيدة متأصلة، ورواسب انبعثت من مرقدها تغمر ذهني، أشرت إلى الصبي أن يتبعني، فسار بجانبي كحيوان أليف، وقد أطعمته بل جلسنا نأكل على مائدة واحدة. ثم أعطيته من ثيابي ما يستر به جسمه الهزيل العاري، ووضعت في جيبه نقودًا.

كان هذا الحادث كالزيت تصبه على النار، فيندلع لهبها، يأكل كل شيء، أجل. فقد اندفعت في سبيلي متمردًا، مجنونًا، وإني اليوم لأشد اغتباطًا مني في أي يوم آخر، فقد وجدت مجنونا مثلي، وثانيًا وثالثًا. ونحن نتفاهم بسهولة، وميولنا تلتقي وأغراضنا تتحد وأمزجتنا تتواءم، لا شك في أن هناك موحيات خفية قديمة راسبة في الأعماق تسيطر على حياتنا وتوجهها.

فما أسعدني!

# سحابةٌ ... ومرَّت

لا بد لهذه الحالة السيئة من نهاية على أي شكل، هذا التسكع الأبدي في الشوارع تحت المطر المنهمر وفي هذا البرد اللاذع، شيء لا يطاق على وجه التحقيق. وأستند بظهره إلى عمود الكهرباء المحاذي للرصيف وأخذ يتأمل السماء المكفهرة لم تمسك عن الأمطار المتصل خمسة أيام كاملة، ثم حول بصره إلى عرض الشارع فأخذه منظر الأسفلت وقد صقلته المياه المتدفقة، وأكسبته أنوار الكهرباء على جانبي الطريق لمعة اطمأن إليها ذهنه المكدود، وفجأة قطع عليه تفكيره وقع حوافر الخيل على الأرض فشعر بما يشبه الخنق المكتوم وهم أن يأخذ نفسًا طويلًا من لفافته الرخيصة انتقامًا لنفسه ولكنه لمح داخل العربة المسرعة رجلًا سمينًا عليه معطف ثخين وفي فمه لفافة ضخمة من نوع السيجار، وهو في جلسته المطمئنة يوحي بلون من الترف الوقح. ولوح السائق بالسوط في الهواء وأطلقه على الخيل بقسوة ووحشية فذعر عبد الواحد وانتفض وشيع العربة والسيد الذي فيها بهذه العبارة: «كلب.. خنزير.. كلكم كلاب».

وتنحنح بغضب وبصق على الأرض ومسح فمه بكمه وأردف: «الواحد منا مش لاقي يأكل.. وأولاد الكلب بيركبوا عربيات و بتبرحوا.. اخص تفوه» وأخذ من لفافته آخر نفس ملأ به رئتيه ثم أرسل الدخان من فتحتي أنفه ونظر إلى عقب اللفافة بين إصبعيه بأسف وحسرة، ثم ألقاه إلى الأرض ودس يديه في جيبي سترته وتابع سيره وهو يلتذ رائحة الوحل يحمله السيل على جانبي الطريق.. وثنى خطواته نحو عطفة صغيرة ووقف تجاه قهوة الحاج مصطفى المتواضعة ودار ببصره

بالمكان - من خلال زجاج النافذة - فإذا أصحابه عثمان وإسماعيل وحمدان يشربون الشاي في صمت وهدوء فنازعته نفسه أن يدخل ولكنه تردد لحظة وتحسس القرش الوحيد في جيبه وفكر قليلًا ثم تقدم وفتح الباب وخطا نحو أصدقائه وأخذ كرسيًا بجانبهم وقال وهو يهم بالجلوس: السلام عليكم. فردوا بصوت واحد منغوم وعليكم السلام ورحمة الله و بركاته، ثم سأله إسماعيل بلهفة: أنت فين ما بتبنش من زمان يا عم عبد الواحد نحن والله اشتقنالك، حرام عليك يا شيخ تحرمنا أنسك. فندت عن صدر عبد الواحد تنهيدة عميقة فيها حسرة و يأس، وأجاب كالغائب» أنا والله يا جماعة مش صاحي على نفسي هالأيام، مش لاقين لقمة نأكلها.. الولية والأولاد حالتهم مجنناني.. العيش الحاف مش محصلينه»

***

يوم فكر عبد الواحد في الزواج كان يقدر المسئولية الكبيرة التي سيواجهها ويخضع لها كرجل له بيت وأهل. ولكن إيمانه بأن الله يبارك في الحلال ويرزق الطير في وكناتها ولا يغفل عن النمل في مساربها؛ هذا الإيمان الراسخ بأن التراب يصبح تبرًا يتوهج في كف من رضي الله عنه، فأكمل شطره الاخر وأتى بذرية صالحة، أسرع به إلى الزوج المدبرة وانتهى به أخيرًا إلى هؤلاء الأطفال الثلاثة يقتطع لهم من كبده ليمولهم ويقوم بأودهم.

«كان ربنا رازقنا ومحنن علينا، وعايشين في نعمة وراحة بال، لكن

مـا أعرفـش أيـش الـلي حصـل لمـا الراجـل الملعـون ريـس الورشـة قـال لي مالكـش شـغل عنـدي، يـا اللـه بـره»

وصمـت عبـد الواحـد. لا بـد وأن تكـون وشـاية سـافلة همـس بهـا زميـل حقـير في أذن هـذا الرجـل الظـالم «ريـس الورشـة» وإلا فأيـن جريمـة عبـد الواحـد التـي اسـتحق بسـببها الطـرد والتشريـد في هـذه الأيـام السـود؟

كان عبـد الواحـد يقـوم بعملـه خـير قيـام بكـسر الحجـارة الصلـدة ويصقلهـا ويحملهـا عـلى ظهـره إلى حيـث ترتفـع جدرانًـا ضخمـة ويمـزج الرمـل بالطـين ويهيـئ منـه خليطًـا صالحًـا للبنـاء وهـو في هـذا كلـه لم يحجـم قـط عـن مديـد المعونـة إلى إخوانـه وزملائـه في العمـل، هـل كان أعمـى «ريـس الورشـة»، ألم تكـن لـه عينـان يـرى بهـا هـذا الجهـد الـذي يقـوم بـه عبـد الواحـد بصـبر ورضـا؟ ومـاذا كان جـزاؤه آخـر الأمـر؟ الطـرد والتشريـد.

الزمـن لئيـم غدار، لـه ألف وجه والناس أوغاد بدون ضمير ولا قلب.

النـاس في عـرف عبـد الواحـد هـم هـؤلاء السـادة الأغنيـاء يملكـون سـيارات يركبونهـا ويسـكنون قصـورًا منيفـة، ولهـم حدائـق وأمـوال كثـيرة مودعـة في المصـارف ويتحكمـون بمعـاش أمثالـه العـمال الفقـراء ينزعـون مـن أفواههـم مـا يسـد الرمـق ويدفـع غائلـة الجـوع.

واتجـه ذهـن عبـد الواحـد اتجاهًـا آخـر، هنـاك لصـوص يجـدون ألـف وسـيلة ليمـدوا أيديهـم إلى حيـث يريـدون فـإذا أكفهـم يلمـع فيهـا الذهـب لا يحجمـون عـن أيـة جريمـة تحقـق أغراضهـم، يذبحـون الرجـل

كأنه دجاجة ثم ينامون ملء جفونهم الدم المراق ولا يقض مضاجعهم تخريب البيوت وإزهاق النفوس. كل شي يهون أمام هذا المعبود، هذا الإله الهائل: المال!

ومع ذلك فإن السادة يحترمون هؤلاء المجرمين وهو هو الرجل الفقير المسكين الذي يكد ويتعب ويأكل خبزه ممزوجًا بعرق جبينه يطرد ويلقى به في الشوارع هكذا لا يجد ما يتبلغ به هو وامرأته وأطفاله الثلاثة.

إن كلاب هؤلاء السادة تأكل اللحم الذي لا يذوقه هو وعياله إلا مرة في الشهر. كلابهم أنظف من اطفاله يا للهول!

ماذا؟ لم يبق عليه إلا أن يتسول، أن يمد يده يستعطي الناس، يمرغ وجهه في التراب ويريق هذه البقية الباقية من كرامة النفس كماء قذر.

أوه: كلا، كلا.. كل شيء إلا هذا وانبثقت في رأسه شرارة واختلج في نفسه إحساس حاد كسكين. سيكون لصًا، يسرق وينهب ولا يتورع عن الإجرام.

والتفت إلى أصدقائه بعد هذه الغيبوبة الطويلة!

«الواحد منا لازم يكون مجرم، مالوش شرف ولا دين ولا ضمير. علشان يعرف يعيش في الدنيا الزفت» ثم أردف بغيظ «كلابهم أحسن منا بياكلوا خبز ولحم، ونحن نتعرى ونجوع وندور في الشوارع بطالين.

ورانـا عيـال وفي رقابنـا أطفـال»

فبدت على ملامح الأصدقاء الثلاثة دهشـة وقالوا بصوت واحد «كلاب!!»

فأجـاب بغضـب كمـن يريـد أن يثـير شرًا «لمـا تجوعـوا ومـا تلاقـوش خبـز وتـدوروا مثـلي في الشـوارع تحـت المطـر والـبرد سـاعتها بتعرفـوا الـكلاب الـلي بتكلـم عنهـا».

ثـم نهـض وألقـى عـلى أصدقائـه نظـرة احتقـار وتركهـم في حـيرة وعـاد يجـوب الشـوارع ويخـوض في الوحـل وفي صـدره جـرح كبـير. الجريمـة في رأسـه لا يـبرح شـبحها ذهنـه، سيشـتري خنجـرًا ذا حديـن يغمـده في صـدر «ريـس الـورش» يخمـد بـه أنفاسـه النجسـة وبعدهـا لا يهمـه أن يقتلـوه، أن يشـنقوه، أن يضعـوا الحديـد والأصفـاد في يديـه ورجليـه يجـب عـلى أي حـال أن ينتقـم لنفسـه ولهـذه المعـدة الجائعـة التـي تصيـح بوجهـه تريـد طعامًـا كلـما أوى لحظـة إلى بيتـه.

ولكـن.. أوه! أيـة سـخافة هـذه! يزعـم أنـه سيشـتري خنجـرا ذا حديـن، مـن أيـن لـه الثمـن؟ لـو كان يملـك مـا يشـتري بـه هـذا الخنجـر لـكان أولى أن يبتـاع طعامًـا لامرأتـه وأطفالـه.

«سـخيف سـخيف هـذا أنـا، كيـف أعـدم وسـيلة لقتـل هـذا الخنزيـر: إن في سـاعدي. قـوة بعـير، وفي قبضتـي هاتـين مـا هـو أحـد وأشـد مضـاء مـن أيـة مديـة، سـأنقض عليـه كالمـوت، وأضـع يـدي في مخنقـه فاعـصره عـصرًا كالليمونـة. ثـم القيـه عـلى الأرض وابصـق عليـه وأدوسـه كجيفـة نتنـة»

ارتـاح إلى هـذه الفكـرة وسـار بقـوة واعتـداد يتنفـس مـلء رئتيـه، وهبـت العاصفـة مـن جديـد تـئن وتتناوح مـن بعيـد، ثـم تـزأر كأسـد جائـع يبحـث عـن فريسـته فارتعـدت فرائـس عبـد الواحـد وأسرع وهـو لا يـدري كيـف يتقـي هـذه الريـح المجنونـة تصفعـه صفعًـا وتجلـده بمـا يشـبه السـوط وتـكاد تلقيـه عـلى الأرض! ولاحـت لـه مـن بعيـد أنـوار تـلألأ فحـث خطـوه إليهـا فـإذا هـي تنبعـث مـن ملهـى نضـج في أرجائـه موسـيقى معربـدة مشوشـة تصاحبهـا ضحـكات قصـيرة فاجـرة.

وقـف هنيهـة يتأمـل كمشـدوه، خطفـت بـصره الأنـوار، أذهلتـه الأصـداء، لم لا يصمـد؟

هـا هـو عـلى بـاب ردهـة واسـعة الارجـاء، هنـا وهنالـك موائـد مبعـثرة جلـس إليهـا أنـاس تتفـاوت مظاهـر الـترف والنعيـم عـلى وجوههـم يلهـون ويقصفـون ويشربـون الخمـر دون حسـاب، ويغازلـون بنـات الملهـى، ومنهـم مـن انتبـذ ركنًـا بعيـدًا في الصالـة وأحتجـز هنـاك مائـدة عريضـة وأشرك في شرابـه غانيـة أو اثنتـين يتحبـب إليهـما ويراودهـما، ويبـذل لهـما مـن جيبـه ومـن كبـده! ومـن يـدري، فقـد ينجـح فيسـتميل إحداهـن ويقـضي معهـا ليلـة فاجـرة! هـؤلاء محرمـون ويبحثـون عـن الأنثـى بأنوفهـم كحيوانـات ضالـة جائعـة، وقـف عبـد الواحـد ينفـض المـكان نفضـا ببـصره المنهـوم، بعينـين جائعتـين راح يلتهـم كل مـا في المـكان ثـم اسـتدار وواجـه المـسرح تسـطع في أرجائـه انـوار متعـددة الألـوان، حمـراء متأججـة، زرقـاء صارخـة، صفـراء، خـضراء، تتمـوج في غمرهـا أجسـام عاريـة مثيره كلهـا فتنـة وجنـون وشـهوة، اختلطـت الألـوان في نظـر عبـد الواحـد وتراكمـت ودار رأسـه

وبـدت لـه السـيقان، الأفخـاذ، الأرداف، الأثـداء، الأبـدان كلهـا ثائـرة فائـرة مـن خـلال ضبـاب كثيـف، ترقـص بجنـون عـلى أنغـام موسـيقى فاجـرة معتوهـة!

ثقـل رأس عبـد الواحـد، وجثـم عـلى صـدره مـا يشـبه الطـود، وكاد يصيبـه غثيـان ولكنـه تـدارك الأمـر، وأخـذ نفسًـا عميقًـا وراح يهبـط السـلم بسرعـة فجائيـة كمـن يفـر مـن عـدو جبـار، ثـم وقـف في أسـفل السـلم يسـتريح، وينفـث عـن صـدره مـا يشـبه الدخـان الكثيـف الخانـق، وأراد أن يخـرج إلى الشـارع فاعترضـه خـط طويـل مـن السـيارات الفخمـة. تنتظـر أصحابهـا الأثريـاء، لم يركـب عبـد الواحـد في حياتـه سـيارة مـن هـذه السـيارات، كان يكتفـي بـأن يراهـا تمـر أمامـه، تقـل السـادة المترفين، شـد مـا كان يشـعر في قـرارة نفسـه أنـه لا بـد وأن يكـون إنسـانا غـير هـؤلاء النـاس مـن فصيلـة منحطـة، وجـدت لتخـدم هـؤلاء السـادة!

وتابـع عبـد الواحـد سـيره وفي نفسـه رغبـة غامضـة: خمـر، وامـرأة، وسـيارة، ولكـن هيهـات، هيهـات.

***

السـاعة الثانيـة بعـد منتصـف الليـل، ورطوبـة الجـو - بعـد العاصفـة - ثقيلـة تـؤذي الأعصـاب، وتنفـذ في الجسـم كالإبـر، والعائـدون إلى بيوتهـم بعـد عبـث الليـل، يحلمـون بفـراش وثـير ونـوم عميـق تعاودهـم فيـه أشـباح لذاتهـم ولهوهـم، وعبـد الواحـد يسـير بخطـى مترنحـة، وقـد مـلأت صـدره هـذه الأزمـة العصبيـة الحـادة، واختلطـت صـور هـذه الليلـة في رأسـه،

مشوشــة مضطربــة، وإن قدميــه لتســوقانه دون أن يــدري إلى بيتــه، دار متداعيــة، متواريــة في عطفــة مظلمــة لا يدخــل إليهــا النــور، كهــف مهجــور ينضــح رطوبــة مهلكــة، وإذا بخطــوات مسرعــة وراءه وصــوت يناديــه «عبــد الواحــد، أبــو عثــمان، وقــف يــا شــيخ» فعــرف عبــد الواحــد صــوت صديقــه أحمــد أبــو دراع فالتفــت إليــه مندهشًــا وقــال: «اللــه! أنــت هــون أيــش الــلي جابــك» فأجــاب محمــد «المعلــم عــاوزك تشــتغل عنــده لمــا عــرف إن ريــس الورشــة الثانيــة أطلعــك بــدون ســبب».

«صحيــح!» نــدت عــن صــدر عبــد الواحــد هــذه الصيحــة، فيهــا أمــل مــشرق منبثــق مــن هــذا الظــلام المتراكــم.

فأجــاب محمــد: صحيــح. وبكــرة الصبــح تعــال أمســك شــغلك الجديــد، عــمارة كبــيرة قــاول عليهــا المعلــم، ثمانيــة أشــهر، عــشرة، ســنة، مــن يعلــم؟

فقــال عبــد الواحــد: اللــه يخليــك يــا محمــد، أنــا ممنــون كــتر خــيرك أنــت أخ صحيــح، فــرد عليــه محمــد وهــو يبتعــد «كلنــا إخــوان، تصبــح عــلى خــير».

* * *

وأحــس عبــد الواحــد وهــو يتجــه إلى الغرفــة، الغرفــة الوحيــدة التــي يرقــد فيهــا أطفالــه وامرأتــه بــأن ســحابة كثيفــة ثقيلــة قــد ارتفعــت عــن صــدره. ومــرت مسرعــة خفيفــة!

وأوى إلى فراشه القذر بقرب امرأته وهو يعجب لنفسه كيف كان غبيا يريد أن يقتل ريس الورشة، يخنقه ويزهق أنفاسه وارتعش لهول هذه الفكرة الإجرامية.

«أنا طول عمري سخيف وحمار؟»

وكان يجوس خلال رأسه - وهو بين النوم واليقظة - هذا الأمل «ما يزال في الدنيا أناس طيبون كلهم خير وبركة!»

# حياةُ إنسان

أي حـال أبعـث عـلى القلـق وأشـد أثـارة للحـيرة وأدعـى إلى الـتردد والأحجـام مـن الحـال التـي هـو فيهـا الآن؟ مـاذا! إنـه يحيـا منـذ شـهر تقريبًـا حيـاة مضنيـة، عقيمـة، جافـة، أجـل! إنـه لم يشـعر قـط بمثـل هـذا العجـز عـن الإدراك والتمييـز، ولم يعهـد في نفسـه مـن قبـل هـذا الخـور الشـامل في التفكـير، خـور كأنمـا هـو الشـلل المفـزع يـدب في أعصابـه كلهـا ويـشرد ذهنـه في فـوضى مظلمـة ليـس ينتهـي فيهـا إلى يقـين وليـس يجـد في مضطربهـا قـرارًا ولا يلتمـس في حيرتهـا وتخبطهـا اتزانًـا أو هـدى!

وفي التفاتـة خائـرة ألقـى مـن النافـذة المطلـة عـلى الشـارع نظـرة باهتـة، فأحـس بخمـول ثقيـل لـدي خلـو الشـارع إلا مـن عربـة قديمـة مغـبرة اللـون، يجرهـا جـوادان هزيـلان بتـؤدة ومـلال عبثًـا يحثهـما الحـوذي المسـكين يتثـاءب مـن فـرط النعـاس وفـرط الجهـد والإعيـاء.

والأضـواء الحزينـة الواهنـة تفعـم أرجـاء الشـارع نـورًا يتراقـص كئيبًـا فاتـرًا والسـماء كابيـة غـاض الإشراق في صفحتهـا الكالحـة العميقـة الغـور كالهاويـة لا يأخـذ البـصر فجاجهـا إلا بضـع نجـوم خابيـة مـشردة في هـذا المحيـط الأسـود الصامـت.

مضـت هاتـه الصـور كلهـا تطـرد في بهـرة خيالـه مشوشـة، وراعتـه كآبـة هـذه الليلـة مـن ليـالي الخريـف الذابـل، وأثقـل عليـه هـذا العبـوس مـن الطبيعـة، عبـوس يضنـى النفـس ويبعـث فيهـا إحسـاس غامضًـا، قاتمًـا، أشـبه شيء بالفنـاء.

فارتـد بـصره عـن الشـارع القفـر والسـماء المهولـة وفي صـدره شـعور التائـه

في صحـراء، وبـدا لـه المقعـد المسـتطيل المريـح بجانـب السريـر مغريًـا للأعصـاب المتعبـة، فاشرأبـت إليـه قـواه الحائـرة وهفـا إليـه جسـمه المتهـوك. اندفـع نحـوه برغبـة وجشـع ثـم تهافـت عليـه متهالـكًا كأنـه جـدار قديـم متـداع أصابتـه صدمـة فانهـار.

راح يجيـل في الغرفـة عينـين ذاهلتـين يطـل منهـما غبـاء كثيـف، فـتراءى لـه - عـلى ضـوء المصبـاح الخافـت - الأثـاث ومختلـف الأشـياء التـي تكـظ الغرفـة أشـباحًا صامتـة كأنهـا قضـت ثمـة قرونًـا عديـدة لا تـبرح مكانهـا في وجـوم أبـدي فتثـاءب ومـط شـفتيه في سـأم ومـلال ثـم منـح جسـمه الناحـل كل حريتـه فانسـجم في المقعـد برخـاوة يائسـة، تعبـة.

وإن خواطـره الآن أشـد مـا تكـون نزوعًـا إلى الانطـلاق مـن هـذا الحيـز الضيـق الـذي حصرهـا فيـه كل هـذه الأيـام المرهقـة، أجـل إنـه يشـعر تمامًـا بتمـرد تفكـيره عليـه ومراوغتـه لـه ومحاولتـه الإفـلات مـن هـذا اللـون بعينـه مـن التأمـل المضنـي المتشـابه، إن ذهنـه ليتشـبث بأيـة صـورة مـن صـور التفكـير في سـبيل الانعتـاق والتحـرر.

وراقـه أن ينـصرف تأملـه إلى ماضيـه، هـذا المـاضي العجيـب المتناقـض المتعـدد الألـوان المختلـف الحيـوات، بـلى! إن لـكل مرحلـة مـن مراحـل ماضيـة كانـت لهـا حيـاة خاصـة، هـذه الحيـوات جميعًـا مهـما تباينـت ومهـما تعـددت وجهاتهـا تكمـن في أطـواء شـخصيته وترسـب في أغـوار روحـه لا تتنافـر ولا تتصـادم، بـل تشـترك وتحـد في التأثـير عليـه وتوجيـه كل خطـوة مـن خطـاه في حياتـه الحـاضرة، والأغـرب مـن هـذا أنـه هـو

نفسه قد لاحظ أنه يتصرف في بعض الأحيان تصرفًا آليًا لا تفكير فيه، كأنما هناك شيء خفي قديم يجثم في ناحية مستسرة من نفسه يدفعه ويحثه دون أن يكون لإرادته في ذلك أي تأثير، وأغمض عينيه ومضت أدوار ماضيه كلها تمر مرًا خاطفًا في خياله، يلمح في كل منها فلذة من نفسه ومعنى من معاني وجوده، وصورة من صور حياته.

ها هو يرى بنفسه صبيًا من صبيان الأزقة الأشقياء القذرين يتعرضون كل يوم بألوان غريبة من الأذى لهذا الشيخ ذي الثياب الرثة المتعددة الألوان العجيبة الباهتة يسير بقامته المديدة في وهج الشمس يجر نفسه جرًا ساهم النظر كمعتوه، يا الله لشد ما كانت نسوة هذه الأزقة تضج بالضحك الفاجر لمرأى هذا الشيخ يتعثر بما يلقيه الصبية تحت قدميه من حجارة فيختل توازنه ويميل عوده الفارع ليكاد يتقصف! فيثور محنقًا ويعدو وراءهم لعله يمسك بأحدهم ويصفقه في الأرض صفقًا، ولكن هيهات. فإنهم في عدوهم أسرع من الريح ولن يظفر الشيخ إلا بالأوبة الخائبة واللهاث يشق صدره ويمزق رئتيه، وهذا سبب آخر ألذ وأمتع لهاته النسوة، فينفجرن بأصوات مختلطة مشاغبة مرددات بشماتة وسخرية «الشيخ المجذوب!» الشيخ المجذوب؟ ولقد حير هذا الاسم صبينا وأراد يومًا أن يستفسر عنه من إحدى هاته النسوة فأجابته في ابتسامة غامضة: «أنت نسيت زينب جارتنا الحلوة القديمة التي سرقته عقله؟». لم يفهم يومها ماذا تعني، وكيف يمكن للنساء أن يسرقن العقول، وهل العقول نقود أو متاع يسرق ويسلب، لا ريب أن هذا غباء وتخليط وقلب لأوجه الأمور الصحيحة.

مرت هاته الفترة من حياته على هذا النحو في الحارة المعتمة المغبرة الضيقة والبيت القاتم المتداعي، وبين أبيه السكير المتلاف وأمه الضعيفة الحادية الحنون هذه الأم لقد أحبها كثيرا من كل قلبه الصغير، بقدر ما كان يشمئز من أبيه الفظ تفوح أبدًا من فيه رائحة الخمر الكريهة.

***

وهذا دور آخر من حياته:

كان في نحو الخامسة عشرة، نظر إليه أبوه ذات يوم نظرة متوعدة يقدح فيها الغضب والتهديد وقال له مزمجرًا: أنت كبرت يا إسماعيل وماعدش اللعب يفيدك حاجة حاتسيب المساخر وتنتبه لنفسك، أنا عاوزك تجيب فلوس، أنت فاهم، بكرة الصبح ابقى حضر حالك نروح سوى للمعلم مقصود الحداد، واللا والنبي اخنئوك وأخلص منك» هذه الكلمات ما كان أقساها وأمرها على قلبه الصغير لقد بكى كثيرًا في تلك الليلة، وأحس بحقد يوغر صدره على هذا الأب، على هذا الوحش.

وهل قضي عليه أخيرًا أن يصبح صبي المعلم مقصود الحداد، أية ليلة من ليالي النحس ولد فيها حتى يكون له هذا الحظ العاثر، وماذا بعد هذا الشقاء والذل عند المعلم مقصود، كم كان يفزعه منظر تلك المكان المتوارية في عطفة بحارة الحدادين، دكناء تملأ جوها رائحة الحديد المحمي، يتأجج في أحد أركانها أتون النار يزفر فيه اللهب

وتسلب البصر جمراته اللاظية، ثم تلك الطرقات المطردة المتواصلة تصم الأذان و تصدع الرأس وتصفع الأعصاب، لم يمر على وجوده عند «المعلم مقصود» أكثر من سنة تمرس خلالها وأصبح ابن المهنة وعرف كيف يجالد التعب ويصمد للإرهاق وكيف يكافح وكيف يكسب أيضًا.

وكان حين يعود من عمله المضني بعد الغروب ويرى الصبية من لداته على وشك أن ينفرط عقدهم بعد أن شبعوا لعبًا سحابة يومهم، كان حين يمر بهم يشعر بشيء من الزهو والخيلاء لأنه يأتي لأبيه وأمه «بفلوس» ولأنه يرى أنه أصبح بحكم مهنته أصلب منهم وأقوى ساعدًا، وهو لو أمسك بأحدهم بكلتي يديه يستطيع أن يرفعه في الفضاء ويقذف به قذف قوي جبار، كان يشعر حيالهم أنه رجل.

ولكن هذا الدور من حياته يتميز بلون خاص غير هذه الألوان العادية فإن الزمن بعدوه الجبار وشتى صروفه ومختلف عبره يستطيع أن يأتي على كل شيء، ورحى الحياة الثقيلة قد تسحق في دورانها الأبدي كل ذكرى، غير هذه، ليس يستطيع الزمن بقسوته ولا الحياة بجبروتها وعتوها أن يسلباه اياها، ستظل أبدا حية تطوف برأسه بكل ألوانها الصارخة:

كان يومها في حال أدنى إلى الاضطراب وأقرب إلى الفوضى والتهور والخروج عن الاتزان، وكان من قبل يحس هذا الاضطراب وتلك الثورة يبتدر بها الناس جميعًا لأتفه الأشياء حتى لكأن شيئًا لا يقاوم يعصف في كيانه يسلبه كل إرادة وتخضعه بجبروت إلى هذه العاطفة تجيش في صدره

مضطربة ملهوفة وتندفع ثائرة نحو الأنوثة ماثلة في كل امرأة، لكن الانهماك في العمل كان يلهبه ويصرفه عن تأمل نفسه. إلى أن كان يوم العطلة هذا لم يبرح فيه البيت أشد ما تكون غريزته الجنسية ظمأ وتضرما. تسري في جسمه كله حمى لافحة ونار آكلة، ودمه يركض في عروقه بعنف وتدفق حتى يصعد إلى رأسه فائرًا منبجسًا، فيذهل هنيهة ثم يدور في البيت كمجنون وتمتد يده بعصبية وغيبوبة إلى أي شيء يقذفه دون وعي حيث لا يدري أين يستقر، وفجأة سمع طرقًا على الباب فذهب ساخطًا ليرى الطارق وماذا عساه يريد وقد خرج كل من في البيت لقضاء واجب الزيارة للأهل والأصدقاء، ولكنه وقف ذاهلًا عند ما فتح الباب ورأى على عتبته «سعدية» جارتهم القديمة حاسرة عن وجهها الخمري ترف على صفحته بسمة حلوة مشرقة وهي تقول له بدون تكلف:

- أنا جاية أعتب عليكم، وأشوف ليش ما بتزرونا‌ش، إذا نسيتوا الجيرة القديمة نحنا ما ننسا‌ش أبدًا.

- سلامات، والله أبدًا ما ننسا‌ش الجيرة الطيبة. ونتذكركم دائمًا لكن.

ومضت الكلمات تتعثر في فمه وهو يحاول أن يختلق الأعذار ويلتمس ما يبرر هذا القصور من جانبهم ويؤكد أنه غير مسؤول، فهي قد تزوجت من نحو سنتين وتركت بيت أبيها ودخلت في عائلة جديدة، عائلة زوجها وإذن فقد أصبح من المتعذر أو على الأقل من الصعب بحكم هذه الظروف أن تستمر العلاقات القديمة دون أن يصيبها بعض

الفتـور ويلحقهـا بعـض الوهـن. وأختـه هـو أيضـا تزوجـت، وأمـه امـرأة ضعيفـة تدلـف الى شـيخوخة مهدمـة عاجـزة، ولم تخـرج لزيـارة أحـد منـذ وقـت طويـل إلا اليـوم وهـو يرجوهـا ألا ترهـق نفسـها فتعـود راجعـة دون أن تأخـذ حظهـا مـن الراحـة. وسـيعد لهـا القهـوة ولعـل أمـه تـأتي في هـذه الأثنـاء وهـي تقبـل ذلـك برضـا مدهـش:

«أنـا تعبانـة مـن المشـوار وصحيـح عـاوزة اسـتريح. وأنـت زي أخـوي» وهيـأ لهـا مقعـدًا متواضعًـا مريحًـا جلسـت عليـه وأطلقـت مـن صدرهـا تنهيـدة خافتـة. كان أشـد مـا يثـير عجبـه ويبعـث في رأسـه خواطـر غريبـة مذهلـة، وهـو يعـد القهـوة، هـو هـذه الجـرأة في الخـروج عـن المألـوف في مخاطبتهـا إيـاه سـافرة بـدون أي تكلـف و تحفـظ. وكيـف أنهـا لم تمانـع في الدخـول حـين دعاهـا إلى ذلـك و. و.. هـذه أشـياء كلهـا مذهلـة محـيرة. وقـدم لهـا القهـوة وأراد أن يخـرج ليـدع لهـا حريتهـا. غـير أنهـا اسـتوقفته وهـي تقـول في ابتسـامة «رايـح فـين؟ حاتسـيبني لوحـدي هنـا، أبقـى أكلـم مـين؟ خليـك نتكلـم سـوا ونتذكـر أيـام كنـا صغـار، أيـام كنـا نلعـب كثـير مـش حاسـبين الدنيـا كلهـا حسـاب أنـت فاكـر؟»

وجلـس قبالهـا وهـو يحـاول أن يحتفـظ بهدوئـه واتزانـه. كانـت برهـة صمـت لم يجـدا خلالهـا مـا يقولانـه، هـي تـشرب القهـوة بحسـوات متمهلـة وهـو يختلـس إليهـا النظـر.. فـيرى أن في جلسـتها إغـراءً. وأن شـبابها الفاتـن وأنوثتهـا المكتملـة الآسرة وروحهـا الظـمأى المتفتحـة. كل هـذه تتدفـق مـن عينيهـا المنهومتـين في ومضـات ثابـرة تـراق عـلى صفحـة الوجـه متتابعـة مشوشـة. فـإذا عضـلات الفـم تنتابهـا ارتعاشـات خفيفـة عصبيـة وعـلى

سائر الوجه تتراقص معاني الغل والحقد وتتوالى صور الاستهتار والهزء والجسم كله يبدو في إغرائه وتهتكه وثورته كأنما يريد الانطلاق في وثبة جامحة مكتسحة. كانت (سعدية) في هذه اللحظة بركانًا لن يلبث أن ينفجر ويقذف حممه المدمرة وشواظه اللاظية.

انتزعته فجأة من تأمله وهي تقول بصوت مهدجة نبراته: «أنت كبرت يا إسماعيل. وصرت شاب قوي. جميل. وحقك يا خوي تتجوز» قالت ذلك بيأس ومرارة ثم انحنت حتى كاد وجهها أن يلمس وجهه، فعلت ذلك دونما إرادة كأنما هناك قوة خفية تدفعها دفعًا... وأحس هو بأنفاسها المحمومة تحرق وجه. وفي لحظة مذهلة عاوده إحساسه الجنسي يعصف في كيانه عصفًا مجنونًا ولم يشعر إلا أنه يأخذها بقوة بين ذراعيه ويعصرها إلى صدره بعنف ورجولة.. ويهوي بفمه دون وعي على وجهها وسائر جسمها بنهم ووحشية.

أما هي فكانت تنتظر هذه اللحظة الحاسمة. وكان كيانها كله في استسلامها وذهولها بين ذراعيه الجبارتين يرتوي من فيض متدفق بعد طول ظمأ، وتنبعث فيه الحياة جائشة فائرة بعد ركود أشبه بالموت.

أجل! في لحظة واحدة أراقت على التراب كماء قذر عرض ذلك الشيخ الهرم الفاني الذي اتخذها بجبروت المال زوجًا له تفني حياتها وتعصر شبابها بين ذراعيه الكليلتين وعلى صدره المريض، ماذا يهمها؟ وهو يمزق شبابها ويخنق أنوثتها إذن فلتسحق عرضه، وليكن شرفه موطئًا لنعالها، وليكن ثمرة هذه العلاقة ولد من صلب «إسماعيل العامل،

الشـاب، القـوي.. يـرث مـال الشـيخ ويحمـل بـين النـاس اسـمه ويأخـذ مكانتـه».

اسـتمرت هـذه العلاقـة تعيـش في الظـلام مـدى عامـين كاملـين عـرف اسـماعيل خلالهـا كيـف تسـتطيع المـرأة أن تـسرق العقـل وتفـري الكبـد. وكيـف تكـون نـارًا لافحـة آكلـة، ونـورًا غامـرًا ونعمـة سـابغة.

وفجـأة! أجـل فجـأة! انقطعـت هـذه العلاقـة! وعبثًـا حـاول أن يجـد لذلـك تفسـيرًا مريحًـا... إلى أن قيـل لـه ذات يـوم «إن سـعدية وضعـت طفـلًا جميـلًا قـرت بمولـده عينـا أبيـه الشـيخ المـثري. وظـل بعـد النـاس ذلـك يتحدثـون طويـلًا عـن ليـالي الفـرح الشـائقة التـي أحياهـا الشـيخ احتفـالا بمولـده السـعيد!»

***

ثـم مـاذا؟ ثـم مـضى في الحيـاة يتلـكأ، ويشـك في كل شيء. ويرسـل بـصره وراء كل ظاهـرة يحـاول أن يسـتقصي كل مـا يكمـن في الأعـماق ويرسـب في القـاع السـحيق، ولكـن بسـخرية ولكـن بمـرارة وانتقـام، فقـد علمتـه الحيـاة أن صـورًا مغريـة فاتنـة أخـاذة وألوانًـا مذهلـة متجـردة خفيـة تعيـش الإنسـانية في غمرتهـا وتنغمـس في صميمهـا، ولا يطفـو منهـا عـلى سـطح اليـم إلا الزبـد وإلا ومضـات، باهتـة خادعـة! مـاذا؟ ألم يكـن لـه أيضًـا حظـه في هـذه الحيـاة المتجـردة؟

ومـا يدريـه؟ أليـس أمامـه مـن فسـحة العمـر مـا قـد يفجـأه بصـور طريفـة

أمتع وأخلب من تلك التي عرفها حتى الآن. ولعله يشارك أيضا في المتاع بأداء دور جديد على مسرح هاته الحياة الخفية العجيبة؟ أجل ما يدريه؟

على هذا النحو راح يضرب في الحياة تعمر رأسه هذا التأملات الغريبة والأخيلة الهائمة المادية، وكان في أثناء ذلك قد حذق مهنته وأصبح فيها من ذوي الخبرة وأراد أن يستقل في عمله. فاتخذ دكانًا متواضعًا وراح يعمل فيها عملًا متواصلًا أكسبه ثقة الكثيرين وجعله في مدة قصيرة يصيب من التوفيق والنجاح حظًا ما كان يتصور أنه مدركه بهذه السرعة. فازداد نشاطه وشرع يضع للمستقبل خططًا محكمة ناجحة، وفي مدة سنوات ثلاث فقط. أجل، سنوات ثلاث، كان لإسماعيل الشربجي «ورشة» حديد كبيرة يجري فيها العمل على آلات حديثة يديرها عمال كثيرون، وطبيعي بعد هذا الاستقرار أن تتطور حياة العائلة الصغيرة فتنتقل إلى مسكن جديد في ناحية جميلة من نواحي المدينة وأن تتوفر لديها أسباب الرفاهية. لكنها ظلت محافظ بغيرة وارادة عنيدة على أساليب حياتها القديمة.

وبدأت الام العجوز تفكر تفكيرًا جديًا بزواج ابنها ففاتحته ذات يوم برغبتها «أنت وحيدنا يا بني. ولسانا ما فرحناشي فيك. ومشتاقين نشوفلك عروس حلوة تتفتل قدامنا مثل غصن البان، وأولاد صغار يملوا دارنا، ربنا يا ابني منعم ومتفضل من خيره. أيوه يا بني خلينا نفرح فيك قبل ما نموت. أنا والله يا اسماعيل شايفالك عروس حلوة وبنت ناس طيبين».

وكان هـو حقًـا يفكـر بالـزواج ويشـعر بحاجتـه إلى زوجـة يـأوي إلى حنانهـا ويعيـش في كنـف حبهـا ويجـد الاسـتقرار والهـدوء في ظـل عطفهـا وإخلاصها، ورحـب الشـيخ «سـليمان المتـولي» بهـذه المصاهـرة.

«البنـت عـلى حبـل ايدكـم جياكـم خدامـة للمطبـخ ومـين أحسـن منـك يـا اسـماعيل يـا بنـي واللـه أنـت زينـة الشـباب وسـيدهم. هـي البنـت الـلي تكـون في بيتكـم تنضـام؟! أبـدًا. حاتعيـش مهنايـة وسـعيدة أحسـن مـن بيـت أبوهـا وزيـادة».

ودخلـت زكيـة بيـت زوجهـا إسـماعيل ومـلأت البيـت كلـه بهجـة ونـورًا. وأحبـت زوجهـا وأحسـت بغريزتهـا أنـه رجلهـا القـوي. وأنهـا واجـدة في كنفـه لـذة الجسـم ولـذة الـروح ولـذة الحيـاة كلهـا وفـاء هـو إلى ظـلال حنانهـا وحبهـا. وراح يعـب مـن هـذه الفيـض، فيـض أنوثتهـا ينبجـس جياشًـا غامـرًا أعـوام خمسـة مـرت عـلى هـذا النحـو، مـرت كحلـم مذهـل زاخـر بأسـباب الحيـاة السـعيدة الى أقـصى حـدود السـعادة، أجـل سـنوات خمـس، مـا أدري كيـف مـرت! هـي أهنـأ سـني العمـر وأصفاهـا.

مـضى يقـول بخفـوت وهمـس، بعـد أن انتهـى مـن اسـتعراض ماضيـه، وتأمـل أدواره المختلفـة الغريبـة المتباينـة، وشـعر أن حيرتـه قـد فارقتـه، وإنـه يسـتطيع الآن أن يسـتقر عـلى رأي حاسـم. فـما الداعـي إلى كل هـذا الاضطـراب. ولمـاذا يفنـي نفسـه في تفكـير مضـن عقيـم؟ ومـاذا وراء هـذا الـتردد والتخبـط، مـاذا وراء الحـيرة المذهلـة والذهـن المـشرد المكـدود؟ مـاذا وراء هـذا غـير إرهـاق الأعصـاب وغـير الخبـل المفـزع!

وهل هو يلام لو اتخذ زوجة ثانية؟ نعم هو يحب زوجته حبًا يشعر بحرارته وتدفقه في كل قطرة من دمه وكل ارتعاشة من ارتعاشات روحه وكل خفقة من خفقات قلبه.

لكن ما قيمة النجاح يواجهه في كل متجه؟ ما قيمة كل هذا الإشراق والابتسام تلقا بهما الدنيا كلها، ما قيمة كل هذا بغير أولاد وهل هو جاء إلى هذه الدنيا الغادرة يجرع حنظلها المر ويكتوي بسياط لؤمها ويتقلب في مهاد البؤس والضنك ليغتصب آخر الأمر حظه من الدنيا اغتصابًا ويرغمها على الابتسام له والإقبال عليه، ثم يخرج منها دون «خلف» كأنه ما جاء اليها؟ أية سخرية هذه!

وشعر لدى هذه الخواطر تكظ رأسه بدوار. فقد راعته هذه الحقيقة المرة: «إن كل سعيه في الدنيا باطل... تذهب به الريح»

وخيل إليه أن الغرفة كأنها تزحمها أشباح مروعة تهمس بهزء حاقد وشماتة قاهرة:

«إلى الفناء أيها المغرور، الفناء مصيرك، الفناء يطويك كأن لم تكن»

فاستولى عليه جمود غلاب شل حركته، وتمثل له الفناء كصحراء لا نهاية لها، صحراء مقفرة يدوي في متاهاتها زئير يصم الآذان ويرج القلب ويذهب باللب، ولاح في أفق نفسه هذا العزم:

لا بد من اتخاذ زوجة ثانية. زوج الاثنتين! ولكن ماذا يهم؟

«لـن أخـرج مـن الدنيـا دون خلـف، دون أن يظـل اسـمي حيًـا وذكـري باقيًـا»

إلى أبعـد مـا يمكـن أن يبقـى ذكـر ويخلـد اسـم.. ومـا هـو ذنبـي إذا كانـت «زكيـة» عاقـرة لا تحمـل؟ لا بـد.. لا بـد.. لقـد تلفـت أعصـابي. ولم تعـد لي قـدرة عـلى الاحتـمال»

وهـل تنتظـر سـميحة أن ترسـل إليهـا السـماء بأعجوبـة الـزوج الـذي تحلـم بـه؟ وهـلا تـزال تعلـل النفـس بهـذا الأمـل؟ وهـا هـي قـد تخطـت الثلاثـين وأصبحـت في عـداد العوانـس «البائـرات» وهـل هنـاك مـا يغـري الشـباب بهـا؟ فهـي فقـيرة وحظهـا مـن الجـمال عـلى «قدهـا!» فلـم إذن لا تقبـل أن يكـون إسـماعيل بعـلًا لهـا. ومـاذا يضيرهـا أن تكـون لـه زوجـة غيرهـا إن هـذا بـلا ريـب أفضـل مـن هـذه الحيـاة المملـة القاحلـة التـي تحياهـا. لقـد طـال عبـوس الحيـاة وتجهمهـا لهـا وازورارهـا عنهـا. وهـا هـي الفرصـة سـانحة، فـما عليهـا إلا أن تغتنمهـا ولا تدعهـا تفلـت. ومـن يـدري فلعلهـا الفرصـة الوحيـدة التـي يتوقـف عليهـا نصيبهـا الضئيـل مـن السـعادة في هـذه الدنيـا، وكانـت حفلـة العـرس بسـيطة لم يـدر بهـا أحـد واجتهـد إسـماعيل أن يوفـق بـين زوجيـه وأن يرضيهـما، ولكنـه كان في الحقيقـة أحـرص عـلى مرضـاة زوجـه «زكيـة» وأسرع إلى تلبيـة رغائبهـا فهـي عـلى كل حـال زوجتـه الأولى وهـي أقـرب إلى قلبـه وأحـب إليـه مـن كل امـرأة أخـرى مهـما بلـغ شـأنها وهـل كونهـا لم تلـد لـه ولـدًا يكفـي «لكـسر» خاطرهـا وإذلالهـا وازوراره عنهـا! كلا. كلا

وتـم لإسـماعيل مـا كان يتمنـاه إذ حملـت امرأتـه الثانيـة سـميحة، وكان هـذا النبـأ أول سـهم سـدده القـدر السـاخر إلى قلـب «زكيـة» فأصـماه. ومـن تلـك اللحظـة بـدأت همومهـا وهواجسـها وراحـت الغـيرة تجـد مرعـي خصيبًـا وتربـة صالحـة في نفسـها. ولكنهـا كانـت تكظـم هـذا كلـه. وتحـاول أن تظهـر هادئـة عاقلـة غـير مباليـة. ولكـن هيهـات؟ ففـي كل يـوم شـجار عنيـف بـين المرأتـين لأتفـه الأسـباب تتصـل نـاره بـكل مـن في البيـت. فـإذا هـي ثـورة مدمـرة لا يخمـد ضرامهـا إلا حـين يفـد اسـماعيل مـن عملـه فيحـاول التوفيـق بينهـما ولكـن دون جـدوى إذ تنكفـئ زكيـة إلى غرفـة نومهـا باكيـة بـكاء مـرًا. وتنـصرف الأخـرى جبـارة، شـامتة، متوعـدة، وهكـذا لا تهـدأ الثـورة إلا لتنفجـر ثانيـة أشـد وأمعـن في بـث الضغائـن واثـارة الأحقـاد وتمكـين الغـيرة وإلهابهـا.

وآن أوان الوضـع فاسـتعدت لـه الجـدة اسـتعدادًا غريبًـا. حركـة دائمـة نشـيطة وجلبـة تمـلأ البيـت، ملابـس الطفـل يجـب أن تكـون جميلـة تـسر العـين، وأسـباب الراحـة والهـدوء يجـب أن تكـون متوفـرة لـلأم. والدجـاج لا بـد مـن علفهـا بكـثرة وسـخاء لتسـمن وتصبـح صالحـة لغـذاء الأم مـدة «النفـاس».

وأصبحـت الجـدة تـرى الدنيـا كلهـا ترقـص لهـا وتبتسـم لغدواتهـا وروحاتهـا. وطفقـت تناجـي الجنـين في نفسـها. فـإذا كان أنثـى فـإن اسـمها لا شـك سـيكون «حميـدة» وهـي بـلا ريـب سـمراء خفيفـة الـدم. آه أنهـا تـكاد تجـن لمجـرد تصورهـا، كيـف أنهـا سـتحملها بـين ذراعهـا وتوسـعها بقبلاتهـا العديـدة وتضمهـا إلى صدرهـا وتناغيهـا وسـتمر الأيـام وتكـبر وتصبـح زينـة

البيت تملئه فرحًا وضياء. وتتزوج وتلد بنات وبنين الخ. الخ. وأما إذا كان ذكرًا. فليست تدري ماذا يكون شأنها؟! فلعلها ترقص ولعلها تقبل كل من يسوقه «الحظ السعيد» في طريقها، تضيق الدنيا بفرحها على كل حال.

ووضعت الأم. وضعته ذكرًا بعث في هذه العائلة الصغيرة إشراقًا متدفقًا وسعادة غامرة وأحيا إسماعيل ثلاث ليالي فرح لم تعرف الناحية التي يسكنون فيها أبهر منها وأروع. ولم يروا إسرافًا مثل هذا الإسراف وألوانًا من البذخ تعادل هاته الألوان ثلاث ليالي فرح لم تنقطع فيها أصوات المغنيات ودوي الزغاريد ورقص الراقصات حتى مطلع الفجر.

***

وتغيرت خطة إسماعيل في معاملة زوجة الثانية، فهو يتودد إليها كثيرًا ويختصها بعطفه ويوليها عنايته وحدبه، فهي بعد أم هذا المولود الذي يعبده ويرى سعادة الحياة كلها في ابتسامة من فمه الصغير، وكان انصرافه وابتعاده عن زوجه الأولى باديًا بأجلى معانيه. وإن حاول أحيانًا أن يطيب خاطرها ويحنو عليها. افتعال فاضح وتكلف بين ظاهر ولكن الغريب أن ثورة «زكية» والتي كانت تنفجر بها أبدا قد هدأت. وعاودها سكون ذاهل ووجوم ساهم حزين واعتراها تحول يزداد يومًا بعد يوم. وأراد زوجها أن يراقبها ذات ليلة. فقد رابه هذا التطور الفجائي وأثار الفضول في نفسه. يا الله! إنه لن ينسى أبد الدهر هذا المنظر المؤلم شد ما راعه وأفزعه:

«امـرأة في مخدعهـا مخبولـة، تبـكي بـكاء مـرًا في صرخـات مكظومـة تخـرج كفحيـح الأفعـى وتشـد بـين الآونـة والأخـرى شـعر رأسـها حتـى تجتـث بعـض خصلاتـه بـين أصابـع يدهـا الجامـدة المتشـنجة. ثـم تهـوي بفـم مغفـور وبحالـة وحشـية عـلى وسـائد السريـر وتمزقهـا بنواجذهـا بغـل وجنـون»

رأى اسـماعيل أن امرأتـه زكيـة تخطـو نحـو جنـون مؤكـد، ربمـا تكـون مـن ورائـه كارثـة تعصـف بهـذا البيـت الـوادع المطمـئن. وأحـس بحراجـة موقفـه ودقتـه وراح يتدبـر أمـره ويقلـب النظـر في هـذا الخطـر الـذي يهـدد سـعادته وسـعادة عائلتـه، ولكنـه أطـمأن إذ لاحـظ أن سـورة هـذا الجنـون بـدأت تفـتر وتهـدأ، بينـما ازداد وجومهـا وتملكهـا ذهـول تـام ونـزوع إلى الانـزواء والوحـدة والصمـت المطلـق، وسـاد البيـت نـوع مـن الحـزن الأخـرس. وشـعر الـكل أن حياتهـم تـكاد تفسـد وتـكاد تصبـح شـيئًا أشـبه بسـجن رهيـب لا يدخلـه نـور ولا تخفـق فيـه حيـاة.

وكان يـوم مـن أيـام الشـتاء المتجهمـة والريـح صرصر تجلـد الجسـم بسـياط لاذعـة والمطـر ينهمـر ثـم يكـف ليعـود بعـد فـترة أشـد انهـمارًا. أجـل كل شيء كان ينبـئ أن العاصفـة المدمـرة عـلى وشـك الانفجـار وانـصرف كل مـن في الـدار إلى شـأنه «سـميحة» منهمكـة في تنظيـف البيـت وإعـداد الطعـام والجـدة بعـد أن فرغـت مـن مداعبـة حفيدهـا وتدليلـه راحـت تـؤدي فريضـة الصـلاة في خشـوع وانكسـار وابتهـال إلى اللـه أن يديـم نعمـه عليهـم ويبـارك فيهـم ويبعـد الأذى عنهـم، وزكيـة في ركـن مـن أركان غرفتهـا في ذهولهـا وغيبوبتهـا

وفجأة سمع صوت الطفل في الغرفة المجاورة خافتًا حلوًا. فأصغت زكية إلى هذا الصوت النائم. وكان ذهولها قد فارقها هنيهة فانتصبت واقفة واتجهت مأخوذة نحو الغرفة الراقد فيها الطفل. ووقفت على العتبة تشرب اذناها صوته بنشوة مستغرقة! وكانت ابتسامة الطفولة البريئة الساذجة تضيء صفحة وجهه ويداه الصغيرتان لا تهدأن عن الحركات الطائفة وجسمه كله يهتز مغتبطا جذلان، فاندفعت زكية كنشوى نحو السرير الصغير وحدقت في عيني الطفل. فتملكها حنان غريب مستبد واستولى عليها نعيم مبهم حائر وأحست أن موجة من نور تفعم صدرها وتسري في سائر جسمها رجفات خفيفة مخدرة. فأخذت الطفل بين ذراعيها وراحت تغمر وجهه وكل عضو من أعضائه بالقبل العنيفة المنهومة وتدفن وجهها في صدره وعنقه تشمها بشراهة وأنانية. وفي ومضة خاطفة طغى عليها إحساس غلاب هو مزيج من القهر المرير والحنان المندفع من البغض الطاغي والحب الغامر، من الطيبة المتسامحة والحقد الآكل. إحساس كأنه النصلة المشحوذة القاطعة تراقص في بريقها معاني الموت، تمزق القلب وتخطف الحياة بأسرع من لمح البصر عندئذ لم تع شيئًا، فقد كان كيانها كله في صراع هائل مخيف، ترتعد كالمقرورة التائهة في عاصفة مجنونة مكتسحة. وجحظت عيناها وخبا فيهما نور الذكاء والعقل، وتشنجت عضلات وجهها. وراحت تضغط على الطفل - يختلج بين ذراعيها – بقوة ساحقة وهذيان فاجع، وفي دقائق معدودة، كان الطفل جثة هامده بين ذراعي مجنونة.

# جراثيم

«مهداة إلى هذا العامل التعس الذي يخرج كل يوم إلى حيث يفني حياته ويتلف قوته وشبابه، ويعود إذا ما جن الليل يحمل في صدره هم طبقة شقية بأسرها كل حياتها قصة طويلة هائلة من القهر والحرمان والموت»

## ١

لا يدري إنسان كيف قام حزب الأمة ولأية غاية وجد وما هو برنامجه على وجه التحقيق؛ أغراضه، أهدافه، روحه الوطني، الأعمال الوطنية التي حققها، وجوه الإصلاح التي يدعو إليها، كل هذه أسرار مبهمة لا يمكن الوقوف على حقيقتها ولا سبيل إلى استكناها والإحاطة بها... ومع ذلك فإن حزب الأمة وهم في أذهان الجماهير، وهم كبير، ضخم متربع في عقولهم، جاثم في نفوسهم بقوة وإصرار كمرض مزمن!

كل ما يعرفه الناس عن هذا الحزب هو أن له دارا كبيرة، فخمة، وأن رئيسه «جلال بك مجدي» واسع الثروة، عريض الجاه، تلازم اسمه في الصحف هذه «الكليشة» الأبدية «الزعيم الكبير والمجاهد العظيم» كبير فهذا لا شك فيه! أمر مسلم به، واضح، حار هذه الشمس الحادة المحرقة التي تصور الأجسام في آب اللهاب أليس هو رئيس حزب الأمة، ألا تظهر الاحتجاجات الطويلة العريضة ذات الطنين والذين مذيلة باسمه على الصفحات الأولى في الجرائد اليومية بأحرف جليلة، ضخمة، تضج وتدير الرأس؟ ومن ذا ينسى خطب الرئيس النارية يلقيها في ردهة دار الحزب الكبرى في المناسبات والأزمات السياسية والوطنية، والجموع الحاشدة تتجمع احساساتها وجوارحها ونبضات قلوبها في آذانها تتلقى كلمات الرئيس، وفي أعناقها تمطها مطا وتشرئب بها إلى منصة الخطابة حيث ترتفع قامة الزعيم جليلة، هيبة، منيفة، تسيطر على الجموع وتفرض عليها الاحترام والإذعان وتوحي إليها بالتصفيق

والهتاف، كلا لن ينسى الناس كلمات الرئيس الخالدة وهذا الوحي الجبار في لحظات الإلهام والانجذاب الوطني:

«نحن لكم وأنتم لنا... ونحن جميعًا للوطن! إن لم نستطع أن نعيش ونكافح في سبيل وطننا، وبلادنا، فإن لنا جوف هذه الأرض، جوفها الرهيب الواسع خير مأوى لنا، إن عجزنا عن الكفاح، ومدافعة الظلم، القبور آمن لنا وأبقى»

(تصفيق حاد، حماس واندفاع من الجمهور أصوات من القاعة تردد عشت، لا فض فوك)

وهذه الكلمات الذهبية أيضًا:

«ليس لنا إلا إيماننا أيها السادة، إيمان أجدادنا وآبائنا، إيمان الأولين، هذا الإيمان خير ما نعتصم به وأقوى ما يرد عنا غارة الظالمين. إيماننا هو سلاحنا الذي لا يقله سلاح... الغرب قوي بدباباته وطائراته ومدرعاته وغازاته ومدافعة ورصاصه، ونحن أقوياء بإيماننا، الغرب هو السيف القاطع ونحن الهواء الخالد وهل يستطيع السيف مهما بلغ من مضاء حده أن يقطع الهواء ويحز في الهواء؟!؟!

صيحات حادة من القاعة: كلا. كلا. يعيش الرئيس. هتاف «يعيش الرئيس»

الرئيس يستأنف خطبته بعد هدوء العاصفة:

«أوصيكم خيرًا، أيها الإخوان، بتقاليدنا الصالحة، أوصيكم خيرًا بعاداتنا

الرحيمة، أوصيكم خيرًا بتراثنا الاجتماعي، أوصيكم خيرًا بما تركة لنا السلف الصالح، فإنها لكنوز غالية، ثمينه لا تعدلها كنوز الأرض جميعًا، هذه الحكم والنصائح التي تركها لنا أجدادنا الثاوون في قبورهم العزيزة تأملوها مليًا هذه الدرر الزاهية (ليس في الإمكان أبدع مما كان) (مال الدنيا في الدنيا) (القناعة كنز لا يفنى) (من ضربك على خدك الأيسر فأدر له الأيمن) (من ليس معه يؤخذ منه ومن معه يعطي ويزاد ) وغيرها، وغيرها، كل هذه ركائز قوتنا ودعائم متعتنا، هي دستورنا في الحياة والكفاح، هي دستوركم، مستقرها في أعماق صدوركم، فلنبحث عن أنفسنا أيها السادة على ضوء هذه الحكم الأبدية، فلتكن النور الذي يهدينا إلى حقيقة نفوسنا لنسوسها بحكمة وتدبر قبل أن تفكر في سياسة غيرنا، فليكن شعار كل منا: فلأهتم بنفسي ولأعرف نفسي. نفسي فوق الجميع وكل ما عدا هذا باطل، باطل الأباطيل».

(الجمهور تأخذه النشوة ويستبد به الحماس فيهتف: يحيا الرئيس، يدوم الزعيم، هتاف متواصل يبلغ عنان السماء، الجهور يندفع إلى منصة الخطابة ويحمل الرئيس على أكتافه)

الجماهير تعرف هذه المواقف الحاسمة للزعيم الكبير جلال بك مجدي وتحفظ هذه الكلمات الخالدة وأين فيها مواطن الاستحسان والحماس وأين تقع منها الهتافات العالية تمامًا طبق الأصل عما تنشره الجرائد وتعلق عليه. أما أن جلال بك مجاهد عظيم فهذا هو السر المغلق، علمه عند العارفين المطلعين، فهم يؤكدون سر هذه العظمة في جهاد

الرئيس، الدليل الواضح والبرهان الناصع تجده في هذه الصحف التي تفتن في هذا اللقب وتتأنق في اختيار الحرف الملائم له والوضع اللائق به وليس عن عبث أن تخلع الصحف هذا الاسم الكبير على سعادة الرئيس. إن تاريخ حياته حافل، مليء بآيات الجهاد لقد كان خدين جمال باشا في المعهد التركي يسير أبدًا في ركابه ولا يكاد يبرح عتبة قصره فكم مرة زار «إسطنبول» وتشرف بمقابلة الباب العالي وكم مرة شغل وظيفة قائم مقام وكان له في الحكومة النفوذ البعيد والباع الطويل. وفي العهد الجديد، شخصيته أوضح وأبرز. كان أكثر من مرة عضوًا في وفود عديدة إلى لندن لمفاوضة ذوي الشأن وكان أكثر من مرة عضوًا في هيئات ولجان وطنية معروفة، لم يكن يهاب قط أن يمضي الاحتجاجات الكثيرة ويطير البرقيات العديدة إلى المقامات العالية وبعد هذه الأعمال العظيمة والمهمات الخطيرة لا يكون أهلًا لزعامة حزب الأمة ولا يخلع عليه هذا اللقب المتواضع «المجاهد العظيم»؟!

وهناك أيضًا ساعد الرئيس الأيمن نائبه المحترم عثمان بك لطفي الرجل الرصين الحصيف القليل الكلام العميق الصمت ذو البأس الشديد وروح الحزب والمحرك الأكبر في إدارة شؤونه، والأستاذ «مطيع علوي» سكرتير الحزب وساعد الرئيس الأيسر ومثال النشاط والحيوية.

ولا يشك أي إنسان بأن سائر الأعضاء على جلال قدرهم وعراقتهم في الحزب وطول باعهم وقوة نفوذهم فإن أسماءهم تصغر وتتضاءل أمام عظمة الرئيس، تظهر جميعًا في الصحف اليومية متواضعة، مذعنة، تحف باسم الرئيس تشير بنفسها إلى تبعيتها ورضوخها، وكلها متمامت

وحـواش ببنـط صغـير تحـت اسـم الرئيـس زعيـم الأمـة «جـلال بـك مجـدي» وللحـزب أيضًـا جريـدة يوميـة بثـماني صفحـات كبـيرة (جريـدة الوطـن) رئيـس تحريرهـا إنسـان غامـض الشـخصية، لا لـون لـه يعـرف بـه، يبـدو غريـب الأطـوار شـاذ الميـول لـه قـدرة غريبـة عـلى إخفـاء مـا يضمـر تحـت مظاهـر خادعـة مـن الطيبـة والصفـاء. يطالعـك بقامتـه الشـوهاء وسـحنته النحاسـية ووجهـه الطويـل المسـنون ذي الأخاديـد والتعاريـج، ورأسـه الضخـم فيـه نواتـئ ظاهـرة تقـذي العـين، رأس حـمار، تـبرق فيـه عينـان صغيرتـان خبيثتـان تشـيان بكثـير مـن لـؤم الرجـل وانحطاطـه الخلقـي؟ كلمـة واحـدة تحـدد شـخصيته «ضميـره في جيبـه»! ومديـر الجريـدة قـمأة، بدنـه همـه الأكـبر في حياتـه، كحيـوان شره، رأسـه في معدتـه، كلـه شـحم أبيـض طـري رخـص، كخـروف العيـد يعـرف كيـف يمـد يـده فارغـة خاويـة لترجـع قبضتـه صلبـة متورمـة حشـوها الذهـب يتشـمم (القـرش) ولـه في (خياشـيمه) رائحـة خاصـة لذيـذة كرائحـة جيفـة نتنـة يتشـممها ويسـعى إليهـا ككلـب جائـع ضـال، إحساسـه نحـو (القـرش) إحسـاس دنيء حـاد، تقديـس عميـق وعبـادة خاشـعة! كـم شـهدت إدارة هـذه الجريـدة مـن مؤامـرات ودسـائس بارعـة ومكائـد محبوكـة الأطـراف وهـذه الجريـدة لم ينشـئها الحـزب مـن مالـه الخـاص بـل اسـتمالها إليـه وأغراهـا بالمـال الكثـير فانحـازت إليـه بعـد أن ناوأتـه مـدة طويلـة، حالهـا هـذا المثـل السـائر القديـم (عصفـوران بحجـر» مـن ناحيـة تبتـز مـن مـال الحـزب ومـن ناحيـة أخـرى تشـبع حفيظتهـا عـلى هيئـات وطنيـة أخـرى لأغـراض مبيتـة في نفسـها لهـا علاقـة متينـة بصنـم الذهـب الـذي عبـده بنـو إسرائيـل مـن وراء مـوسى في خلوتـه عـلى طـور سـيناء! والحـزب نفسـه يخشـاها ولكـن يـده

ممـدودة أبـدًا في حلقهـا «أطعـم الفـم تسـتحي العـين» وعـلى الأخـص إذا كانـت عينًـا وقحـة محملقـة جشـعة فارغـة لا يملؤهـا إلا الـتراب كعـين مديـر الجريـدة وصاحبهـا ومحرريهـا الذيـن يكونـون عصابـة خطـيرة مرخصًـا لهـا!

ولحـزب الأمـة لجـان وفـروع في كل بلـد تضـم (عينـات) مختـارة مـن نفعيـين ووصوليـين ومهرجـين لـكل وجهـه الـذي يتغـير ويتبـدل في كل مناسـبة وعنـد كل ظاهـرة مـن ورائهـا خـير يعـود عليـه، نهـازو فـرص وقناصـو غنائـم، مهـرة في الصيـد يلقـي الواحـد منهـم شـباكه وحبائلـه فـلا ترتـد إلا مثقلـة تنـوء بحملهـا، أجـلاف ضمائرهـم في أحذيتهـم، عـلى وجـه كل منهـم قنـاع إنسـاني يخفـي تحتـه خطوطًـا وتصميـمات إجراميـة فاتكـة، يهتـدون بسرعـة، بغريـزة حـادة، إلى الكتـف السـمينة ينهشـونها بتـؤدة وصـبر وحـذق عجيـب. هـم أذنـاب الحـزب، أعمالهـم الوطنيـة (جـوازات) فعالـة يعـبرون بهـا إلى أغراضهـم عضـو لجنـة حـزب الأمـة في بلـد(...) معنـى ذلـك: (حامـل هـذه الصفـة مسـموح لـه أن يغـش ويخـدع وينافـق ويضلـل ويقتنـص ويمـلأ جيوبـه تحـت رداء مـن الإصـلاح والخدمـة العامـة والجهـاد المتصـل لوجـه اللـه والوطـن»!! الـكل شركـة مسـاهمة «رأسـمالها ضمائـر وقلـوب ونفـوس في الوحـل» ولكـن حـزب الأمـة مـع ذلـك كلـه وهـم، وهـم كبـير ضخـم، متربـع في عقـول النـاس، جاثـم في نفوسـهم بقـوة وإصرار كمـرض مزمـن.

## ٢

تصميم بارع، خطة مدبرة، مدروسة بدقة وبعد نظر ولؤم أصيل، خطة هائلة ولدتها رأس محنكة كثيرة التجارب، أبرز ما فيها الإرادة الملحة، إرادة مجرمة، صلبة، أمامها غاية إما تبلغها فتقر ويتحقق الحلم وإما تفشل فتلجأ إلى مناورات وأبواب أخرى مدخرة، من عشر سنوات وعزيز أفندي العيوطي يسعى إلى تحقيق خطته هذه. كان كاتب محام بأجر زهيد، ستة جنيهات في الشهر. كان يقتر على نفسه فيحرمها الكثير ويعيش على الكفاف ويرضى بالقليل. يقطع عن فمه ليدخر قرشًا فوق قرش، جنيهًا فوق جنيه، عشرة، خمسين، مائة، مائتين، مائتين وخمسين جنيهًا. جنى عشر سنين طوال، عجاف، كان أثناءها يشتغل ويختلط بالناس ولا يدع فرصة تفوته دون أن يستغلها ويمتصها كديدان العلق، فحذق الغش والتزوير والإجرام وجعل شعاره «أنا فوق الجميع» استعداد وطبيعي في نفسه شحذه وأرهفه طول المران والتدريب، وقد خطر له خلال هذه السنين أن يدرس المحاماة فإنها عون على الشر في يد من خنق ضميره ووضعه تحت حذائه. أجل، بعد عشر سنين ظفر بمائتي وخمسين جنيهًا وشهادة محام في صدر مكتبه يصافحها كل داخل وبجعبة عميقة من الاختبارات الواسعة وأسباب الختل والمخادعة والاقتناص، خطته بسيطة وتبدو ساذجة لأول وهلة «ثروة ضخمة وجاه عريض، وصفة ممتازة في حزب الأمة، وكرسي وجيه في المجلس البلدي، أحلام أليس كذلك؟ ولكنها بالنسبة له ممكنات لا أثر للخيال فيها، وإلا فيا خيبة الأمل ويا ضياع التجارب

ويا خسارة ما أذهب من عمره في تلقي أصول الأجرام المحبوك... ثلاث سنوات بعد استقلاله في العمل و ممارسته المحاماة - كانت كافية لتعود عليه ببيارة واسعة (مائة وخمسون دونمًا) من أخصب الأراضي وأنداها، وثلاثة قصور فخمة لا يقل دخل الواحد منها عن مائتي جنيه في السنة. المسألة بسيطة ولكنها جريئة، انتزع البيارة دونما كد أو تعب، لقمة سائغة لم يجهد نفسه في تناولها وضعت في فمه وضعًا، توكل في قضية لرجل عليه ديون كثيرة له هذه البيارة، أراد مالكها أن ينقذها من الطامعين فيها فلم يجد آمن من محاميه فنقلها إلى اسمه فأنكرها المحامي بعد تسوية مشاكل موكله ولم يجد معه توسل أو تهديد فمات الرجل حزنًا وألمًا. الجريمة مزدوجة «مال حرام» وموت رجل لا ذنب له إلا ثقته بالمحامي الشريف، ولا سبيل للقضاء على المحامي هو مجرم ولكن لا سلطة للقانون عليه، أما القصور الثلاثة فمن ريع البيارة ودخلها السنوي، المسألة جريئة لا يقدم عليها إلا رجل محنك باعه طويل في الإجرام. السلطة والنفوذ والشرف والجاه والوجاهة والاحترام للمال فقط في هذه الأيام، كن مجرما فاتكًا، كن لصًا خطيرًا، مهما تكن.

حسبك أن تكون ذا مال وثروة لتكون مساوئك وعيوبك وإجرامك حسنات في نظر الناس، لك صدر المحل أين حللت والرأي السديد كيفما تحدثت والاحترام والتبجيل أين ذهبت والتلبية والطاعة والإذعان لأصغر إشارة تبدر منك.

كلهم أذناب وأتباع وحواشٍ! قد يكون الأستاذ عزيز العيوطي معذورًا

أو لعل وقائع الأيام وحوادثها تعطيه هذا العذر وتسوغ له الإقدام على الإجرام واللصوصية. لقد شاهد بأم عينه كيف تنهض القصور الباذخة على أنقاض البيوت الآمنة المطمئنة، وكيف يرتفع القناصون على أكتاف الغافلين، وكيف تكون ضربة قوية جبارة تسددها يد مجرمة صلبة إلى صدور الأمنين كافية لأن يصبح صاحب هذه اليد في لحظة واحدة فوق الجميع تنحني له الهامات، وها هو قد استطاع أن يسدد مثل هذه الضربة، فإذا كانت المصائب لا تأتي - كما يقولون - فرادى، فإن النعم والخيرات تأتي يزاحم بعضها بعضًا، وغدًا تتم له هذه الصفقة العظيمة، منذ شهرين دخل في عملية سمسرة كان هو رأسها، عشرة آلاف دونم، في الفضاء الشمالي، تمكن هو وأذنابه أن ينتزعوها من مواطنيهم بالدهاء والمكر واغراء المال ويقدموها لليهود بأثمان باهظة، خمسة آلاف من الجنيهات حظه من هذه الصفقة! عمل شهرين فقط، ولكنها جريمة الدهر، فلذة من قلب وطنه قدها قدًا وراح يساوم عليها كما يساوم على حذاء، ومع هذا كله فإن قدره يعلو في عيون الناس واسمه يرتفع حتى أصبح في صدور الصحف «الوجيه الكبير والمحامي القدير والوطني الفاضل الأستاذ عزيز العيوطي»

«الوجيه الكبير، والمحامي القدير هيه؟ ولكن متى يقولون الأستاذ عزيز العيوطي عضو المجلس البلدي وعضو هيئة حزب الأمة المركزية متى؟

أجابه صوت مجرم عميق في قرارة نفسه: «عما قريب. تأهب إنك من هدفك على قاب قوسين أو أدنى»

## ٣

الليل في الخارج رابض شديد الوطأة كأنما هو يضغط بقوى خفية سوداء، على الكون والإنسان، والفيلا الجميلة، الأنيقة المترفة راقدة وراء اشجار الحديقة، وليس ثمة ما يدل على اليقظة إلا نور ضئيل خافت، يخفق من بعيد خلال الأغصان الكثيفة، ينبعث من نافذة عريضة تطل على الحديقة، ولا صوت هناك إلا نقيق الضفادع المتصل، وهذه الأنغام ينفثها المعزف خافية، واهنة تارة، قوية متوفرة لها هدير وجيشان تارة أخرى، البهو العريض، ألبسه الذهب المختلس، وأضفت عليه اللصوصية المجرمة، رونقًا ورواء، بهو مترف، عريق، قائم على أكتاف طبقات شقية، محرومة، تكد وتكدح وتعيش على الضنى والحرمان لتقوم أمثال هذه القصور، منيفة، باذخة. جلس في ركن من هذا البهو رجلان يتناقض مظهرهما، أحدهما ناشف العود معروق كأنما اعتصرته يد قوية جبارة وقد غاص في مقعده الوثير العريض حتى لا يكاد يبين، والآخر سمين منتفخ حتى ليكاد يتفتق، كلاهما يدخن ويتعبب (الويسكي) ويصغي في شرود إلى هذه الألحان العذبة، الرخوة تند عن صدر (المعزف) وتتفلت من بين أنامل بضة، متراخية على العاج تمسه برفق وإشفاق فيئن ويشكو، ثم تضغط عليه بقسوة فيتمرد ويثور ويرسلها صيحات جائشة متموجة لها أصداء بعيدة

تـتردد في الخـارج. تنهـدت المـرأة وقامـت عـن المعـزف وقالـت وهـي تدنـو مـن الرجلـين:

«متعـب... أعنـي واضـع هـذا اللحـن. مـا هـي مزيـة هـذا التعقيـد، ومـا الفائـدة مـن مراكمـة الأنغـام بعضهـا فـوق بعـض مختلفـة، متباينـة، لـكأني بـه مخبـول، أليـس كذلـك!» وأطلقتهـا ضحكـة جريئـة توقـظ في البـدن رجفـات ورغبـات.

ولم يـدر الرجـلان، إلى أي منهـما السـؤال ولا مـا هـو المقصـود منـه فتململ السـمين وأجـاب ببلـه وارتبـاك «أ..أ.. صحيـح.. متعـب وثقيـل أيضًـا ثقيـل جـدًا... لقـد أتلـف لي أعصـابي»

«أعصابـك؟! تقـول أعصابـك، أوه وأيـن هـي؟» وردت لسـانها عـن الاسترسـال وأمسـكت مـا دار في ذهنهـا وبقـي هـذا المعنـى مكبوتًـا في نفسـها: كأن لـه أعصابًـا تحـت هـذا الشـحم...

ولكـن لا يليـق بهـا أن تصدمـه أو تخـزه بتهكمهـا المعـروف فإنـه بعـد كل شيء (رئيـس حـزب الأمـة) وصديـق زوجهـا الأسـتاذ عزيـز العيوطـي، هـذا الرجـل الضئيـل المعـروق الغائـص في مقعـده، ثـم إن رئيـس الحـزب يبـذل جهـده ليمهـد الطريـق لزوجهـا في انتخابـات المجلـس البلـدي القـادم، كـما أنـه سـيدخله حـزب الأمـة عضـوًا في الإدارة العليـا، كلا عـلى التحقيـق، فـإن الأفضـل مجاملتـه، بـل تدليلـه وملاطفتـه، تمامًـا كـما تفعـل مـع هرهـا العجـوز حـين تربـت لـه عـلى ظهـره و تدغـدغ لـه بدنـه، و تصـورت نفسـها في هـذه اللحظـة تمسـح بيدهـا عـلى صفحـة وجـه هـذا البديـن المتـورم، و

تفـرق لـه شـعره و تفليـه، فينتـشي ويـزوم وتتعـثر الكلـمات في فمـه، كطفـل يحبـو، فشـاع إشراق قريـر في أسـارير وجههـا ورفـت عـلى شـفتيها ابتسـامة حلـوة لهـذا الخاطـر، وجلسـت بقربـه تنفـذ مشـيئة زوجهـا. «جـلال بـك أنـت رجـل مدهـش، نشـاطك العظيـم، عملـك المتواصـل في الحـزب، جهـادك القـوي الجـريء عـن هـذه الأمـة المسـكينة، كل هـذا يدعـو إلى الإعجـاب والتقديـر»

فاهتز جلال بك واعتدل في جلسـته وقال في ارتباك:

«أوه. لا داعـي أ.. إلى الفخـر.. هـذا.. واجـب، وأقـل مـا يسـتطيع الإنسـان أن.. « فقاطعتـه بسرعـة بـأن أرخـت أناملهـا عـلى فمـه السـمين، بجـرأة وتحـكك قصـد إثارتـه وإيقـاد النـار في بدنـه وأردفـت تسـح:

«كلا... هـذا تواضـع... كمـن يريـد أن يحجـب الشـمس بكفـه، إني معجبـة، معجبـة جـدًا بـك، شـد مـا أثـارني خطابـك المنشـور في الصحـف والـذي ألقيتـه أمـس في دار الحـزب، لقـد تمثلتـك جليـلًا، منيفًـا، رجـلًا بأقـوى معـاني الكلمـة دعنـي أقـل الحقيقـة أنـت مثلنـا الأعـلى، أنـت قائدنـا.. أنـت.. أنـت كل شيء»

والتفتـت إلى زوجهـا: أليـس كذلـك؟ وكان الجـواب مهيئًـا عـلى طـرف لسـانه «لا شـك البتـة في ذلـك..»

وأراد جـلال بـك أن يقـول شـيئًا ولكـن ارتـج عليـه ولم يفتـح اللـه عليـه إلا بهـذه الكلـمات يرددهـا بغبـاء وبلـه «العفـو.. العفـو.. إني لا أسـتحق هـذا..

إني..أ.. أعني..» ولكنه ظل مأخوذًا.. بهذه النظرة الحنون المصوبة إليه.. ثم ابتسمت له وكسرت جفنها بإغراء... امرأة محنكة.. داهية.. تعرف كيف تخضع الرجل ليحني لها ظهره ويلقي قياده في يدها. نهض الأستاذ عزيز وقال معتذرًا، سأغيب لحظة.. أريد أن أبحث عن سند هام في مكتبي ومضى عنهما مرتاحًا وهو يردد في نفسه:

«قبلة مختلسة، ضمة سريعة، لمسات هنا وهناك، ثمن كرسي في المجلس البلدي وعضوية ممتازة في حزب الأمة... ما أبخس الثمن....»

## ٤

وحده في بهو الاستقبال بعد انصراف المهنئين وبين يديه جريدة الوطن يقرأ فيها للمرة المائة اسمه مكتوبًا بحروف ضخمة في صدر الصحيفة «فوز المحامي الكبير والوطني المخلص الأستاذ عزيز بك العيوطي في انتخابات المجلس البلدي» ثم افتتاحية طويلة تعدد مناقب العضو الجديد وتشدو بأخلاقه العالية ووطنيته العظيمة وعلمه الغزير ثم تختم نفاقها بهذه الكلمات:

«إننا حين نغتبط بفوز الأستاذ عزيز بك العيوطي إنما نلمح من وراء ذلك عهدًا جديدًا فيه قوة وإخلاص للمجلس البلدي! ولا نشك لحظة في أن هذه الأمة ستظفر من هذا كله بالخير العميم يعود عليها وعلى مصالحها، ولا نخالنا نفشي سرًا إذا قلنا إن حزب الأمة يهتم كثيرًا في ضم الأستاذ عزيز بك إلى هيئته العاملة ليخدم أمته في جهادها السياسي بما عرف عنه من قوه ونشاط وحزم وإخلاص».

وراحت حوادث الأسبوع الماضي تمر بمخيلته بصخبها وضجيجها وحركتها الفائرة. اجتماعات، خطب، مناشير، دعاية، ضمائر تباع وتشرى، لقد بذل كثيرًا.. لو لم تكن قبضة رئيس الحزب في ظهره تسنده وتشجعه وتدفعه دائمًا لانخذل وباء بالفشل فإن خصمه في منطقته قد بذل أيضًا مثلما بذل ولكنه لا يتكئ على دعامة ولا يسنده نفوذ.. وابتسم ابتسامة خبيثة وقحة، لقد تذكر أن لامرأته في هذا كله ضلعًا قويًا.. ماذا يهم.. إن الغاية تبرر الواسطة؛ هذه حكمة ذهبية معلقة في صدره.. ثم عاد ثانية إلى الصحيفة.. كلمة واحدة لها على قلبه مثل السحر: هذا اللقب الجديد «بك» سخت به عليه صحيفة الوطن، يا للنشوة! ما أعذب هذا اللحن، إنه ينحدر في نفسه رقيقًا، حلوًا، يخدر أعصابه ويشيع اللذة في اوصاله. «بك.. بك.. بك..» ألوف

الكلمات تتزاحم كلها وتستقر في تلافيف دماغه مشوشة، مختلطة، تصرخ بقوة عاتية» بيك.. وراح يضرب على الأرض بقدمه ضربات رتيبة منسجمة كأنما هو يتابع في ذهنه لحنًا شجيًا توقعه يد قديرة، بارعة، ثم تثاءب وتمطى وتجمعت اللذة كلها في حلقها وخياشيمه!

في هذه اللحظة دخل الخادم يعلن إليه قدوم رجل فقير يطلب مقابلته، لعله عامل، يبدو ذلك في هندامه وخشونة راحتيه ومعاني الضنى والشقاء على أسارير وجهه

- هل أدعه يدخل؟

- أوه كلا. اصرفه، فإنك ذكي.. قل له مثلا إني لست هنا؟

- ولكنه يصر... وهو يعلم أن سعادتك هنا

- كيف؟

- لقد أخبرته بذلك

- غبي، هذا أنت... أدخله

ما شأن هذا الرجل؟ إنه عامل أيضًا، ذبابة، حشرة تقذي العين المترفة، ما أحقر هؤلاء الناس ويطلبون أيضًا مقابلتنا والتحدث إلينا.. وانتفض الأستاذ عزيز بك العيوطي. متى يفهم هؤلاء أن لهم حدودًا ينبغي لهم أن يقفوا عندها؟

ودخل الرجل مرتبكًا يخشى أن يخدش السجاد الثمين بحذائه الضخم، وسلم باحترام زائد ووقف يتكلم وفي نفسه شعور غامض، خيل إليه أنه مضى يقول كأنما هو يستجدي:

«أنا والله مبسوط يا سعادة البك من يوم ما دخلت سعادتك البلدية، الله يديمك ويخليك، رضي الله يا بك.. كنت دايما بتمنى إنك تكون في البلدية علشان يكون لنا ضهر وصوت و...»

فقاطعه بفتور «ممنون يا حضرة... بس أنا مشغول وما عنديش وقت...»

- كلمة واحدة يا بيك، جاري الظالم عاوز يبيع الحوش اللى بين داري وداره وبيقول الحوش كان تابع لداره وأنا يا بك لما اشتريت

الـدار بمـالي وعـرق جبينـي وشـقاي طـول حيـاتي كنـت فاهـم الحـوش بينـي وبينـه مناصفـة.

- طيـب وانا اعملك ايش؟

- البلديـة هـي الـلى تفصـل في الموضـوع ولجـاري أصحـاب كثير يسـاعدوه وأنـا ماليـش إلا اللـه وأنت

- أنا...أنا ما دخلتش في الموضوع... رح شـفلك محامي

- محامـي! أنـا رجل فقير ومـا بحصلش إلا طعام عيالي يا بك

فنفـذ صـبر الأسـتاذ عزيـز وصعـد الـدم إلى رأسـه واهتـز بدنـه كلـه وصـاح بالرجـل:

- سـبحان اللـه! ما دخلتـش في الموضوع وبردك بتعود للكلام الفاضي

- لكـن يـا بـك لمـا كنـت تخطـب في الانتخابـات كنـت بتقـول إنـك عـاوز تسـاعدنا وتدافـع عنـا وتـداري مصالحنـا، كنـت بتحلـف وتشـهد اللـه علـلي في صـدرك وأنـا ضعيـف ومـا ليـش حـد يدافـع عنـي إلا اللـه وأنـت

فاحمـرت عينـا الأسـتاذ عزيـز وتشـنجت أعصابـه وارتعـدت أوصالـه كأن يـدًا قويـة لطمتـه عـلى وجهـه فأطـارت لـه عقلـه وصرخ بالرجـل:

- اخـرس يـا وسـخ، أنـت جـاي تحاكمنـي في بيتـي، أنـت مـين، واحـد حقـير، خـدام، حـشرة، اطلـع مـن بيتـي يـا حـمار أحسـن أكـسر رأسـك وأرميـك زي الكلـب... أنـت يـا محمـد، تعـال ارمـي هالتيـس بـره...»

ودخـل الخـادم يلهـث وأخـذ يدفـع الرجـل المسـكين وهـو يشـتمه ويلكـه إلى أن أخرجـه إلى الشـارع. كانـت الصدمـة عنيفـة قتلـت كل إرادة في الرجـل فانحلـت

أعصابـه وهـوى قلبـه ولم يعـد يسـتطيع أن ينطـق بـشيء فانكفـأ عائـدًا إلى بيتـه وهـو يحـس أن بينـه وبـين هـؤلاء الـذوات برزخًـا هائـلًا وأنـه قـدر عليـه هـو وأمثالـه أن يظلـوا أبـدًا تحـت مواطـئ نعالهـم.

***

وقـف أمـام المـرآة يتأمـل نفسـه في صقالهـا فتعكـس لـه المـرآة صـورة مـن نفسـه لم يألفهـا قبـل ذلـك في هـذه البذلـة السـوداء «سـموكنغ» والقميـص الأبيـض المقـوى والياقـة الصلبـة مثنيـة الطرفـين والحـذاء الأسـود اللامـع. يقـترب مـن المـرآة ويتفـرس بوجـه الهضيـم ثـم يبتعـد ويسـوي السـترة عـلى بدنـه ويرفـع البنطلـون قليـلًا ثـم يعطـي ظهـره للمـرآة ويلتفـت مـن اليمـين واليسـار ليتحقـق مـن جـمال قيافتـه وإحـكام البذلـة وانسـجامها عليـه. ثـم يجلـس تجـاه المـرآة ويصطنـع الوقـار باهتـمام كأن ثمـة إنسـانًا يخطـب في حضرتـه وبعـد برهـة صفـق تصفيقًـا خفيفًـا ثـم تنحنـح ونهـض بتثاقـل وحنـي رأسـه قليـلًا إلى اليمـين وإلى اليسـار كأنمـا يـرد بهـذه التحيـة عـلى المعجبـين مـن المصفقـين وراح يقـول بتـؤدة وجـلال «سـادتي إخـواني أشـكر لكـم هـذه الحفـاوة وهـذه العواطـف النبيلـة إلـخ إلـخ..»

وابتسـم لنفسـه ابتسـامة الرضـا والطمأنينـة ونظـر في سـاعته فـإذا هـي الثامنـة والنصـف مسـاء لم يبـق عـلى موعـد ذهابـه إلى دار حـزب الأمـة

إلا نصف ساعة ليشهد الحفلة التكريمية التي يقيمها له حزب الأمة ويعلن فيها رسميًا انتخابه عضوًا عاملًا في هيئته المركزية. دخلت عليه امرأته، مزينة، متبرجة، يفوح عطر مسكر من اردانها، ممشوقة القد، وضاءة المحيا، ترفل في ثوب حريري ثمين، امرأة ماهرة، خبيرة في صنعتها، يساعدها في ذلك ضرب من الفتنة العميقة المحيرة وهذا النداء الجنسي المفعم يند عن بدنها في إشعاعات شهوية حادة تقهر الرجل وتحيله عبدًا خاضعًا، اقتربت منه في دلال وقالت «ألا تقبلني أيها الرجل؟» فأجاب باهتمام «بدون شك... تعالي... هاتي بوسه» وتطاول إليها وطبع قبلة وقحة مقرقعة على هذا الخد وعلى هذا الخد ثم بلع ريقه وتمتم ببلاهة: ما أحلاك.. يا روحي.

قالت: ما رأيك بهذا الفستان؟

قال: ماذا؟

قالت: عشرة جنيهات ثمن هذا الفستان.

فغص وكاد يشرق بريقه وراح يردد في ذهول عشرة جنيهات... عشرة بالتمام والكمال أنت متأكدة أن الثمن عشرة جنيهات.

فاحتدت وصوبت إليه نظرة فاتكة وقالت باحتقار «عشرة جنيهات. تمامًا. يعني مش عاوز تدفع؟»

فأجـاب وقد انخلع قلبه:

- أوه! سـأدفع بالطبع إنما اعني...

فقالت بحدة:

- لا تعنِ شـيئا من فضلك.

فمـد يـده - صاغـرًا - إلى جيـب سـترته وأخـرج محفظتـه وتنـاول عـشرة جنيهـات وقدمهـا لهـا بـذل وخنـوع وهـو يقـول:

- لا داعـي للغضـب. لا تكـوني قاسـية، ابتسـمي، هكـذا، هـذا ادعـى للطمأنينـة.

ثـم أردف بعـد أن رآها قد فاءت إلى الرضا:

- سـتذهبين إلى عرس كريمة صديقنا حامد بك أليس كذلك؟ حسـن.

أخـشى عليـك الـبرد ضعـي معطفـك عـلى كتفيـك عنـد الخـروج. فأجابـت بإهـمال:

- «لا تخش شيئًا»

فودعها بقبلة وخرج إلى سـيارته لتمضي به إلى دار حزب الأمة.

***

تنهدت كمن زالت عن صدره غصة ونظرت في ساعة يدها وتمتمت «لا يلبث أن يأتي... ودنت من مرآتها وراحت تصلح من شأنها وتصفف شعرها وتضع قليلًا من الأبيض هنا وها هنا، وتمر بأصبع الأحمر على شفتيها لتزيدها فتنة وإغراء على التقبيل... وطاف ببهرة خيالها الرجل الذي تحبه، فبدا لها قويًا، جبارًا، بقامته المرتفعة وكتفيه العريضين وهذه الرجولة الصارخة تنبعث واضحة من لفتاته وحركاته... هو عامل حداد، قوي العضل، تكمن في ساعديه قوة عشرة رجال، وقارنته بزوجها، الرجل الهزيل المعروق ولاحت لها هذه الفكرة الوامضة:

«هذا قوي يبطش بماله ودهائه وقوته على الإجرام والفتك، وذاك بجسمه وصراحته وسذاجته فأيهما أفضل؟»

وأحست بحقد، بكره متأصل لزوجها واشتهت لو أنها تستطيع أن تصفعه صفعات متوالية وتركله ككلب قذر... ولكنها امرأة.. ولا قبل لها بالعيش الخشن والحياة العسيرة، وهذا العامل لا يمكنه أن يتيح لها مثل هذه الحياة الناعمة، المترفة التي تحياها في كنف هذا الزوج البغيض، إذن فلا ضير عليها. غريزتها تسوغ لها هذا، فلتنعم بهذه الحياة المترفة والجاه العريض وإن كان هذا كله قائمًا على الإجرام والفتك، ولتكسر من ناحية أخرى شره هذا البدن الفائر ولتشبع هذه الغريزة الصارخة الملحة في طلب الرجل الفحل في أحضان هذا العامل الشاب القوي يرقرق فيها الحياة وينضر عودها ويحيي شبابها.

كان الأستاذ عزيز بك العيوطي في الساعة الحادية عشر قبل منتصف

الليـل يـرد بخطـاب عـلى خطبـاء الحفلـة التكريميـة التـي أقيمـت لـه بمناسـبة انتخابـه عضـوًا عاملًا في هيئـة حـزب الأمـة العاملـة في حشـد كبـير مـن الـذوات ذوي البـذلات السـود والأقمصـة البيـض المقـواة والأحذيـة اللامعـة والأجسـام المتورمـة كان يقـول في هـذه اللحظـة:

«إن أثمـن مـا نعتـز بـه في هـذه الحيـاة هـو الـشرف. إني أعاهدكـم أيهـا السـادة أن يكـون عمـلي في الحـزب لخدمـة هـذه الأمـة المغلوبـة عـلى أمرهـا قائمًـا عـلى الـشرف والكرامـة، أجـل أيهـا السـادة إني....»

وفي هـذه اللحظـة نفسـها كانـت الفيـلا الأنيقـة والبيـارة الواسـعة والقصـور الثلاثـة والمـال المكـدس في المصـارف ثمـرة الإجـرام واللصوصيـة، والزوجـة في أحضـان العامـل الشـاب، كل أولئـك يشـهد بـأن حيـاة الأسـتاذ عزيـز بـك العيوطـي المحامـي القديـر والـثري الكبـير والوطنـي الفاضـل وعضـو المجلـس البلـدي وعضـو هيئـة حـزب الأمـة... سـخرية كبـيرة، مفضوحـة مـن أولهـا إلى آخرهـا!

# احتمالُ الحياةِ

خفتت الأنغام فجأة.. وغدت أنينًا ممزقًا وشكوى متوسلة مضنية.. ثم ماتت تحت أناملها في انتحاب بطيء فاجع.. وعم صمت مذهل - ومنذ برهة فقط، كان إشراق دافق وحياة نابضة مندفعة وموسيقى لها دوي وهدير. قامت في تراخ وفتور وعدم احتفال وألقت نظرة شاردة على البيان وهزت كتفيها في سخرية حانقة ولوت شفتيها في عصبيه مكبوتة ودارت في سرعة فجائية وقد عرتها اختلاجة ثم دلفت إلى صاحبها القابع في ركن قصي من هذا البهو الفسيح الجنبات - «يأس.. يأس ميت» ند هذا عن صدرها في آهة منهوكة ماتت على شفتيها، وأنهدت على أريكة بقرب صاحبها الذي يحلم وهو مفتوح العينين يقظان، الذي أضنته أعصابه لفرط ما استبدت به، وأشقاه حسه لفرط ما استدق واسترهف.

قال «لقد أردت هذا، فلا مرد لإراداتك» قالت «أردت ماذا؟»

قال هذا «اليأس ماذا بل هذا الموت أشاعته أنغامك، إني أشعر به يدب في روحي ويتفشى في جثماني هذا كثير أيتها الملكة! كثير أن تجودي بالحياة الفوارة الدافقة على عبيدك - أو على الأصح - على عبدك، فما لك عبد سواي، ثم تقذفين باليأس والموت لو صح أن هذا يقذف - إلى هذا القلب المؤمن بعدلك الخاضع لسطوتك، لسلطة جمالك القاهر، على الأرجح» قالت «وأن يكون هذا في لحظة من لحظات الزمن»، وضحكت عيناها، قال وهو مأخوذ «أي شيء هذه اللحظات كم وددت لو أن اكظ بها جيوبي وأملأ بها بيتي وأبعثرها في غرفاتي لتكون أبدًا تحت بصري وفي متناول حسي فما فاتتني لحظة

مـن تلـك اللحظـات إلا تمنيتهـا أن تكـون بعـض متاعـي أعنـي شـيئًا مثـل أصـص الزهـر أو هاتـه الآنيـة أزيـن بهـا مـا هـو عاطـل مـن كل زينـة خـال مـن كل وشي لتسـتجيش مـا ركـد في النفـس ورسـب في قـاع الوجـدان مـن فلـذات الذكـرى التـي انطـوى عليهـا الزمـن ومـضى.

قالـت «ويـأبى عقلـك المحـدود ألا أن يحـس مـا لا سـبيل إلى الإحسـاس بـه إلا عـلى المجـاز والتخيـل وإلا أن يقيـس مقيـاس المـادة العاجـز مـا لا يدركـه إلا التأمـل الطويـل المجـرد ومـا لا تصـل إليـه إلا الـروح المتشـوقة في سـبحاتها ومعـارج آبادهـا»

قـال: ومـا إصرارنـا عـلى تقطيـع الزمـن كـما هـو الواقـع إلى أجـزاء تختلـف طـولًا وقـصرًا وتتبايـن عمقًـا وضحولـة، ألا يكـون هـذا إقـرارًا منـا بالعجـز حيـال هـذا الزمـن وشـعورًا صادقًـا بأنـا ضائعـون في فجاجـه مغرقـون في عبابـه هالكـون في أغـواره وأنـا لذلـك نحـاول أن نسـتهدي ونسترشـد معـالم يقيمهـا هـذا الـذي نزعمـه عقـلًا والـذي يزعمـون أنـه يعمـر هـذا الخـواء القائـم بـين أكتافنـا؟

قالـت جـادة وقـد أدركـت ميـل صاحبهـا إلى العبـث والسـخرية: عـلى أنـه إن فاتنـا أن نـدرك الزمـن ونشـعر بـه فإنـا عـلى الأقـل نسـتطيع، أو عـلى الأصـح، اسـتطعنا أن نـدرك الحيـاة ونحـس بتيارهـا الأبـدي وآيـة ذلـك هـذا الـتراث الصخـم مـن الفنـون والآداب والعلـوم والفلسـفات جميعًـا، هـذا الـتراث مـا فتـئ يربـو ويتضخـم ويغمرنـا بطميـه وجشـيانه وسـيظل كذلـك إلى مـا لا نهايـة، أننـا مدينـون لعباقـرة الحيـاة إن أتاحـوا لنـا أن نحـس

بتيارها ونفتح صدورنا لأصدائها المتجاوبة الدوي، في سبيل اكتشاف مجاهل الحياة وتحليل رموزها وألغازها ضحى هؤلاء فمنهم من بلغ غايته ومنهم من أصابه الوهن والعياء في أول الطريق فانصرف إلى ما هو أجدى وأنفع له وأعود عليه بالفائدة ومنهم من كاد يدركها فانصرم حبل حياته من دونها فقضى وفي نفسه حسرات.

قال في رفق متحاشيًا أن يصدمها: يؤلمني ألا نتفق وأن يبلغ بنا الحديث حدا تثور معه الأعصاب، كيف نستطيع أن نفصل الحياة عن الزمن؟ تصوري هذا، تصوري أن الزمن شيء والحياة شيء آخر...

فإذا لم يخطئ فهمي فأنت تريدين أن تقولي إن الزمن أبدي غير محدود، بينما الحياة غير ذلك، مهما اتسعت وامتدت آفاقها فهي إلى انتهاء وهي محصورة في حدود نستطيع أن ندركها ونصل إليها - وهذا في اعتقادي خطأ إذ الحياة والزمن وحدة كاملة بحيث لا سبيل أن الإحساس بأحدهما منفصل عن الآخر.. ويكون أصح وأقرب إلى الصواب أن نكون نحن محمولين على لجج الحياة و الزمن تتقاذفنا وتهبط بنا إلى الأعماق والأغوار حينًا وتطفو بنا على السطح حينًا آخر... ونحن بين هذا وذاك لا نملك غير أن نطوي اكفنا على بعض ما نعثر به في هبوطنا إلى القاع من حجارة فيها الكريم النادر وفيها الرخيص المبتذل... وأن نأخذ الزبد الجافي في صعودنا إلى سطح اليم ونحن في كلا الحالين نعبث ونلهو فلن يستقر بنا التيار الجائح، وقد يركبنا الغرور أحيانًا فنزعم أن ما عثرنا به وقبضت عليه اكفنا هو بعض هذه الحياة وموجات من تيار الزمن.

قالت في كمد «ما أبشع أن نتصور هذا أعني أن نكون هكذا لا خطر لنا في محيط الحياة والزمن كما يحلو لك أن تتخيلهما ألا نحس بالفشل والإخفاق حيال هذا؟ كلا يا صاحبي أنا أرفض هذا ولا أريد أن أتخيله.. فإنه على ما يبدو لي فظيع وشبيه بالموت.. أننا نحيا حقًا ونشعر بالزمن والحياة حقًا وإذا تعذر علينا أن ندركهما تمام الإدراك فإن لدينا على الأقل ومضات خالدة وموجات حية منهما في الأعمال الإنسانية المجيدة. وأنا أستطيع أن أحيا الماضي - ماضي العصور والأجيال – في حاضري المحدود، كل هذا على ضوء هاته المخلفات التي تريد أن تجحدها وتنكرها» قال في إصرار: هو السأم والملال... وهي الرغبة في «احتمال الحياة» حيال ما ركز في إحساسنا من أننا سائرون إلى فناء محتوم.. وما هذه المخلفات من فنون وعلوم وفلسفات إلا أدوات نلهو بها كلما أحسسنا بالسأم يغشى وجودنا. أتذكرين بودلير؟ الشاعر السأمان؟ قد سجل في شعره الذي أطلق عليه هذا الاسم الصارخ «زهور الشر» هاته الأمواج الطاغية من الملال والسأم... لم يكن يدري ماذا عساه يعمل بحياته... وقد انتهى به التفكير إلى أن يذيب هذه الحياة في الكاس والطاس وفي أحضان البغايا.. وفي شعره الذي يتجاوب بأصداء اليأس والسأم...

قالت: «عنيد لا تريد أن تقنع هذا أنت.. وأية فائدة من حديثنا إن كنا لا تنتهي إلى رأي نأخذ به أو غاية نقف عندها.. ألا يحسن بنا أن نقصر» قال «وإذا كانت الإنسانية لم تنته إلى غاية معلومة ولم تدرك غرضًا معينًا في جهادها الطويل الشاق في أجيالها وعصورها

المتعاقبة فأحرى بنا نحن الضعيفين أن لا ننتهي إلى شيء» قالت «هذا لا ينفي كونك مكابرًا ترى الحق وتحجب عينيك براحتيك كي لا تراه» قال «ليس مكابرًا من يجيل بصره في نواحي نفسه ليتفهم أسرارها ويكتنه معانيها و يتقصى آفاقها... ولو تأملت نفسك منذ برهة وقد غشيتك موجة من اليأس والهلال فأفعمت بهوك هذا أنغامًا تشيع الموت في السامعيها بعد أن أطلقتها قبل ذلك صاخبة داوية لراعك ما كنت فيه... كنت إذ ذاك ذرة من هذه الإنسانية التي يعذبها السأم، والتي تجعل من رغبتها في احتمال الحياة فنونًا وآدابًا وفلسفة وعلومًا» قالت وقد فتنها صاحبها فاندفعت نحوه أنوثتها الظامئة «خذني بين ذراعيك يا رجلي.. لأنت خير من أدفع به سأم الحياة» قال «حسبي أن فزت من الحياة بك يا فاتنتي.. كم أنت آسرة في هذا الثوب البنفسجي الكامد، يحوطك هذا الجو المبهم من أضواء خافتة، وارائك من دمقس وعطور غريبة مسكرة وموسيقى مخدرة مميتة... وهذا القلب الخاشع»

(وكان ليل أعقبه نهار ...)

## السـعادة حق مطلق للجميع

الرسـالة الأولى: الخـير المطلق هـو القانون الطبيعي في آيين هذا الكون

الرسـالة الثانية: الثقافة وسـيلة من وسـائل الخير لمجتمع إنساني جديد

الرسـالة الثالثة: «لوي غيـوو» يمثل حدًّا فاصلًا بين ثقافتين

الرسـالة الرابعة: «جان جيونو» وعالمه الجديد

الرسـالة الخامسة: «أندريه ملرو» وتطورات العصر

## مطالعات

«أندريـه جيد» تحليـل ونقد - البحث عن الحقيقة

«موريـس ماترلينـك» - هل الموت أفضل من الحياة؟

«د. هـ. لورنـس» - ظاهـرة خطيرة في الثقافة الإنجليزيَّة

«كاثرين منسـفلر» الحياة كحقيقة وحلم

# السَّعادةُ حقٌّ مطلقٌ للجميعِ

**الرِّسالة الأولى**

# الخـير المطلق هو القانون الطَّبيعيّ في آيين هذا الكون

يـا رفيقـي، لا تقبـل الحيـاة التـي يفرضهـا عليـك النـاس، لا تهـن في إقنـاع نفسـك بـأن الحيـاة يمكـن أن تغـدو أجمـل وأروع، حياتـك وحيـاة الآخريـن، ليسـت تلـك الحيـاة الأخـرى التـي تعزينـا عـن حياتنـا الراهنـة وتعيننـا عـلى الرضـا بشـقائها وبؤسـها، لا تقبـل بذلـك مطلقًـا.

ويـوم تفهـم بـأن المسـؤول عـن هـذه الـشرور والآثـام جميعًـا لم يكـن اللـه قـط، بـل البـشر أنفسـهم، يومئـذ لـن تأخـذ نصيبـك منهـا، لا تضـح للأصنـام مطلقًـا بعـد اليـوم.

«أندريه جيد»

يا أخي

تلقيـت رسـالتك منـذ أسـابيع، رسـالتك الطويلـة المفعمـة، بعـد انقطـاع أخبـارك عنـي وبعـد أن نـأت بـك صروف الأيـام إلى هـذا البلـد البعيـد حيـث لا أهـل ولا أصدقـاء ولا قلـب عطـوف، كـما تقـول، وأني لألمـح مـرارة عميقـة في أكـثر مـن فقـرة في رسـالتك، هـذه الكلمـة مثـلًا «لقـد اصطلحـت عـلى نوائـب الدهـر، يـا أخـي، وجعلـت الأيـام وكدهـا أن تنتقـم منـي فشردتنـي وأحالـت حيـاتي بؤسًـا وشـقاء كلهـا، فـلا أكاد اسـتقر ولا أكاد أتلمـس معنـى

واضحًا لوجودي». هذه المعاني المريرة تنضح في رسالتك، وهذه الصور القاتمة تغلب على كل بارقة من بوارق الأمل في نفسك. ولقد شغلت ذهني رسالتك أيامًا طوالًا، لم يكن هذا إلا ارتداد في نفسك السبب في اضطرابي وانصراف ذهني إليك، ولم يكن هذا التشاؤم الفاجع مبعث الأسى في نفسي عليك، فكلنا شقي، يا أخي، وكلنا مضطرب، قلق، وكلنا يضيق صدره بآماله وأشواقه وأحلامه. وليس المقيم بين الأهل والأصدقاء بأسعد حالًا من الذي أيأسته الغربة وأمضه البعد، وليس المستقر بأنعم بالًا من الذي شردته الأيام فراح يضرب في مناكب الأرض باحثًا عن نفسه وإنسانيته، وعن رزقه، متلمسًا معنى واضحًا لوجوده. فلم تكن إذن هذه الصور القاتمة المبتسرة سبب ألمي لك وإشفاقي عليك، إنما هذه الحيرة الكئيبة يشي بها يأسك المرير في عدة أسئلة مثقلة بالألم العميق «لا أدري هل الشقاء والقهر سنة في الحياة، وهل الظلم قانون طبيعي في آيين هذا الكون؟ وما أثر الدين في هذا كله؟ هل فيه رحمة تطامن من حدة الشر وتكسر من شرة الألم وتفسح أمام القلب والعقل آفاقًا من الصفاء والطمأنينة يقران الروح النافرة ويسبغان على هذا الإنسان المعذب من معاني القوة والكمال والتسامي ما يعوضه و يعزيه عن هذا النقص الذي تضج به الحياة؟ يلوح لي — لا أستطيع أن أجزم —أن كثيرًا من الشك يجوس في صدري. هذا الشك يعذبني كثيرًا، يزيد في ألمي وشقائي - ثمة سؤال آخر لا أتبين تمامًا الصلة التي تربطه بما سبقه، أعني التاريخ، إنصاف التاريخ على الأصح، التاريخ أيضًا، يا أخي يفشلني كثيرًا، أردت أن أتلمح بوارق الإنصاف، أن أتلمس إشعاعات صادقة، مخلصة، هنا وهناك، ولكني

أخفقت. ليس لأني لم أجد هذه الذهنيات اللامعة العادلة، هذه القلوب الكبيرة، الخصبة، المنصفة. أخفقت بسبب التناقض الغريب الممض. ما أبرع كهنة الفكر والبحث، يا أخي، ما أبرع عبثهم بهذه الفضائل التي أصطلح عليها الناس، وما أشد لهوهم بها، تخيل لي أن هذا الذي ندعوه منطقًا خاضع خضوعًا عجيبًا لهذا التلاعب الفكري، وإلا فما قولك فيمن يجعل الحق باطلًا والباطل حقًا والقبح جمالًا والجمال قبحًا والشر عدلًا والعدل شرًا... إلى آخر هذه الحلقة المفرغة، أو كان لها آخر يعرف، أني أرتعد، يا أخي، حيال هذه الشوهات، أني أكاد أفقد ثقتي بإنسانيتي، بمعنى وجودي ووجود كل إنسان، إني ألمح الشر في كل شيء، الشر الطاغي، هل ما هو كائن حق؟ هل ما كان سيكون: لا أستطيع أن أتبين شيئًا وسط هذا الركام من الظلام».

هذه الفقرة من رسالتك أذهلتني، يا أخي، لقد أودعت في هذه الأسطر القليلة جماع ما كابدته الإنسانية وما زالت تكابده من شر عظيم، بل لقد جمعت في هذه الصيحة المريرة، خارجة تتلهب من أعماق الشك والحيرة في صدر إنسان معذب بآلام عديدة راكمتها العصور، ظلمات فوق ظلمات، ثم نصبتها صنمًا مرعبًا من الذل المقدس واللعنة الأبدية وهول الحرمان، جمعت فيها خلاصة ما شقيت في بحثه وتصويره والنقمة عليه عقول الجبابرة من المصلحين ذوي القلوب الكبيرة النادرة في تاريخ الإنسان العبد، ما أكثرها من محاولات فاشلة لتحرير هذا العبد الراسف في قيوده... حتى زمن قريب، لقد كدنا نيأس، يا أخي، كدنا نقول مثلك: «هل الشقاء والقهر سنة في الحياة، وهل الظلم

قانـون طبيعـي في آيـين هـذا الكـون؟» لـولا هـذه الحقيقـة المشرقـة ذات الوهـج الخاطـف تتـلألأ مـن بعيـد... هنـاك حيـث كان للـذل جـذور أصيلـة، مكينـة، في أعـماق الثلـوج، حيـت أقـام المهـر في كل قلـب قـبرًا عميقًـا، وشـوه الظلـم الفـادح الكيـان الإنسـاني، ومسـخ جـبروت العسـف الفضائـل جميعًـا، وأحـال الكبـت الفاجـع كل معنـى مـن معـاني وجـود الإنسـان لعنـة وقيـدًا. ومـن أعـماق هـذه الثلـوج انبثقـت الـشرارة الأولى، النـور الجديـد الطاهـر، ليقـر الإنسـان حقيقـة وجـوده، فينفـي الشـك المربـد بنـور اليقـين، ويقـضي عـلى الباطـل بقـوة الحـق، ويمحـق الـشر برحمـة الخـير، ويمحـو العـرض ليظـل الجوهـر نقيًـا أبـدي اللمعـان والوهـج... أليـس عجيبًـا ومدهشًـا وبالغًـا أقـصى معـاني الروعـة المهيبـة أن يخـرج الخـير العميـم مـن أحشـاء الـشر وأن تنفجـر الحيـاة النقيـة جائشـة تفـور مـن صميـم المـوت؟! يـا لهـا مـن روعـة إنسـانية خارقـة يخشـع لهـا القلـب، ويـا مـا اصفـاه جـمالًا يضفـر عـلى هامـات خالقيـه مـن الجبابـرة الانسـانين أكاليـل النـصر ويسـم جباههـم العريضـة المثخنـة بجـراح المـاضي ومآسـيه الفاجعـة، بميسـم النبـل والمجـد.

لم أعـد أشـتهي المـوت، يـا أخـي، لقـد وجـدت «إنسـانيتي» الضائعـة. اهتديـت إلى حقيقـة وجـودي ووجـود كل إنسـان، حقيقتنـا جميعًـا دون تمييـز، دون أي فـارق. حقيقتنـا الإنسـانية الكـبرى هـي في هـذه الكلمـة البسـيطة «السـعادة حـق مطلـق الجميـع».

لعلـك تريـد حججًـا وبراهـين عـلى هـذه الحقيقـة الواضحـة، أحقًـا تطلـب ذلـك؟ هـلا بـد مـن «كهانـة» منطقيـة لولبيـة لتقتنـع وتـرضي ويمحـى الشـك

مـن نفـس؟ ولكـن ألم تعـترف بـأن كثـيرًا مـن الحقائـق ضـاع أو غـرق في لجـة العـدم لفـرط مـا حـام حولـه المنطقيـون ونسـجوا عليـه مـن كهانهـم الخبيثـة حججًـا صفيقـة سـوداء؟ الحقائـق البسـيطة الكبـيرة ببسـاطتها وإنسـانيتها، لا يعوزهـا، يـا أخـي، الدليـل وليسـت تفتقـر إلى برهـان أو حجـة؛ لأنهـا ليسـت خيـالًا، ولا هـي بدعـة، ولا هـي ألعوبـة فكريـة، وهميـة، خرافيـة، لا بـد أن يعززهـا منطـق ويسـندها برهـان ويقـوم إلى جانبهـا دليـل وتسـند ضعفهـا وخورهـا شـعوذة جدليـة، هـذه الحقائـق هـي نفسـها منطـق وقـوة لأنهـا مـن منطـق الحيـاة وقوتهـا مـن جـمال قـوة الجوهـر الإنسـاني.

فليـس القهـر والشـقاء سـنة في الحيـاة. لـو كانـا كذلـك لظلـت تلـك البقعـة الثلجيـة النائيـة قـبرًا كبـيرًا مظلـمًا لمئـة وسـبعين مليـون إنسـان. ولكنهـا اليـوم دنيـا جديـدة تضـج بالحيـاة المفعمـة فرحًـا وسـعادة مطلقـة إذ انقـضى فيهـا يـوم الخليقـة الأول بـشروره وآثامـه، وأشرق عليهـا فجـر اليـوم الثـاني لميـلاد خليقـة جديـدة مطهـرة مـن أدران المـاضي وقـذارات العهـد الأول. وليـس الظلـم قانونًـا طبيعيًـا في آيـين هـذا الكـون. لـو كان كذلـك لقـضى الظلـم عـلى كل حيويـة ولرزحـت شـعوب وأمـم تحـت النـير وأمحـت مـن صفحـة الوجـود كتـل بشريـة تاعسـة، ولكنهـا تجمـع إلى تعاسـتها وآلام القهـر الفـادح المسـتبد بهـا الضاغـط عليهـا بأهـوال القـوى الاسـتبدادية الخارقـة، تجمـع إلى هـذا كلـه إرادة الحيـاة التـي لا يمكـن لأي ظلـم بالغًـا مـا بلـغ مـن عتـو وجـبروت أن يخمـد نارهـا الدائمـة التأجـج، هـذه الإرادة، إرادة الحيـاة، هـي دليلنـا الوحيـد، برهاننـا النزيـه الناصـع الـذي لا شـبهة فيـه مـن كهانـة خبيثـة أو منطـق لولبـي مذبـذب، إرادة الحيـاة هـذه هـي

التـي تنفـي الظلـم أن يكـون قاعـدة أو أصـلًا أو قانونًـا في حيـاة الإنسـان وآيـين هـذا الكـون - الظلـم في حيـاة الإنسـان، عـارض، مجـرد غيمـة سـوداء لا يمكـن أن تظـل أبـد الدهـر مخيمـة دون أن تنقشـع ويبددهـا إعصـار السـعادة المطلقـة التـي هـي القانـون في وجـود الإنسـان.

يخيـل إلي أني أرى سـؤالًا حائـرًا عـلى شـفتيك، يـا أخـي، لعلـك سـتقول: «وكيـف إذن يمكننـا أن نهمـل، أن نغـض النظـر عـن هـذا الشـقاء، عـن هـذا القهـر الـذي لازم الإنسـان في بـدء حياتـه عـلى الأرض واسـتمر ملازمًـا إيـاه في نشـوئه واسـتطراد نمـوه؟ «لعلـك سـتقول هـذا أو مـا إليـه بسـبيل. وقـد نجـد، بـل مـن المحقـق إنـك سـتجد مـن النـاس مـن يقـرك عـلى مـا تذهـب إليـه، بـل إنـك واجـد عنـد كهنـة الفكـر الأخـرق، عنـد مـن نصبتهـم الجهالـة أصنامًـا فارغـة عـلى عـروش مـن طـين حقـير، كلامًـا كثـيرًا مـرددًا آلاف المـرات معـادًا عـلى أشـكال وأنمـاط شـتى، كلامًـا فارغًـا أجـوف يقصـدون بـه تغريـرك وتضليلـك وأقناعـك بـأن الحيـاة لا خـير فيهـا يرجـى، وأنهـا تافهـة، حقـيرة، وأن معـدن الإنسـان غـير صـاف وغـير شريـف، وأن مـن العبـث تقليـب النظـر في هـذا الفسـاد الشـائع ومـن خـرق الـرأي صـد التيـار المتدفـق وأن الخـير كل الخـير في الانطـواء عـلى النفـس، والرجـوع إلى حـدود الـذات الفرديـة عـن التطلـع إلى أفـق الحيـاة الأرحـب حيـث لا يعـود الإنسـان بطائـل ولا يرجـع بفائـدة أو خـير، فالسـلامة أولى وإيثـار العافيـة أبقـى وأجـل ... هـؤلاء يـا أخـي، إمـا مغرضـون مهرجـون يضحـون بكرامتهـم ويضعونهـا تحـت أحذيتهـم ليكونـوا عونًـا عـلى جرائـم طوائـف مـن الذئـاب البشريـة الفاتكـة يهمهـا أن يعتـاد الإنسـان عبوديتـه

ويـرضى بالقهـر ويطامـن للـذل والألم لأن في ذلـك ضمانًـا لـدوام الاسـتغلال والامتصـاص أجيـالًا متعاقبـة... وإمـا أن يكونـوا بلهـاء أعجـز مـن يفتحـوا عيونهـم - عميـت عيونهـم - لـيروا الأشـياء تحـت ضوئهـا الصحيـح خاليـة مـن كل لبـس وزيـف.

إذن، يـا أخـي، لقـد طـاف الظلـم وشـاع الألم في حيـاة الإنسـان منـذ البـدء، كان الظلـم، القهـر عـلى الأصـح، عارضًـا، لكنـه اسـتقر وتمكـن وتوطـدت دعائمـه.

لعـل ذلـك كان لأخطـاء وحماقـات قديمـة موغلـة لا نتبينهـا اليـوم ولا يظهرنـا التاريـخ عليهـا؟ لا نـدري عـلى وجـه التحقيـق، ولكننـا لسـنا ننخـدع إلى حـد أن نتخـذ مـن اسـتقرار هـذا القهـر رابضًـا عـلى صـدر الإنسـان دليـلًا يعـزز الزعـم بـأن هـذا القهـر سـنة في الحيـاة والظلـم قانـون طبيعـي. إني أربـأ بـك أن تـرضى بذلـك وتقبلـه.

فليسـت العـبرة، يـا أخـي، في أن يطـول أمـد هـذا القهـر ويمتـد ليصبـح قانونًـا وسـنة. ولكـن المشـكلة هـي في هـذا السـؤال: «هـل في حيـز الممكـن والمعقـول أن تتغلـب قـوى الإنسـان الحـر عـلى هـذا القهـر فـترده وتقصيـه وتنتـصر عليـه؟» فـإذا كان هـذا كذلـك لم تعـد هنـاك مشـكلة ولم يعـد القهـر والألم سـنة وقانونًـا في آيـين هـذا الكـون. تمعـن، افتـح عينيـك وقلبـك، لعـل هـذا الإنسـان الـذي قهـر القهـر وانتـصر عـلى الظلـم قـد وجـد حقًـا ولعلـه حقـق حلمنـا وبـدد الشـك والحـيرة مـن نفوسـنا. ألا تـراه؟ هنـاك بـين الثلـوج، في أرض الميعـاد التـي كانـت يومًـا مـا مقـرًا للـذل والعبوديـة

ومستنقعًا لأوباء القهر والألم، ألا ترى قامته الجبارة، المنيفة، كيف نفضت عن كاهلها كابوس الظلم، ألا ترى كيف أشاع هذا الإنسان الجبار الخير العميم في كيانه كله؟ ألا تراه قائمًا يشبه جبابرة الأساطير حرر نفسه ولا يزال يعمل بقوة عاتية، مذهلة، ليحرر رفاقه جميعًا لتتم رسالته فيقر عينًا ويهنأ قلبًا؟ ثم ألا ترى، يا أخي، هنا وهناك كيف ينهض التاعسون الذين أذلهم القهر الطويل يقظين، يرفعون جباههم النقية عن مواطئ الأسياد ليصفعوهم ويحطموا أصنامهم ألا تراهم يزحفون، يا أخي، يستقبلون نور الحياة، يهزجون بأغاني السعادة المطلقة والمجد الإنساني الرائع؟ كيف يكون القهر سنة في الحياة بعد اليوم، وكيف يكون الظلم قانونًا طبيعيًا في آيين الكون بعد بوادر هذا النصر العظيم؟

***

وبعد، يا أخي، فإن اليأس أحيانًا يشفى بصائرنا فلا تعود لنا قدرة على التمييز والاستكناه. أكتب إليك هذا وملء قلبي وفكري خواطر وتأملات عديدة عما في صدر الإنسانية من ثراء وحب وطلب كمال مكبوت فما يكاد يجد ثغرة يتفلت منها حتى يظهر متعدد ألوان هذا الثراء نضرًا، حيًا، يتوهج في مختلف ألوان الفنون والإبداع الإنساني العظيم. الإنسان، يا أخي، غني لا حد لغني عواطفه وخياله وعقله وقلبه. وماذا عساك رأيت من هذا الثراء المدهش؟ وماذا عسى الإنسان يعرف عن قوة الأبداع والخلق الكامنة في أخيه الانسان؟

لا نعـرف إلا القليـل، القليـل النـادر. في قلـب كل إنسـان كنـز لا يفنـى مـن ومعـين لا ينضـب مـن قـوى الإبـداع، كل هـذا مـا يـزال مكبوتًـا وكل هـذا مـا يـزال تحـول دون إشراقـه سـدود مانعـة تتحطـم اليـوم قليـلًا قليـلًا إلى أن تـزول، قريبًـا. ولا يعـود ثمـة أي حاجـز بالغًـا مـا بلـغ يمنـع أن يعـرف الإنسـان أخـاه الإنسـان، وليفيـض مـن بعـد، مـن قـواه الإبداعيـة الخالقـة مـا يزيـد الحيـاة جـمالًا وبهـرًا ومـا يقنعنـا بـأن السـعادة والمسرة هـما سـنة الحيـاة وأن الخـير المطلـق هـو القانـون الطبيعـي في آيـين هـذا الكـون.

وإلى القريـب لنلتقـي في رسـالة ثانيـة، عنـد ناحيـة أخـرى مـن أسـئلتك العديـدة الحائـرة المثقلـة بـالألم العميـق.

**الرِّسالة الثَّانية**

# الثقافة وسيلة من وسائل الخير

## لمجتمع إنساني جديد

يا أخي

لقد وعدتك في رسالتي الأولى أن نلتقي ثانية في رسالة آتية، عند ناحية أخرى من أسئلتك العديدة الحائرة المثقلة بالألم العميق. وما كنت أدري يومئذٍ أنني سألقى من عنت الظروف واستبدادها ما يحول دون الإسراع إلى متابعة الكتابة إليك طالما أن ثمة حاجة إلى ذلك! «حاجة» ملحة ما دمت أنت بعيدًا، لا تجد في غربتك المؤسية صدرًا حنانًا تطرح عنده بعض همومك أو بعض ما يشجيك من «ألم النفس» وكثيرًا مما يؤرقك ويملأ صدرك قلقًا وحيرة يدفعان بك إلى الشك القوي حتى ليكاد أن يكون يأسًا مريرًا. وما كان لي - وأنت في مثل هذا الاضطراب الذي عرفناه جميعًا - أن أدعك إلى يأسك الشديد وحيرتك المريرة دون أن أحاول ردك إلى حال من الطمأنينة الواعية واليقين العميق، فقد إني حين كنت فيه بمثل حالك اليوم - وما أظن إلا أن كثيرًا من إخواننا الأحرار قد مروا في هذا الدور، وعلى هذا فإن لي من أسباب الاختبار والمعرفة - بعد عهد طويل من الحيرة والقلق وفقدان لدليل ما أشعر معه بأني لا شك سأنتهي إلى اعادة الصفاء والطمأنينة إلى وجدانك

القلـق، والإيمـان بحيـاة إنسـانية موفـورة الكرامـة نحـت خطانـا إليهـا اليـوم، ومجتمـع جديـد فيـه مـن فضائـل الخـير العميـم مـا يكـون عـزاء لنـا عـن كل شرور المـاضي وآثامـه الفادحـة.

أريـد اليـوم أن أقـف هونًـا مـا عنـد إشـارتك القويـة الوضـوح عـن قيمـة الثقافـة التـي سـادت حتـى اليـوم والسـائرة نحـو الانحـلال والتعفـن في رأينـا نحـن الذيـن نمـد بأبصارنـا إلى بعيـد نرقـب مجـيء ذلـك اليـوم القريـب الـذي يصبـح فيـه الإنسـان كامـل الحريـة والنقـاء والانعتـاق مـن قيـوده وأوضـار وموبقـات عهـد قديـم.

إن مـن حقـك، يـا أخـي، وحـق عـدد كبـير مـن شـبابنا العـربي الواقـف عنـد مفـترق الطـرق خطـوة واحـدة تميـل بـه إلى هنـا أو أخـرى تميـل بـه إلى هناك فتنزلـق بـه إلى مهـاوي الخـداع والمكـر لا سـيما ونحـن عـلى عتبـة انقلابـات عظيمـة، فاصلـة، في تاريـخ الإنسـان، فـإذا لم نكـن شـديدي الحـذر والفطنـة والتبـصر كان ذلـك سـببًا مبـاشرًا لمزيـد مـن التعاسـة والقهـر - أقـول إن مـن حقـك وحـق عـدد كبـير مـن شـبابنا العـربي أن يعـرف كثـيرًا عـن هـذه الثقافـة التـي تحتـضر اليـوم، وعـن ثقافـة أخـرى، ثقافـة مجتمعنـا الجديـد الآتي، الغنـي بـكل مـا هـو كامـل وجميـل وعظيـم الخـير.

ليسـت الثقافـة، يـا أخـي، عنـصرًا قائمًـا بذاتـه، مسـتقلًا بنفسـه اسـتقلالًا تامًـا عـن موحيـات ودوافـع المجتمـع ومـيراث هـذا المجتمـع مـن أخـلاق وأوضـاع ونظـم وسـائر القيـم التـي تحـدد علاقـة الفـرد بالمجتمـع. ومـن ثـم تحكـم المجتمـع بالفـرد وإخضاعـه اياه لمظاهـر قوتـه ولجملـة قوانينـه

الخلقيـة والروحيـة والماديـة. فـإذا لم تكـن الثقافـة صـدى حيًـا لهـذا كلـه أو قـل مظهـرًا خطـير الشـأن يعـبر عـن «إرادة هـذا المجتمـع» ويحمـل طابعـه ويصـور تياراتـه النفسـية، إذا لم تكـن الثقافـة هـذا العنـصر الفعـال وهـذا المظهـر الخطـير الشـأن، حـق لنـا ألا ندعوهـا ثقافـة، إذ أنهـا تصبـح حينئـذ شـيئًا تافهًـا، سـخيفًا لا معنـى لـه مطلقًـا. فـإذا أدركنـا، يـا أخـي، هـذه الحقيقـة البسـيطة «إن الثقافـة صـدى المجتمـع بـكل آمالـه وآلامـه وتشـوفاته العميقـة وأشـواقه الإنسـانية الكبـيرة اسـتطعنا بعـد ذلـك أن نفهـم ببسـاطة وسرعـة أن المجتمـع الإنسـاني لم يكـن في يـوم مـن الأيـام راكـد الحيـاة عـلى نسـق اسـتمراري واحـد لا يتغـير. أي أن هـذا المجتمـع كان دائمًـا خاضعًـا لعوامـل التطـور والتجـدد، دائمًـا مـن حـال سـيئة إلى أخـرى أقـل سـوءًا منهـا، مـن وضـع جائـر إلى آخـر أقـل جـورًا منـه... هـذا في نطـاق سـنة التطـور البطـيء، أمـا العوامـل الفاصلـة بـين مجتمـع قديـم وآخـر جديـد، جديـد بـكل شيء، مختلـف بـكل شيء عـما سـبقه. هـذه العوامـل لم تكـن البتـة خاضعـة للتطـور التدريجـي، بـل كانـت دائمًـا وليـدة ثـورة عاتيـة هـي الضربـة النهائيـة الفاصلـة تطـوح بمجتمـع قديـم اسـتنفد حياتـه كلهـا ولم يعـد في إمكانـه أن يسـتمر عـلى نسـقه المرسـوم، ليخـلي السـبيل لمجتمـع جديـد فيـه مـن القـوة والشـباب والخـير مـا يجـدد حيـاة الانسـان وينضرهـا ويفجـر فيهـا دفقـات غنيـة مـن دم فتـى حـار، ولا بـد مـن كلمـة عابـرة عـن طبيعـة الثـورات مـا دمنـا قـد قررنـا

إن الثـورة هـي الهـزة الجبـارة التـي تقلـب حيـاة مجتمـع بـأسره. إذن فأعلـم يـا أخـي أن الثـورات ليسـت عوامـل عارضـة هـي الأخـرى، ولا يمكـن أن تقـع

اعتباطا دون داع كبير ومسببات قاهرة، ومقدمات لا بد أن تفضي إليها آخر الأمر. وإذا أردنا أن نحدد معنى الثورة قلنا هي نهاية محتومة لجملة عوامل متمردة، ناقمة، في صميم مجتمع مشرف على نهايته، تتفاعل وتزداد اضطراما كلما ازدادت أسباب الطغيان والقهر في هذا المجتمع، إلى أن لا يعود ثمة متسع المزيد من هذا الطغيان فتأتي الثورة حينئذ كنهاية منطقية لكل هذا التفاعل المكبوت تأتي جائحة، مخيفة كإعصار رهيب فتدمر أركان المجتمع القديم تدميرًا هائلًا وقد تكون الثورات، في بعض الأحيان، في جنونها وعتوها مرعبة إلى حد لا يمكن أن يتصوره عقل، ولكنها تكون إذ ذاك كعنصر رهيب من عناصر الطبيعة الجبارة إذا ثار وتمرد لم يبق ولم يذر. غير أن العبرة في النتائج التي تنتهي إليها الثورة وهي كلما كانت قريبة من فضائل الخير والسمو وأسباب التكامل الإنساني، كان ذلك أكبر العزاء عن جبروتها الرهيب وعتوها المخيف ولا يجب أن نخدع بما أحب أن أدعوها الثورات الزائفة، فإن هذه الثورات خارجة عن نطاق ما قدمت لك. لأنها مفتعلة، كاذبة، لم تفجرها دواعٍ اجتماعية قاهرة ولا يمكن أن تنتهي إلى نجاح أو تؤدي إلى ما تؤدي إليه الثورة الصحيحة من أسباب الخير والكمال. وهذه الثورات الزائفة تضطلع بها أغلب الأحيان عناصر رجعية من بقايا مجتمع قديم لم يقض عليها فتظل تترقب فرصة سانحة لتنقلب شرًا يعرقل اطراد التقدم في مجتمع جديد. وعلى هذا القياس مثلًا يمكننا أن ننظر إلى ثورة الجنرال فرانكو في إسبانيا.

نجمل القول، يا أخي، ونقرر أن المجتمع الإنساني يسير دائمًا إلى أمام،

إذ لا تقبل سنة التطور الركود والاستمرار على نسق معين لا تتعداه، وإن الثورة من ثم هي الضربة النهائية الفاصلة، دائمًا، تطوح بمجتمع قديم استنفد حياته كلها ولم يعد في إمكانه أن يستمر على نسقه المرسوم، ليخلي السبيل لمجتمع جديد. فما شأن الثقافة إذن في هذا كله؟ هنا تتبين لنا أهمية الثقافة وخطرها البعيد والدور الذي تلعبه وأثرها الكبير في كل ذلك - دائمًا على اعتبار أنها «عنصر غير مستقل بذاته عن المجتمع». فماذا كانت الثقافة في العصور الإقطاعية؟ كانت مثلًا شعرًا وأدبًا وفلسفة، ولكن هذه كلها وما يدخل في نطاقها من مقومات الثقافة أي طابع كانت تحمل وبأي لون يمكننا أن نحددها وما هي موحياتها وأهدافها وأغراضها؟ يمكننا أن نقول على الفور إنها كانت ثقافة ملك أو أمير أو نبيل، ثقافة بلاط أو قصر أو حصن. أي ثقافة «طبقية» لمجتمع قائم، تخدم هذه الثقافة أغراضه، وتشدو بفضائله وتمجد صور البطولة فيه... اقرأ المخلفات الثقافية لتلك العصور وأحكم بعد ذلك، ألم يأتك خبر هؤلاء الشعراء، الطوافين، الذين كانوا يطرقون أبواب القصور هازجين بأشعارهم، متغنين بفضائل الملك منشدين مزامير تمجيد وتسبيح بهذا العز الضافي وذلك السؤدد المنيع... وهكذا من باب ملك إلى قصر أمير أو نبيل منشدين أبدًا، متغنين دائمًا بكل ما يبعث الزهو والفخر في صدور القابضين على زمام الحكم والسيطرة. ذاك في أوروبا، ثم دونك يا أخي كل هذا الشعر العربي الذي لم يكن هم ناظميه سوى المديح، مديح سلطان أو خليفة أو أمير أو حاكم بأمره أو بأمر مقيميه صنمًا مرعبًا للترويع والاهلاك... فما كل ذلك؟ أليس ثقافة مجتمع، ثقافة طبقة حاكمة

تجـزي أصحابهـا حفنـات مـن ذهـب يتألـق وتجـود عليهـم بيـدر المـال يقيـم أودهـم ويتيـح لهـم أن يتابعـوا عملهـم، وهـو عامـل كبـير في تعزيـز قـوة الطبقـة الحاكمـة، الفارضـة سـلطتها وإرادتهـا عـلى مـا دونهـا مـن طبقـات. وإن هـذه «الثقافـة الإقطاعيـة» ظلـت عبـدة رق للبـلاط أو القـصر حتـى في الوقـت الـذي أخـذ دبيـب اليقظـة يـسري في أوصالهـا «راسـين، كورنـاي، شكسـبير» هـل اسـتطاعوا أن يعيشـوا لحظـة واحـدة بعيديـن عـن حمايـة البـلاط إياهـم ورعايتـه لهـم، حتـى موليـير نفسـه، وهـو في رأينـا بـذرة تمـرد في ذلـك المجتمـع لم يكـن في طوقـه ولا في مقـدوره أن يتحـرر كل التحـرر. ولمـا أراد واحـد كفولتـير أو روسـو، مثـلًا - وهـما في اعتقادنـا مـع دريـدرو وجماعـة «الإنسـكلوببديين» نـذر انهيـار المجتمـع الإقطاعـي، أن يحيـد عـن الطريـق المرسـوم، شرد واضطهـد وكان سـيف النقمـة معلقًـا فـوق رأسـه يهـدده بالمـوت... إلى أن أثمـرت تعاليـم الطليعـة المتحـررة لمجتمـع جديـد. ومـا كان لهـا إلا أن تثمـر إلى أن غـدت بـذرة التمـرد بعـد الاختـمار والتفاعـل الطويلـين دوحـة باسـقة ذات جـذوع وفـروع، حينئـذ أتـت الثـورة تـضرب ضربتهـا النهائيـة، الفاصلـة بـين مجتمعـين، واحـد يحتـضر ويمـوت والآخـر يولـد قويًـا جبـارًا عـلى أنقـاض الأول يـرث الحكـم ويفـرض مبادئـه عـلى رأسـها إقـرار «حقـوق الانسـان» «حريـة. إخـاء. مسـاواة» بـدل «اسـتعباد، اسـتغلال. إقطـاع»، ولكـن يجـب ألا ننـسى، يـا أخـي، أن هـذا المجتمـع الجديـد أيضًـا طبقـي في صميمـه. أي إن مقاليـد الأمـور انتقلـت إلى الطبقـة الوسـطى والتـي نسـميها اليـوم البرجوازيـة بعـد أن أتخمـت وأرادت أن ترجـع القهقـرى لتعيـد سـيرة الإقطاعيـة البائـدة، وتحيـي عهدهـا وتجعـل ميـدان عملهـا فسـحات المعامـل والمصانـع، وهـذا في الواقـع هـو دليـل

تهرئها وانحلالها بعد أن حققت في السابق ألوانًا من الخير النسبي بعد أن دفعت الإنسان إلى أمام؛ من وضع اجتماعي متناه في الشر إلى وضع آخر أقل شرًا منه. ولا حاجة بي يا أخي أن أضع أصبعك على تعاليم مجتمعنا الإنساني الجديد الذي لم ينبثق فجره إلا على لهب ثورة هي الضربة النهائية، الفاصلة بين مجتمعين أحدها قد دخل في دور النزع والآخر قد ولد وهو آخذ سمته اليوم إلى استكمال أسباب نموه وقوته و ازدهاره رغم كل المحاولات الفاشلة لعرقلة سيره ورغم تكتل خصومه الألداء سواء كان هذا التكتل تحت ستار الفاشزم أو النازي أو خلافهما من هذه الفورات اليائسة والتي إن كنا نأسف لشيء فهو أسفنا لما قد تجره هذه الفورات المجنونة وهي سائرة نحو موتها المحقق، من ويلات حرب جديدة، تسم جباه مثيريها بميسم الخزي والعار.

والآن، يا أخي، بعد هذه اللمحة السريعة عن الحقيقة المنطقية للتطور الاجتماعي وعن أثر الثقافة في هذا كله، لا بد من نظرة إلى ثقافتين، ثقافة تفنى اليوم وتبيد مع فناء المجتمع الذي أوجدها وثقافة أخرى إعدادية تمهد الطريق أمام مجتمعنا الآتي المطلق الخير، المتكامل أسباب الجمال والسعادة المطلقة.

الحق أن ثقافة المجتمع البرجوازي منذ ميلادها حتى زمن غير بعيد، قد خطت خطوات واسعة ومدهشة، في ميادين الشعر والأدب والتاريخ والعلم، ولكنها لم تعن إلا بالإنسان الذي يعيش على هامش الحياة، الذي كل وقته فراغ وأحلام وترف وبلهنية أي أنها انكرت الحياة نفسها بكل مشكلاتها وأزماتها وآلامها ومحنها. أو بتعبير آخر «إنها أنكرت

الإنسان الذي طحنته أسباب الشقاء والإذلال والقهر - والذي هو في واقع الأمر - دائمًا أعمق شعورًا بإنسانيته من أي انسان آخر» ولا غرابة في ذلك فإنها ثقافة طبقة محدودة أتاحت لها سيطرتها الاقتصادية أن تتحكم تحكم بعيد المدى بهذه الثقافة وتوجها إلى حيث تشاء وحيث تملي عليها مصالحها الطبقية أن تفرض على الثقافة الروح الذي تريد وتلونها باللون الذي تحب وتقييم لها الحدود والمعالم التي تستقيم بها أغراض هذه الطبقة اجتماعية كانت أو سياسية أو اقتصادية. وإذا كانت الثقافة في القرون الوسطى ثقافة قصر أو ملك مجنون أو أمير أحمق فإنها اليوم ثقافة تقوم في حمى المصارف العظيمة و «التروستات» الهائلة والشركات الاحتكارية والتوسع الاستعماري المجنون... وكل ما من شأنه أن يذل «الإنسان» ويزيد في مهانته.

وقبل أن تتخذ هذه الثقافة لونها الأخير الذي انتهت إليه في أيامنا هذه، فقد مرت من قبل في أدوار مختلفة كل منها يلائم تطور المجتمع «البرجوازي» ويتسق وإياه سواء كان ذلك مباشرة بعد انقضاء عهد الإقطاع أو فيما يليه من عصور نستطيع أن نحددها بظواهر فكرية معروفة فهي مثلًا إنشائية،إبداعية مثالية، أبطالها أنصاف آلهة أو أنصاف شياطين تحركهم دائمًا عواطف و شهوات كبيرة خارجة دائمًا عن نطاق الحياة تتفاعل وتتصادم على هامشها و بمعزل عن مشكلاتها وأزماتها الأصيلة، وتتضاءل من ثم مفتقدة آلهتها وشياطينها وتكتفي بتصوير عوارض مرضية على أيدي الرومنطيقيين منتهية بذلك إلى إقرار المذاهب التشاؤمية ابتداء من شوبنهور وإضرابه حتى تصل إلى نيتشه

الـذي وجـد فيـه الطمـوح البرجـوازي ضالتـه وذلـك بدعوتـه إلى الإنسـان القـوي البطـل. ولكـن هـذا الطمـوح ظـل يتضـاءل وهـذا التشـوف ينهـزم إلى إن انتهـى في أيامنـا إلى الاكتفـاء بهتلـر وهـو مخلـوق شـاذ وغـير طبيعـي في الواقـع.

ولم تأخـذ هـذه الثقافـة لونًـا جديـدًا إلا في القـرن التاسـع عـشر أي عهـد الانتقـال إلى الـدور الصناعـي، حينئـذ ظهـرت حركـة انتعـاش غـير معهـودة في هـذه الثقافـة غـير أنهـا في الواقـع كانـت بـذرة تمـرد ونذيـر شر عـلى مجتمعهـا، انتهـت بـأن تكـون حركـة خارجـة عـما عـرف حتـى ذلـك الوقـت مـن المذاهـب الفكريـة عـلى أيـدي بلـزاك وفلوبـير وزولا ودوستويفسـكي وتولسـتوي في أعقـاب القـرن التاسـع عـشر. ونسـتطيع أن نحـدد هـذا اللـون الجديـد في الثقافـة البرجوازيـة، عـلى اعتبـار أنـه بـذرة تمـرد ونذيـر ثـورة، بأنـه أخـذ يهتـم اهتمامًـا جديًـا بالإنسـان مـن حيـث هـو مجموعـة غرائـز متخبطـة وميـول معقـدة كثـيرة التفاعـل، مخيفـة مرعبـة في فوضاهـا و تشوشـها، غـير أنهـا في أغلـب الأحيـان غـير منفصلـة عـن مجتمعهـا، وثيقـة الصلـة بمـا يضـج بـه هـذا المجتمـع مـن خـير وشر، مـن تشـوف وسـمو واسـفاف وتـردي، بـل أنهـا في أغلـب الأحيـان أيضًـا صرعـى هـذا المجتمـع بقوانينـه وأنظمتـه وأخلاقـه وأوضاعـه، أي أن هـذا المجتمـع يتحمـل مسـؤولية كبـيرة مـن تعاسـتها وشـقائها، وعليـه تقـع تبعـة إجرامهـا وجنونهـا.

بينـما كان الأدب يأخـذ هـذا الاتجـاه عـلى هـدى ضمائـر إنسـانية واعيـة، خـيرة، كانـت تعاليـم المجتمـع الجديـد - مـن ناحيـة أخـرى - توضـع في

قـوة ووضـوح عـلى نـور العقـل وهـدى العلـم وعـلى ضـوء آلام الإنسـان وعذاباتـه الماضيـة وبـكل مـا ضجـت بـه الحيـاة مـن ذل وقهـر وطغيـان. أحدثـت هـذه التعاليـم هـزة عنيفـة في صميـم المجتمـع البرجـوازي وفتحـت العيـون عـلى حقائـق مجهولـة وأمـور خافيـة، و أماطـت اللثـام بقـوة وجـبروت عـن أسـاليب الخـداع والمكـر والاسـتغلال في قلـب هـذا المجتمـع، ثـم رسـمت مـن بعـد معـالم الطريـق السـوي للمجتمـع الآتي الـذي لا ينتقـل إليـه الإنسـان مـن حـال سـيئة إلى حـال أقـل سـوءًا منهـا بـل يكـون الحـد الفاصـل بـين كل مـا شـوه الحيـاة مـن شر فـادح ومـآسي فاجعـة وبـين حيـاة جديـدة، مطهـرة، بالغـة مـن السـمو والرفعـة والكـمال حـدًا لم يكـن ليتصـوره حتـى أصحـاب الـرؤى العظيمـة، الرائعـة، مـن الحكـماء الأقدمـين.

كانـت النفـوس قـد تهيـأت، وزاد الوعـي عنـد الجماهـير الكادحـة، المغلوبـة عـلى أمرهـا، وغـدا المجتمـع القائـم مهـددًا مـن نـواح عديـدة، ونـذر الانهيـار قـد لاحـت في الأفـق تقلـق نفـوس ممتـصي دمـاء الإنسـان ومشـوهي وجـه الإنسـانية، ولكـن ذلـك كلـه لم يكـن ليبـدو واضحًـا تمـام الوضوح، كان مشـوبا بـشيء كثـير مـن الإبهـام والغمـوض، فـإن الثقـة بأوضـاع هـذا المجتمـع كانـت لم تـزل موجـودة، وكان حسـن الظـن رغـم القلـق مـا يـزال لم تفقـده النفـوس بعـد. والانصيـاع لدواعـي التمـرد كان عسـير المنـال... ولكـن المسـافة بـين الاسـتكانة والتطامـن وبـين التمـرد والثـورة لم تكـن بعيـدة. كل ذلـك كان في انتظـار تجربـة نهائيـة ليتضـح كل شيء وتبـدو حقائـق هـذا المجتمـع عاريـة، سـافرة، كلهـا دلائـل اتهـام صـارخ عـلى التلبـس بالجريمـة. كانـت الحـرب الكـبرى هـي التجربـة النهائيـة التـي وضحـت بعدهـا مؤامـرات

القابضين على مقاليد هذا المجتمع. كان التغرير والتضليل كان الخداع والنفاق كان التطويح بملايين الشباب في أتون هذه المجزرة المرعبة لمصلحة أرباب المال والمصانع ودعاة الاستعمار ونخاسة الشعوب.

كان ذلك كله مستترًا وراء بضعة مثل عليا هزيلة، تغريري، لم تلبث حتى افتضحت وأميط اللثام عن حقيقتها فكان من أثر ذلك ما شهدناه بعد هذه الحرب من انهيار القيم الخلقية لهذا المجتمع، وفقدان الثقة بكل مثله وأوضاعه، وقيام مجتمع جديد في تلك الأصقاع الثلجية النائية، يعد القاعدة الراسخة لما سيكون عليه المجتمع الإنساني جميعًا من خير وسمو وكمال.

على هذا الضوء. يا أخي، نستطيع أن نقول واثقين أن ثقافة المجتمع البرجوازي قد انتهت في آخر أمرها أن تكون أداة شر عظيم إذ كانت سببًا من الأسباب القوية، الفعالة، التي أدت إلى إثارة هذه الحرب الاستعمارية وذلك بأن نزل أربابها عن عروشهم ليخاطبوا الجماهير- المهملة قبل ذلك المقصودة تعاستها المدبر إفقارها وأسباب إذلالها وتجهيلها في حالة الدعة والسلم - نزل هؤلاء الشرفاء عن عروشهم ليشدوا أمام هذه الجماهير المشدوهة بفضائل التضحية والدفاع عن الوطن وعبء الرجل الأبيض وبما في الحرب من بطولة خارقة تسم الشعوب، القادرة على أن تجابهها بشجاعة، بميسم النبل والمجد حتى إذا انتهت هذه المجزرة إلى ما انتهت إليه من شر فادح، عادت هذه الثقافة إلى حظيرة مجتمعها، مزهوة، نشوى؛ تتملق غرائز أسيادها وتصف لهم حياتهم أجمل وصف وأفتنه يرضي غروره ويزيدهم شعورًا

بهذا الترف الذي ينعمون به ويضاعف لهم اللذة بأسباب هذه الحياة الباذخة التي يحيون والتي يبذلون الكثير لمن يشدو بها ويمجدها ويزيدهم إحساسًا بمفاتنها وضروب السحر فيها. وبذلك تكون هذه الثقافة قد وصلت إلى نهاية الطريق، منحدرة بانحدار مجتمعها من أعلى القمة إلى أعماق مستنقع تعفنها وانحلالها لأن ثقافتنا الجديدة قدمت بسرعة عظيمة واستوت جبارة رائعة في إنسانيتها العميقة، ورسالة الخير المطلق التي تحملها في تضاعيفها. بل إنها اليوم لتعيد الثقة القوية إلى النفوس التي أيأسها كل ما نجت به الحياة من ألم وقهر، والتي نتطلع في بحران ألمها وحيرتها إلى مصير سعيد بعد كل هذه التعاسة الفاجعة.

إننا نشهد اليوم، يا أخي، احتضار مجتمع متعفن وثقافة خائرة، متهالكة لم يعد لها - وهي في سبيلها إلى الموت المحتم - إلا أن تضج حول أسطورة خرافية سخيفة جعلوا لها قدمين من غش ونفاق تقوم عليها ليكون لهذه الأسطورة أثر فعال، فيما يتوهون، في صرف الأذهان عن حقائق الحياة الشقية التي يحياها الإنسان الفريسة - والتي يجاهد جهاد الجبابرة للقضاء على أسبابها ومسبيها - إلى أوهام وأضاليل سرابية. هذه الخرافة اسمها في معجم خداعهم ومكرهم (الفن للفن) شد ما ينسجون حولها وشد ما يضجون بها وما أعجب ما يتنسكون ختلا في هيكلها الموهوم. إنهم جعلوا منها صنمًا مقدسًا ذا غضبات ولعنات. ولكننا نحن أبناء هذا الجيل القلق على مصيره وحياته وسعادته قد بلغنا حدًّا من الوعي الوجداني بتنا معه لا نخدع

بسـهولة - ولا حتـى بكثـير مـن إتقـان أسـباب الخـداع والتضليـل؛ ذلـك لفـرط تيقظنـا، لشـدة مـا تلمسـنا مـن صـور الشـقاء والتعاسـة في أنفسـنا وفيـما حولنـا؛ لفـرط مـا خدعنـا أصبحنـا ولا سـبيل إلى خداعنـا البتـة.

هـذه حقائـق، يـا أخـي، عديـدون منـا الذيـن يفهمونهـا، وعظيـم كذلـك عـدد شـبابنا العـرب الواقفـين عنـد مفـترق الطـرق والذيـن ينبغـي لنـا ألا ندعـم في حالـة نفسـية قـد تـؤدي بهـم إلى الهـلاك في مثـل هـذا الظـرف الحـرج الـذي نعيـش في ظلـه والـذي يحمـل كل يـوم نـذر الانهيـار السريـع يهـدد المجتمـع البـالي وريـث الإقطاعيـة والـذي يحـاول أن يعيـد سـيرتها عـلى شـكل أشـد هـولًا وشرًا وسـط بحرانـه ودواعـي انهيـاره السريـع.

إن الغـد يحمـل إلينـا مـع شـدائده وأهوالـه نـصرًا حاسـمًا تتشـوف إليـه اليـوم إنسـانية بأسرهـا مـن صميـم الآمهـا وعذاباتهـا الماضيـة وتجعـل مـن إرادتهـا الجبـارة في تقريـر مصيرهـا ضـمان تحقيقـه. وإن ثقافتنـا الجديـدة، وهـي وارثـة كل مـا هـو إنسـاني وخـير وجميـل في نقائـه وحيويتـه مـن ثقافـات المـاضي والتـي تفهـم الفـن وأسـباب الأبـداع جميعًـا عـلى خـير وجوههـا - ثقافتنـا هـذه تعمـل اليـوم بقـوة خارقـة، دائمًـا عـلى اعتبـار أنهـا وسـيلة مـن وسـائل الخـير لمجتمـع انسـاني جديـد - لمجـيء هـذا اليـوم القريـب الـذي يعـزز كرامـة الإنسـان ويتيـح لـه أن يجـد المتسـع الـكافي والأسـباب المهيـأة ليرتفـع بإنسـانيته إلى غايـة السـمو والكـمال.

## على هامش الرسالة الثانية

يا أخي

تسألني في كلمتك المقتضبة التي بعثت بها إليّ - على عجل- فور قراءتك رسالتي الثانية، عن ثقافتنا العربية ولماذا لم أتناولها في كثير أو قليل من البحث، ثم تتساءل أيكون ذلك إهمالا مقصودا مني أم سهوًا ونسيانًا سببهما أني كنت مأخوذًا ببحثي إلى حد صرف ذهني عن ثقافتنا العربية وحق هذه الثقافة في التفاتة قوية تحدد مزاياها وفضائلها على ضوء إدراكنا الجديد - وتقيم لها الحدود والمعالم في مختلف الأدوار التي مرت بها. ثم تختمها قائلًا «أما أثر رسالتك هذه في نفسي فبحسبك أن تعلم أنها كانت لي كالشعاع الهادي وسط ركام هائل من الظلام».

أما إني استطعت أن أرد إلى نفسك القلقة قليلًا من الهدوء والطمأنينة والصفاء فإن هذا حقًا لمن دواعي الغبطة لي أني تمكنت أن أنفذ إلى قلبك الكبير، الكبير بنقاء جوهره الكريم. وإني اليوم، يا أخي، لأشد شعورًا مني في أي يوم آخر بحاجتنا إلى كثير من الإخلاص في قول الحق، هذا الإخلاص، الذي يوجه جيلنا الجديد نحو السداد ويرشده إلى الطريق السوي والذي نفتقده اليوم وسط كثير من الزيف والضجيج التهريجي العجيب.

وأما عن تساؤلك فيما يتعلق بثقافتنا العربية فأني أربأ بك أن تظن بي الإهمال والنسيان. ولكنني كنت أشعر وأنا أكتب إليك يومئذ إني

إنما أنظر إلى الثقافة الإنسانية إجمالًا وأن هذا الذي قررته في كثير من الوضوح - على ضوء تعاليمنا الجديدة - منطبق ضمنًا على ثقافتنا العربية ومجتمعنا العربي مع قليل أو كثير من الاختلاف السطحي وتباين المقومات الشخصية لكل أمة ودواعي الظروف والبيئة. وما أريد في رسالتي هذه أن أقف طويلًا عند ثقافتنا العربية فإن هذا يحتاج إلى بحث طويل لا تتسع له هذه الرسائل التي أعرض فيها لبعض الحقائق الفكرية عرضًا تخطيطيًا هو نفسه بحاجة إلى المراجعة والتركيز... وما القصد منه إلا التنبيه ولفت الأذهان.

ثقافتنا العربية، يا أخي، على ما فيها من تخليط كثير وما يمازجها من توافه لا قيمة لها البتة، وذلك شأن كل ثقافة ثقافتنا هذه لم تكن لتشذ يومًا من الأيام عما قدمت لك في رسالتي السابقة. إنها حتى اليوم ثقافة طبقية أي ثقافة مجتمع قائم، إليه مقاليد الأمور وأسباب الحكم والسيطرة. يوم كان المجتمع العربي بدائيًا، ساذجًا، جاهليًا، كانت ثقافته - ولم تكن شيئا غير الشعر - صدى لكل هذا، تمتاز بضرب فاتن من الصدق والبساطة وروعة الإحساس المباشر، الملهوف، يتفاعل فيه تفاعلًا سطحيًا ضجيج عاطفي هو في الواقع رجع صدى الحياة العقلية البدائية، الساذجة، لذلك المجتمع. ولكن هذا الشعر يردد مع ذلك صدى نفسية هذا المجتمع الجاهلي القائمة على الغزو والكفاح مما تعرف ومما يحدثك به الشعر الجاهلي من ألوان الحماسة والفخر والاعتزاز وما إلى ذلك مما كانت تستدعيه ظروف الحياة العربية إذ

ذاك ودواعيها، ومما لا تبعث عليه إلا أسباب هذه الحياة المغامرة، في ظل البداوة الخشنة.

وإذا تتبعت تطور الثقافة العربية من ثم وجدها تساير التطور الاجتماعي، تؤثر فيه ويؤثر فيها. فهي في الإسلام -وهو في رأينا من الناحية الاجتماعية ثورة عظيمة، رائعة، أسفرت عن مجتمع عربي جديد بكل مثله العليا، وقيمه الخلقية والروحية وأوضاعه الخاصة - أقول إذا تتبعت تطور الثقافة العربية من ثم وجدتها في صدر الإسلام مثلًا مؤمنة عميقة الإيمان، تعمل في وهجه عملًا بطوليًا خارقًا، ثم هي بعد ذلك، فيما تعلم من ألوان الصراع الاجتماعي، والموجات التمردية والانتفاضات الثورية، صدى يردد بقوة وجبروت جلجلاتها الراعدة حتى إذا استقرت الأمور وراحت الحياة العربية تأخذ بأسباب الاتساق والتطامن لأوضاع اجتماعية جديدة تغاير ما عرفت في حال البداوة الساذجة، دفعها إليها الإسلام وفتوحاته العظيمة، ثم اتصالها بأسباب الحضارة؛ وغدت عاملًا كبير الشأن من عواملها، حينئذ شرعت الثقافية العربية تخرج عن كونها شعرًا فحسب، وتدخل عالمًا جديدًا يلائم حياتها الجديدة فيزدهر فيها النثر وتعنى بالفلسفة والعلوم ويبدو نشاطها قويًا لماعًا في سائر نواحي الجهود العقلية ولكنها تظل إلى ذلك ثقافة الطبقة الحاكمة دائمًا تستظل بفيها وتخدم أغراضها ولا تتحرج عن تملقها تملقًا يفوق كل حد، تضج به دواوين الشعر ضجيجًا سخيفًا - وهذا هو التفسير الصحيح في اعتقادنا لكل هذا المديح الذي يكاد يطغي على كل ما عداه والذي كان من أره أنه يلوي بأعناقنا عن

هـذه المخلفـات المهلهلـة ويغنـي نفوسـنا حتـى لنـكاد نتقيـأ.

وتظـل الثقافـة العربيـة تنمـو وتتسـع آفاقهـا، وتصعـد إلى قمـة مجدهـا بقدمـي جبـار طالمـا أن المجتمـع العـربي نفسـه لا ينـي يسـير بقـوة واعتـداد نحـو أهدافـه العليـا. حتـى رأينـا الإسـلام يبسـط ظلـه عـلى القاهـرة وبغـداد والشـام والأندلـس و بـلاد فـارس، فتنتفـع الثقافـة العربيـة بهـذا كلـه وتفيـد منـه إلى حـد بعيـد، وتبسـط ظلهـا هـي الأخـرى عـلى هـذه الآفـاق الواسـعة وتمتـزج بهـا عنـاصر جديـدة تزيدهـا حيويـة وازدهـارًا تحدثـك عنهـا بغـداد والقاهـرة والشـام والأندلـس، حتـى أصبـح الباحـث يسـتطيع أن يحـدد بسـهولة ألـوان هـذه الثقافـة ويقيـم لهـا معالمهـا، ولا اخالـك تجهـل مـا بلغتـه الثقافـة العربيـة في العـصر العبـاسي أو الأمـوي مثـلا مـن ازدهـار وتألـق وقـوة، كـما أننـا لا نذكـر ثقافتنـا العربيـة إلا وذكرنـا معهـا عهـد الأندلـس الذهبـي الـذي أشرقـت فيـه الثقافـة العربيـة إشراقًا لا مزيـد عليـه فأفـاض مـن نـوره، عـلى أوروبـا المتخبطـة في ظلـمات قرونهـا الوسـطى، مـا لا يـزال أثـره قائمًـا حتـى اليـوم. حتـى إذا تلـكأت الحيـاة العربيـة واخلـدت إلى الـترف والبـذخ ارتمـت في أحضـان اللهـو بعـد كل هـذا المجـد، وراحـت تعـب مـن متـاع العيـش وأفيـون اللـذة المغرقـة، كان ذلـك إيذانـا ببـوادر انحـلال المجتمـع القائـم وانحـدار ثقافتـه مـن أعـلى القمـة، وهـذا مـا شـهده التاريـخ في كل مجتمـع، أي أن الانحـدار يبـدأ دائمًـا مـن الناحيـة الرخـوة، المتهرئـة، ولا يجـب أن يغـرب عـن بالنـا، يـا أخـي، أن ثقافتنـا العربيـة قـد عرفـت هـي الأخـرى خمائـر تمـرد في مختلـف أدوارهـا وتطوراتهـا. ألا يمكـن مثـلًا أن نقـول إن المعـري كان صاحـب مذهـب تشـاؤمي قـد يقربـه مـن

بعض الوجوه من زميله الألماني شوبنهور على فرق ما بينهما من زمان ومكان وبواعث. ثم ألا تظن فيما لو أنعمت الفكر قليلًا، إنك واجد وجهًا من التشابه بين نيتشه والمتنبي أو بين جماعة الإنسكلوبيديين وأخوان الصفا؟ قد يبدو هذا غريبًا لأول وهلة، ولكن أبا العلاء يذكرني دائمًا باربداد تفكير وتجهمه وسخطه على الحياة وتذبذبه بين الإيمان والإلحاد، أنه يذكرني في كل هذا تذكيرًا قويًا بصاحبنا شوبنهور الذي عاش حياته كلها ما يفتأ يشوه وجه الحياة بتشاؤمه. ثم ما قولك بطموح المتنبي تهويله وضجيجه الفائر بمعاني البطولة والقدرة والتفوق على حد قوله:

وتركك في الدنيا دويا كأنما  تداول سمع المرء أنمله العشر

إذا قارنته بنيتشه خالق الإنسان المتفوق حيث يقول: «لا تبنوا بيوتكم إلا على فوهة بركان» وأخيرًا ألا ترى في رسائل إخوان الصفا نزوعًا إلى التنوير وفتح الأذهان ما يتفق في أغراضه وأعمال جماعة الإنسكلوبيديين قبل الثورة الفرنسية؟

لعلك تريد أن تعرف، يا أخي، على أي ضوء ننظر اليوم إلى ثقافتنا العربية الراهنة. أبادر إذن وأقول بسرعة إن جيلنا يرفض هذه الثقافة رفضًا باتًا وذلك لسببين إثنين أولهما أن هذه الثقافة تصر على أن تقوم من ناحية على أساس الثقافة العربية القديمة، تترسم خطاها وتستلمهما وتأخذ بما كانت تأخذ به الثقافة القديمة من أسباب التفكير، وهذا خطأ بالطبع فإن الثقافة القديمة إن هي إلا مظهر

لبيئتها ولمجتمعها بكل ما فيها من عوامل نفسية وأخلاقية وقيم وأوضاع خاصة، والرجوع إلى الوراء غير ممكن إلا إذا تبدلت ظروف حياتنا ومجتمعنا وعصرنا إلى ما كانت عليه قبل مئات السنين!

أما السبب الثاني فهو أن ثقافتنا الحديثة لا تؤمن، من ناحية أخرى، إلا بثقافة المجتمع البرجوازي في الغرب. أي ثقافة الذين يستعمرون بلادنا ويزيدون حياتنا تعسًا وشقاء، وهذا بالطبع لا يتفق مطلقًا وأبسط القواعد المنطقية؛ أولًا لأن الثقافة البرجوازية سائرة اليوم إلى الانحلال والموت المحقق، ثانيًا لأننا في ظروفنا الراهنة وفي الأوضاع الشاذة التي تعيش البلاد العربية جميعًا في ظلها لا ندحة لنا من أن نتلمس أسباب الذل والقهر اللذين يسمان حياتنا وأن نجعل من ثقافتنا أداة تعيننا على أن يكون لنا حق في الحياة الصحيحة، ولا حاجة بي إلى تذكيرك بموقف رجال الأدب والثقافة البرجوازية من الحرب الإيطالية - الحبشية حين انتصر هؤلاء لرسالة الحضارة والمدنية التي يحملها «الدوتشه» إلى «الحبشة المتوحشة»!!

إن المسألة لم تعد في رأينا مسألة قديم وجديد، بل هي مسألة حياة أو موت. ولا ريب أنك ترى الآن، يا أخي، هذا التيار الشديد الذي يضطلع به المثقفون في جيلنا الجديد لصد هذا الاتجاه الخاطئ الذي سارت عليه ثقافتنا الحديثة خلال ربع قرن، لتأخذ هذه الثقافة من بعد مجرى جديدًا على ضوء ظروفنا الاجتماعية وسائر الأوضاع التعسفية التي تخضع لها اليوم.

وبعـد، يـا أخـي، فـإني أريـد، قبـل أن أختـم كلمتـي هـذه إليـك، أن تعلـم أن مجتمعنـا الآتي، الـذي يقـر للإنسـان كرامتـه ويحـرره نهائيًـا وإلى الأبـد مـن القهـر والـذل والحرمـان، يعـرف كيـف يقـدر التقديـر العميـق كل جميـل وإنسـاني وعظيـم الخـير مـن الثقافـات السـابقة، سـيلقي بجميـع التوافـه والقـاذورات وكل مـا كان مـن شـأنه تشـويه الحيـاة إلى العـدم ليظـل كل مـا هـو نفيـس وغـال دائـم اللمعـان والوهـج.

## الرِّسالة الثَّالثة

# لو غيوو

## يمثـل حدًّا فاصلًا بين ثقافتين

«إن الإنسـان الـذي طحنتـه أسـباب الشـقاء والقهـر والإذلال هـو أبـدًا أعمـق شـعورًا بإنسـانيته مـن أي إنسـان آخـر»

«لو غيوو»

يا أخي

أعـود إلى الكتابـة إليـك بعـد فـترة اعتـكاف وانطـواء عـلى النفـس طلبًـا لراحتـين: راحـة الجسـم المنهـوك لفـرط مـا تناوبتـه أسـباب المـرض و تألبـت عليـه دواعـي العلـل، وراحـة النفـس والفكـر جميعًـا بعـد رهـق شـديد سـببه مـا تعلـم مـن منغصـات الحيـاة وأوضارهـا - حياتنـا نحـن في ظـل وضـع شـاذ، لا منـاص لنـا حيالـه إلا أن نكـون متوفـزي الحـس أبـدًا، مرهفـي الشـعور، كثـيري الحيطـة والحـذر، متطلعـين دائمًـا إلى ترقـب مـا يجـيء بـه الغـد، أيكـون فيـه مزيـد مـن قهـر؛ أم بارقـة مـن أمـل تريـح صدورنـا - وقتًـا مـا - مـما يجثـم عليهـا مـن همـوم، هـي في كثـير مـن الأحيـان فـوق مـا تسـتطيع حملـه كتفـا إنسـان؟

نجـوت إذن بنفـسي إلى هـذه القريـة الجبليـة، أجـد في هدوئهـا ونقائهـا مـا يعيـد العافيـة والصحـة إلى الجسـم العليـل، والصفـاء والاتـزان إلى الذهـن

المتعب. لم أصطحب معي في هذه الرحلة شيئًا إلا حقيبة فيها ملابسي وبعض الكتب لإخوان أنا من كبار الأحرار، الذين يقيمون بقوة واعتداد وثقة عميقة أسس ثقافتنا الجديدة، ثقافة مجتمعنا الآتي بكل خيراته وبركاته العميمة.

إني أكتب إليك رسالتي الثالثة هذه - وأنا في أحضان هذه الطبيعة الجبلية العاتية، وقد فرغت من قراءة كتاب لكاتب يمثل اليوم بكل مزاياه وفضائله النقية حدًا فاصلًا بين ثقافتين. وطالما أن ثقافتنا العربية الراهنة ما تزال سائرة على غرار ثقافة المجتمع المحتضر آخذة بأسبابها المضللة، مأخوذة بمظاهرها الخادعة، مبتعدة بذلك عن حقائق مجتمعها المعذب، وجاعلة من الثقافة أداة لهو ومتاع عارض، تتنسك كذبًا وختلًا وراء بضعة «قيم خلقية» بالية، وهي في حقيقة أمرها تخدم - من حيث تشعر ولا تشعر - أسباب الذل والقهر اللذين يعيش في بؤرتهما سواد شعبنا المقهور، طالما أن ثقافتنا ما تزال سائرة في هذا الاتجاه فقد حق علينا نحن أبناء الجيل الجديد، شباب بعد الحرب الذين نشأنا في مهادها فعرفنا الجوع والتشرد، وعشنا عراة متضورين لا يبرح شبح الموت يعذبنا ويضرب على أعصابنا بسياط من فولاذ، نرى منه كل يوم صورًا بشعة تتوهج بالدم والنار، فيزيد فزعنا واضطرابنا و توجسنا، نفيق على الرعب، وننام وملء جفوننا وصدورنا وأنفسنا صور الرعب والدم والموت. حق علينا، على عدد وفير منا، الذين قدر لهم أن يفوزوا بنعمة المعرفة الصحيحة، والشعور العميق المعذب بآلام وأرزاء شعبهم، أن يعرفوا كيف يسددون أقلامهم

إلى صميم كل هذا الخداع والمكر والتضليل الذي يحيل ثقافتنا الراهنة ألهيات وألاعيب، فنهده من أساسه ونحطمه حطمًا بقسوة عادلة صارمة، دونما رحمة؛ لنتجه بثقافتنا من بعد الى أن تكون أداة خير ذات أثر عميق في رفع الضيم عن الإنسان والقضاء الحاسم على أسباب إذلاله وقهره وألمه جميعًا. وإن الواحد منا في قوة إرادته، وعمق إدراكه، وشدة وعيه وتوفز حسه، واشرئبابه العتي إلى حياة إنسانية موفورة الكرامة متكاملة أسباب سعادتها المطلقة، أن الواحد منا في كل هذا ليشبه بصفاء قلبه الفاتن وعنفوان شبابه الرائع النقاء جبارًا من جبابرة ميكل أنجلو يحمل ألمه الفاجع وهمومه الضاجة في أغوار صدره لا عن رزوح ووهن وتطامن للقهر بل إنه ليتأمل عذاباته وكل الآلام والأرزاء المحيطة به، ويتدبر أمره في وعي عميق، ويدع كل هذه الأصداء الفائرة تضج في أعماقه أيما ضجيج يجعل من انفجاره وعتوه من بعد إعصارًا يدك و نارًا لاظية تبيد وتهلك.

وإني، يا أخي، إذ أتحدث إليك عن بعض رفاقنا من أحرار الفكر والضمير والذين يخلقون ثقافة المستقبل، ثقافة مجتمعنا الآتي، إنما يكون الغرض من حديثي أن ألفت ذهنك إلى ما ينبغي آن نأخذ به من أسباب الثقافة الصحيحة التي توجهنا إلى الخير والى تلمس دواعي آلامنا وعذاباتنا لنتمرد عليها ونفل أصفادها ونحطم قيودها بكل ما في نفوسنا من بواعث النقمة والأحقاد المتأصلة الشديدة التفاعل، والتي لا يمكن أن يخمد تلظيها في صدورنا إلا يوم نستطيع أن نهض بقاماتنا بكل اعتزاز وشعور عميق، نقي، بإنسانيتنا، مستقبلين شعاع شمس

ذلـك اليـوم العظيـم وعـلى أسـارير وجوهنـا ابتسـامة عريضـة، ظافـرة، إشـاعتها في أعماقنـا نشـوة الانتصـار عـلى الألم والقهـر والحرمـان جميعًـا.

لقـد انتهـى ذلـك اليـوم الـذي كانـت فيـه مقاليـد الثقافـة عندنـا في أيـدي مـن لا يحسـنون إلا حبـك خيـوط الإذلال لمجتمعهـم، انتهـى ذلـك اليـوم وأتي دورنـا نحـن الذيـن نعلـم تمـام العلـم أننـا ومجتمعنـا معرضـون كل يـوم لشـقاء جديـد، لهـوان جديـد، لألـوان مـن التنكيـل والإذلال قـد تعجـز أذهاننـا عـن تصورها...واجبنـا اليـوم أن نحـول الاتجـاه الثقـافي عندنـا نحـو ذلـك الـدرب الـذي تتضافـر للسـير فيـه كل تلـك القـوى الإنسـانية في طلـب الحيـاة المتحـررة مـن شـوائب الظلـم والطغيـان جمعيًـا. إننـا - بمجموعنـا - تربطنـا أسـباب الألم بـكل المظلومـين والمقهوريـن، ومصيرنـا وأياهـم واحـد لا يتغـير. فـإذا لم نحسـن كيـف نتخـذ مـن آلامنـا وعذاباتنـا معـاول مخيفـة تلقـي الرعـب في قلـوب ممتـصي دم الإنسـان فـلا ريـب في سـوء مصيرنـا.

مـن هنـا وجـب أن تكـون ثقافتنـا موجـة فائـرة تنضـم إلى هـذا التيـار العظيـم الـذي تنصـب فيـه الموجـات الثقافيـة التحريريـة جميعًـا، نأخـذ منـه مـا يفيدنـا ويعلمنـا ويفتـح عيوننـا ويسـدد خطانـا، لنعطيـه مـن ثـم مـن أشـواقنا وآمالنـا وارادتنـا قـوة تعمـل عملهـا وتبلـغ شـأوها.

***

إن أميـز مـا نسـتطيع أن نلمسـه عـلى الفـور مـن مميـزات هـذه الثقافـة الجديـدة - الثقافـة الإعداديـة لمجتمعنـا الآتي - ظاهرتـان شـديدتا الوضـوح والقـوة تشـير كل منهـما إلى معنـى خـاص ظاهـر الدلالـة عـلى تهـرؤ

المجتمع البرجوازي وانحلال ثقافته أما الظاهرة الأولى فهي التي أدعوها «الانهزامية» وهي التي يمثلها بفرنسا اليوم هنري بربوس، رومان رولان، أندريه جيد. هؤلاء الثلاثة، وهم من قادة الرأي الأوروبي خرجوا من صميم المجتمع البرجوازي يحملون جميعًا مثله ويرمزون قيمه الخلقية والروحية وسائر أوضاعه الاجتماعية. ولكنهم يحملون إلى هذا كله أثمن ما يمكن أن يعتز به إنسان، يحملون في أعماقهم ضمائر نقية، شديدة الوعي، دقيقة الحس، دائمة القلق على مصير الإنسان، دائمة التطلع إلى ما يمكن أن يؤدي إلى رفعته وكماله. ولكن ذلك كله لم يكن ليخرج عن حدود ما رسمه لهم المجتمع البرجوازي من مبادئ وقيم وأوضاع، حتى إذا كانت الحرب الكبرى وهي كما أسلفت لك، التجربة الهائلة التي أسفرت عن مختلف ألوان الخداع والمكر والتضليل في صميم هذا المجتمع، حتى إذا كانت هذه الحرب وكانت ويلاتها المتراصة المحبوكة الآخذ بعضها برقاب بعض في سلسلة طويلة من أسباب الذل والامتهان، حينئذ ظهرت في الأفق بوادر التصدع في بناء الثقافة البرجوازية فانقلب عليها شر انقلاب من كان من أبر أبنائها بها وأحناهم عليها وأشدهم زودًا عن حياضها... فدخلت هذه الثقافة منذ تلك الساعة في دور انهزامها، على أشد ما يكون الانهزام زلزلة الضمائر التي كانت قبل ذلك تؤمن أعمق الإيمان بقوة وازدهار الثقافة البرجوازية كمظهر رائع لقوة الوضع الاجتماعي الذي أوجدها وجعل منها رجع صدى يحمل مبادئه وفضائله الموهومة ومزاياه الخادعة جميعًا. وعلى هذا يمكننا أن نقول في ثقة واطمئنان أن الظاهرة الانهزامية أخذت لونها الواضح من حيث انتهت الثقافة البرجوازية إلى الفشل الذريع فخيبت

بذلك آمال الكثيرين من أنصارها إلى حد الثورة عليها والخروج عن كل قيمها ومبادئها ومثلها. فكانت هذه الثورة من بعد وكان هذا الخروج أقوى ما ينعكس فيها المعنى الانهزامي لهذه الثقافة. حتى إن أنصارها النفعيين، هؤلاء الذين ظلوا موالين لها، مقيمين من أنفسهم أعوانًا لها ومنافحين عنها، هؤلاء أنفسهم يرمزون رغم أنوفهم إلى هذه الظاهرة الانهزامية، يبدو ذلك في أعظم أعمالهم الفكرية والأدبية، إنهم لا يصورون اليوم، منساقين بقوة الواقع، إلا فضائح مجتمعهم المتداعي، وشتى الأعراض المرضية التي تعصف به، وكل هذه الظواهر الفاجرة أحيانًا، الماكرة المضللة أحيانًا أخرى والتي تشير كلها بقوة ووضوح إلى الانحلال السريع الذي لا يوحي إلا بالوهن والتهافت بعد إذ لم يعد من المستطاع أن يكون مصدر إلهام رفيع يعكس على الثقافة من وهجه النقي ما يكون ذخرًا عظيمًا لهذه الثقافة وأسباب قوة وتكامل، متى لم يعد المجتمع يوحي بذلك كله أو ببعض منه كان ذلك نهاية الانهزام وآخر العهد بوضع اجتماعي لم يعد أمامه إلا أن يتابع الانحدار إلى مصيره المحتوم.

أما الظاهرة الثانية يا أخي، وأسميها الانعتاقية، فهي التي يمثلها اليوم في كل بقعة من عالمنا، في كل ناحية، فيها ظلم، وفيها مهانة، وفيها ألم وقهر، فيها ضمائر حية ونفوس تحس عذاباتها وعذابات مجتمعها المقهور، وتأخذ مادة ثقافتها من صميم هذا الهول الفاجع وتحيك منها أداة «تحرير وانعتاق وانتصار على الألم والقهر جميعًا». ولم يكن أحق بالاضطلاع بهذه الرسالة إلا هؤلاء المفكرون والكتاب

مـن أبنـاء الشـعب الذيـن نشـأوا في مهـاد الشـقاء وعرفـوا معرفـة فاجعـة كل الأهـوال المميتـة التـي تعيـش الجماهـير الشـعبية ممرغـة، حتـى فـوق هاماتهـا، في أوحالهـا، ومـن هـؤلاء يـا أخـي، لـوي غيـوو، هـذا الرجـل الكبـير القلـب، الـذي اسـتطاع أن يفكـر ويكتـب في كثـير مـن الحقـد وفي كثـير مـن الحـب أيضًـا، الـذي تفتحـت عينـاه أول مـا تفتحتـا عـلى فقـر وبـؤس وجهـاد الإنسـان «الفريسـة» المسـتبعد، المسـتغل، الـذي تتلاعـب بمصـيره أنامـل بضـة، مكتنـزة، مرهفـة، تحيـك دسـائس امتصاصـه خفيـة، وراء سـتار؛ عـلى موائـد سـكرها وخمارهـا، وفي زوايـا فجورهـا وآثامهـا، ومعـترك لذاتهـا وأوضارهـا، تفتحـت عينـاه عـلى كل هـذه التشـوهات؛ وأحـس بفطرتـه النـيرة، ببصيرتـه الواعيـة، أن كثـيرًا مـن بـؤس هـذا الإنسـان، كثـيرًا مـن حرمانـه، كثـيرًا مـن عذاباتـه، لم يكـن يومًـا مـن الأيـام نتيجـة قـدر محتـوم وقضـاء خفـي لا مـرد لـه. كل هـذه التعاسـة، كل هـذه العذابـات، كل هـذا القهـر - يسـتوي في سـعيره شرقـي مسـتعبد وغـربي مسـتغل - مدبـر بمهـارة فائقـة، محبوكـة خيوطـه بـذكاء سـافل، ومقـدرة عريقـة عـلى الإجـرام المنظـم ليـس مـن يحسـن أحكامـه أحـد مثـل هـؤلاء الشرفـاء مـن أخبـث المضللـين وأقـذر المقامريـن بمصائـر الجماهـير. لقـد فهـم هـذا كلـه، وأحـس بـكل ويلاتـه، وأدرك ابـن صانـع الأحذيـة - بـذكاء نـادر – «أن الإنسـان الـذي طحنتـه أسـباب الشـقاء والقهـر والإذلال هـو أبـدًا أعمـق شـعورًا بإنسـانيته مـن أي إنسـان آخـر» أو بمعنـى آخـر «إذا كانـت الإنسـانية سـيقدر لهـا في يـوم مـن الأيـام، أن تبلـغ حـدًا مـن الكـمال والرفعـة ينسـيها كل تعاسـاتها وآلامهـا، فلـن يكـون ذلـك إلا أثـرًا مـن آثـار هـذا الإنسـان المعـذب، الإنسـان الفريسـة، الـذي بلغـت بـه أحقـاد آلامـه وقهـره حـدًا لم يعـد معـه بـد مـن

أن ينقلب هذا الانسان نقمة مدمرة تقضي على آخر أثر مما شوه الحياة وأحال الوجود شرًا كله».

هذه هي نقطة الانطلاق التي ينبع منها تفكير لوي غيوو، ويتفجر عنها من ثم في إشعاعات إنسانية ملهمة تبلغ به شأوًا يجعله، بفنه وتفكيره ونزعته الإنسانية العميقة جميعًا حدا فاصلًا بين ثقافتين: ثقافة وضع اجتماعي لم يعد ممكنا ولا مستطاعا أن يستمر بكل شوهاته وآثامه.. وثقافة وضع اجتماعي جديد بكل ما تحمله من خير وممكنات رفعة الإنسان وأسباب تكامله، تكون فيه هذه الثقافة خير عون له على هذا كله.

نحن إذن تجاه مفكر وفنان يتخذ من آلام شعبه ومحنه مادة تفكيره وفنه. أي إنه استطاع أن يقضي على الخرافة البرجوازية القائلة إن الثقافة لا تزدهر ازدهارها الرائع إلا إذا أنكرت مآسي الإنسان وآلام المجتمع وعاشت على هامش الحياة معنية بتحليل عوارض عاطفية وميول وغرائز شاذة غريبة لشذوذها كأنما هي في غالب الأحيان لا تفجرها دواع اجتماعية قاهرة. هذه الخرافة التي يقصد بها صرف رجل الفكر عن حقائق الاستغلال وما تضج به الحياة من آلام أوضاع اجتماعية جائرة أرصدت كلها لامتصاص المستضعفين حتى نخاع العظم، هذه الخرافة لم يكن فيها من القوة والحق ما يثبت أمام إشعاع واحد ينبعث عن فكر نير ووجدان حي.

لعلك يا أخي تريد أن تعلم مدى ما استطاع أن يحققه لوي غيوو من أسباب الفن والإبداع إلى جانب ما استطاع أن يحققه من القدرة على بحث حياة الإنسان بكل مشكلاتها ومآسيها وأحزانها وأتراحها وشتى أشواقها وتشوفاتها واشرئبابها إلى يوم خلاصها الموعود وسط كل ما تستنزفه من دم الإنسان الفريسة إغلاق الاستغلال والمقامرة بمصائر الشعوب. أشعر، كيما أتمكن من إعطائك صورة تخطيطية سريعة عن هذا كله، أن خير ما أستطيعه هو أن أتناول عملًا من أعماله الفكرية والفنية يكون الحديث عنه عونًا لي على جلاء بعض من مزايا وفضائل غيوو، من نواحيها الثلاث: الفنية الإبداعية، التحليلية البعيدة الغور، الإنسانية المطلقة الخير.

فلنأخذ إذن آخر ما صدر من كتبه، «الدم الأسود» إذ فيه وحده قد اجتمعت خصائص ومميزات فنه جميعًا. وبه توكدت عبقريته الخالقة التي ترتفع به دفعة واحدة إلى تلك الذروة التي تبوأها بلزاك وزولا من قبل،

وكل مفكر نقي التفكير كان مصير الإنسانية وكان الحرص على سعادة هذا المصير أكبر شاغل له مدى حياته كلها.

نستطيع أن نجمل القول، يا أخي، في إعطاء فكرة عابرة عن هذا العمل الأدبي الانساني الكبير بكلمة قد لا تعطي أكثر من خط واحد فيه بعض الدلالة على المحور الذي يدور حوله هذا الكتاب المفعم حياة وقوة، بغضًا وحبًا، إسفافًا وعلوًا، حقدًا هائلًا وتسامحًا لا حد

لـه «أحبـوا بعضكـم بعضـا! لم يكـن بـد مـن مجـيء إلـه يعلمهـم الحـب، ولكنهـم لم يكونـوا بحاجـة إلى أي إنسـان ليعلمهـم البغـض!»

هـذه الإشـعاعة أول مـا تفجـأك في هـذا الكتـاب، تنـد عـن ذهـن أكـبر شـخوصه لتكـون مـن ثـم القاعـدة التـي يتركـز عليهـا ويـدور حولهـا حتـى النهايـة.

أمامنـا عـدد غـير قليـل مـن الشـخوص، كل واحـد منهـم معنـى قائـم بذاتـه مـن معـاني انهيـار مجتمـع بأكملـه، لم تبـق لـه فضيلـة واحـدة تشـفع لـه في انحـداره نحـو الفنـاء. أمامنـا مفكـر يائـس، تعمـر رأسـه أفـكار ياما أشـد تناقضهـا، و ياما أعجـب تضاربهـا، أهـو ملحـد أم مؤمـن، أيحـب أم يبغـض، أصريـح هـو أم منافـق، مخـادع أينكـر المجتمـع القائـم ويرفـض قيمـه وأوضاعـه، أم هـو «لا أبـالي» يسـتوي عنـده الـشر والخـير، الوجـود والعـدم... إنـك لا تـدري حقيقـة شيء مـن هـذا كلـه عنـد هـذا المخلـوق الـذي يبلـغ بـه «الوعـي الوجـداني» أحيانًـا حـدًا لا مثيـل لـه، ثـم ينقلـب حينًـا أخـرى بليـد الذهـن، خامـل التفكـير، راكـد الحـس، مذبـذب العاطفـة باهـت الشـعور. إنـه ليحـب ويكـره في آن واحـد، يثـور ويطامـن دفعـة واحـدة. يؤمـن ويلحـد في وقـت واحـد، يحقـد ويتسـامح، يعلـو ويسـف، يرفـض أوضـاع مجتمعـه ويعـود راضيًـا عنهـا، يبغـض الإنسـان ويحبـه وليـس بـين الشـعور الواحـد ونقيضـه أكـثر من طرفـة عين أو ارتعاشـة هـدب في كثير مـن الأحيـان... هـذا الفيلسـوف الفاشـل الـذي وقـف مـن مجتمعـه، موقـف النـد للنـد في الخصومـة، هـذا الإنسـان الغريـب الأطـوار، الـذي انتحـر عجـزًا عـن المقاومـة والوقـوف في وجـه العاصفـة، بعـد نقمتـه الصارخـة اليائسـة

والتي كانت بعيدة من أن تكون نقية تمرد متفائلة في إلحاحها العاتي للانعتاق والتحرر... هذا المخلوق بكل تناقضاته. بكل تذبذباته، بكل يأسه، بكل ما يحمل في نفسه من أسباب البغض والكراهية؛ كان في كل ذلك أكرم نفسًا وأطيب قلبًا وأعمق إنسانية وأشد اتصالًا بفضائل المجتمع الآني من كل إنسان آخر ممن يحيطون به.

من خلال هذا الإنسان المعذب؛ ضحية المجتمع الفاسد، تمر أمامنا صور وعبر، مخلوقات يشبه مظهرها الإنسان، تمر أمامنا مفاسد ومخازٍ، شهوات منكرة، لؤم، خداع، إجرام، آلام. مجتمع بأسره قد نخرت عظامه شروره وأهوال آثامه... بينما على الضفة الثانية من هذا الإقليم الذي قبع فيه «غيوو» يرقب هذا النفاق العجيب ممثلًا في وجهائه وذواته وأعيانه وكبار موظفيه من خلال بطله الفيلسوف اليائس «كريبور» يفور الدم الأسود وينحدر جائشًا مزبدًا. له هدير يصم الآذان. دماء ملايين الضحايا يرتوي من فيضها السهل والجبل... في هذه المجزرة الراعبة... الحرب العظمى! خداع وتضليل في الداخل تصوير فاتن لما ستحققه هذه الحرب من مثل عليا لم يحلم بمثلها الإنسان حتى اليوم. تغدو التضحية في ترقب تحقيق هذا كله عذبة رائعة، لها وهج بطولي يخطف الأبصار! ثم ذبح وتقتيل وإبادة في الخارج، في الميادين، حيث يغلي الدم الأسود محترقًا متصاعدًا في ألسنة لهب هائل تتراقص فوقه مثلهم العليا مقهقهة كفاجرة معتوهة!

إنها لأكثر من ملحمة، لأكثر من مأساة، لأروع من فاجعة، إنها من فرط القبح أقرب لأن تكون مهزلة كبرى! تغدو فيها أهوال عذابات

الإنسان وآلامه قهقهات راعدة، مجنونة، أهول وقعًا من أية صرخة ألم عميق لا يدع « غيوو» شيئًا من هذا كله يمر إلا و يقف عنده في كثير من الذكاء والفطنة، في كثير من الحقد العميق، في كثير من الإشراق الإنساني المجيد يمد إصبعه إلى خيوط هذه المهزلة ويحوك لعنة فوق لعنه على هذا المجتمع الفاجر، صفعة إثر صفعة على وجهه الصفيق. معولًا بعد معول في صميم نفاقه وإجرامه العريق... وماذا أبلغ في السخرية الكاوية وأشد إمعانا في الازدراء والهلهلة من أن يضع هذا المجتمع بكل ما يملك من وسائل الانتقام وأسباب القوة خصمًا لفرد واحد. لإنسان واحد كل ما يملكه. كل رأس ماله، بضعة أفكار، بضعة ميول وآراء يلوكها ويجترها في أعماق صدره، ولا يظهر من أثر لها في حياته إلا شدة انزوائه وابتعاده عنهم. أراد أن يتقي شرورهم و آثامهم.

آثر هذه النزعة الانعزالية فعز عليهم أن ينكرهم، أن يحتقرهم في صمت عميق. فقاوموه وتضافروا للتنكيل به؛ حتى أحرجوه، حتى أثاروا فيه الاشمئزاز، فنفض عليهم كل حقده وبغضه وكراهيته. قبل أن يضع حدًا نهائيًا لحياته بيده.

في يوم كامل. في أربع وعشرين ساعة، أعطانا غيوو كل هذه الألوان، كل هذه الصور، ونقل إلينا ضجيج آلام فادحة، وأهوال إنسانية يأخذها الهول من كل جانب، ومخازي مجتمع تحف به دواعي الانهيار من كل صوب. ولكننا ماذا نرى فوق هذه الأنقاض، أي نور يلتمع عند الأفق، أي وهج يخطف هناك حيث تلتقي ركام هذا المجتمع بسيل دم أسود يفور و يقهقه؟ ياما أجملها شعلات متضرمة. وياما أصفاه

نـورًا يتألـق ويـضيء بقـوة، بشـدة، بوهـج عظيـم... إنهـا طلائـع المجتمـع الجديـد، كلهـا قـوة وشـباب وصحـة، يلقـي نظـرة أخـيرة عـلى كل هـذه الشـوهات متجهًـا ببـصره نحـو المسـتقبل، نحـو الحيـاة الموفـورة المتكاملـة، ينطـق بهـذا الأمـل الكبـير أحـد شـخوص «الـدم الأسـود» مـن الشـباب الذين شـهدوا فواجـع المسـتضعفين، وآلام المسـتغلين، ونـذر انهيـار المجتمـع يمتـص دماءهـم كديـدان العلـق. إنـه ليقـول كأنمـا ينطـق بحكمـة نبـي المعضلـة ليسـت أن نعـرف فيـما إذا كانـت الحيـاة في حـد ذاتهـا عقيمـة، ولكـن أن نعـرف عـلى وجـه التدقيـق مـاذا يمكننـا أن نعمـل مـن هـذه الحيـاة».

* * *

أمـا هـذا الكتـاب - مـن الناحيـة الفنيـة - فحسـبك يـا أخـي أن تعلـم أن خصومـه بهتـوا حيالـه ونظـروا فيـما حولهـم عـن أبـرع مشـعوذ مـن كتابهـم. عـن أمهـر متنسـك كاذب في هيـكل الفـن عندهـم. عـن واحـد مـن أمثـال موريـاك أو ماسـيس أو أي مهـرج آخـر، فلـم يجـدوا مـن بـين مجموعـة (مومیائهـم) واحـدًا يسـتطيع أن ينهـض بجانـب غيـوو ابـن صانـع الأحذيـة، ولا يكـون إلا كطفـل يتعـثر أمـام جبـار تبلـغ بـه إنسـانيته وقدرتـه ونبوغـه إلى حيـث يسـتوي عـلى الـذروة التـي يتبوأهـا كبـار الأحـرار الإنسـانيين كـزولا أو دوستويفسـكي أو غوركـي أو بلـزاك أو أي آخـر مـن ذوي القلـوب الكبـيرة والضمائـر الإنسـانية النـادرة في تاريـخ الإنسـان العبـد. وإن ظـل بعـد ذلـك نسـقًا وحـده يحتـذى إذ اسـتطاع أن يكـون في آن واحـد: فنانًـا مبدعًـا نـادر المثـال؛ محللًـا نفسـانيًا بعيـد الغـور، وإنسـانًا كامـل الشـعور بإنسـانيته. فـكان بذلـك كلـه واحـدًا مـن فئـة نقيـة التفكـير نـادرة المثـال،

مـا فتئـت تعمـل بـكل قواهـا عـلى إقالـة (الإنسـان العبـد) وتطهـيره مـن أوضـار عصـور الظلـم والأنانيـة والاسـتغلال المجنـون، وتوجيهـه مـن ثـم نحـو أسـعد مصـير، تضمـن تحقيقـه اليـوم قـوى وإرادة انسـانية بأسرهـا يبتلـع ضجيـج أشـواقها الملتهبـة حشرجـات مـن لا يريـدون إلا إذلالهـا وقهرهـا.

## الرِّسالة الرَّابعة

# جان جيونو

## وعالمه الجديد

«... إنَّ المجتمع القائم على دعائم المال يهلك جنى خيرات الأرض، يبيد الحيوان، يفني الإنسان، يقضي على المسرة، يدمِّر العالم الحق، يدك السلم، ويلاشي ثروات الإنسان الحقيقيَّة. إنَّ لكم لحقًّا في خيرات الأرض والعالم الصحيح، إنَّ لكم لحقًّا في الثَّروات الحقيقيَّة في دنيانا هذه، على الفور، الآن، وفي هذه الحياة، ولا ينبغي لكم أن تنصاعوا لجنون المال مطلقًا»

«جان جيونو»

يا أخي

ما أزال معتزلًا في هذه القرية الجبلية. أردت بادئ الأمر أن تكون مدة إقامتي فيها أيامًا قلائل، ولكن إرادتي هذه لم تفدني شيئًا حيال استبداد هذه القرية، بجبالها، بأوديتها، بكرومها، بجوها النقي المحسن، استبدادًا أو هي إرادتي وجعلني أسير مفاتنها، أسير بساطة سكانها، أسير كل ما هو جميل ونقي فيها وأخيرًا اسير ذكرياتها الماضية. هذا الماضي ما أحيلاه رغم بعض مرارته، ورغم بعض الآلام التي لم يزل أثرها عالقًا في اطواء الحس من نفسي! فقد لا تعلم أنني، منذ سنوات أربع، أصبت بمرض خطير وكانت حياتي يومئذ على كفة القدر، حتى إذا ما قدر

لي الشفاء والعودة ثانية إلى الحياة كانت هذه القرية أول ما هرعت إليها أطلب في جبلها العالي وفي طبيعتها المحسنة قوة على ضعف، وعافية بعد هزال، ورجاء في الحياة بعد فترة حالكة لم يكن خلالها يفارق مخيلتي لحظة واحدة شبح الموت. ومنذ ذلك اليوم توشجت بيني وبين هذه القرية علاقة «نفسية» قوية إلى حد لا يكاد يلم بي مرض أو سبب من هذه الأسباب التي تثير في نفوسنا، بعض الأحيان، اليأس أو السأم حتى أهرع إليها وأنا تحت تأثير نداء خفي. وما خيبت هذه القرية أملا من آمالي، وما غادرتها مرة إلا ورجع إلى نفسي تفاؤلها وانشراحها بعد إذ أكون قد أشرفت على حافة هاوية التشاؤم واليأس، فيتجدد العزم، وتعود الطلاقة ترف على صفحة الوجه الكئيب وأعود ثانية إلى المدينة الصاخبة ببحران آلامها وتعاساتها، الغارقة في أفيون عذاباتها الفائرة. لعل هذا كله أو بعضًا منه هو الذي يجذبني إلى هذه القرية السعيدة ويذرني أسير ندائها الخفي، ولعلها ذكرى أخرى عزيزة غالية هي أيضًا، ذكرى إقامة أخ كريم لنا فيها، شديد الذكاء، رضي الخلق، كريم النفس، حر الضمير، حر القلم، من لا تقع العين على كثير منهم في معترك حياة بائسة. اتخذ من هذه القرية منفى اختياريًا له بعد إذ اضطهد في بلده العربي وشرد. إن كلمة شاردة متلألئة بمعنى من معاني تحسس الألم، تكون أحيانًا في انبثاقها على فكر نير، سيف نقمة مخيف مصلت أبدًا فوق رأس صاحبها، فما رأيك فيمن لا يكتفي بكلمة واحدة، فيمن لا يني ضميره ويحفزه ويثيره إلى هتك الستار عن كثير من أحابيل الدهاء، وإماطة اللثام عن مختلف وجوه الخداع والتضليل وكل ما من شأنه أن يذل الإنسان ويزيد في

مهانته، فيأبى إلا أن يرسلها أنفاسًا لاهبة، بأقصى ما يمكن من صراحة، بأشد ما يكون الحماس توقدا لكلمة الحق، بأروع ما يكون التفكير عميقًا، والذهن صفاء، والقلب محبة؟ لقد فعل صديقنا هذا كله، فإذا كلماته المتوهجة: شعلات فكره النير، نبضات وجدانه الواعي، صعقات تزلزل النفوس الحائرة، وتدوي دويا هائلًا فترج قلوب ممتصي دم الإنسان وتثير فيهم القلق والاضطراب والخوف -- الخوف من أن تتململ الفريسة وتفتح عينيها وتعود متمردة على مصيرها لن تنصاع من بعد للرجوع إلى حظيرة ذلها ومهانتها. فليخرج إذن هذا الإنسان الشديد اليقظة، وليشرد هذا الوجدان الدائم القلق، الذي لا ينى يتحسس آلامه وآلام مجتمعه ويثيرها نقمه فائرة على أسباب ومسببي القهر والإذلال، ماذا نراه يفعل حيال هذا كله: أتهن عزيمته، أيخالجه ريب، أيطيف به طائف من تردد ونكوص؟ لا هون عليه أن يضطهد ويشرد لا يسر لديه أن تتنكر له وجوه من يشبهون الإنسان من أن يخنق كلة يضطرب بها صدره، وتضج في نفسه ضجيج آلام مجتمعه المهين، ضجيج إنسانيته العذبة، فليخرج إذن غير مخزون القلب، غير يائس، يشعر أعمق شعور وأتمه بقوته الخارقة؛ بقوة كلماته اللامعة وبكل ما تحمله هذه الكلمات في أعماقها من أسباب الخير، وإرادة الانعتاق والتحرر... إنهم ليملكون حقًا قوة إخراجه وتشريده، وحتى التنكيل به، ولكن من أين لهم أن يخنقوا كلماته، أن يطفئوا لمعانها ويخمدوا تلظيها، أية قوة عندهم تمنع هذه النبرات القوية، المنذرة، من أن تقرع الآذان و تصل بقوتها وجمالها وحيويتها إلى الأعماق القصية... فتفعل فعلها وتغرس بذورها... فليخرج إذن وقد ترك وراءه

ما لا قدرة لأية قوة بالغة ما بلغت أن تحول دون أن ينفذ نوره إلى كل نفس واعية وكل وجدان حي، فليخرج وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، ساخرة، حتى لتكاد تكون قهقهة عالية تردد، في كثير من الاستخفاف والزراية بمن لا يحسنون إلا الانغماس في أوحال شرورهم، كلمة واغنر إلى ماتيلد قبل أن ينكر نفسه «... لا مدينة لا قرية لي، لا وطن!» وليأوِ من بعد إلى هذه القرية الجبلية التي أكتب إليك منها، فيجد فيها مدة عام لونًا من الهدوء والصفاء، ونجد نحن، خلالها، من مصاحبته والتردد عليه وقضاء فترات سعيدة بقربه ما كان لنا أكبر معين على كثير من الصور الذليلة، الشائهة، في حياتنا الحزينة.

أما اليوم - وقد دار الفلك دورتين - فما نعلم من أمر صديقنا شيئًا، أين يقيم، أي جديد طرأ على حياته، سماء أي بلد يظله، أتراه بخير وعافية، بعيدًا عن بواعث الاضطراب والقلق ودواعي الألم والقهر؟ أننا لا ندري شيئًا من هذا كله، وإن كان حسبنا أن نقرأ له الحسين بعد الحين فنسر ونغتبط، ونذكره كملا استجبنا إلى نداء القلب للانطلاق إلى هذه القرية الجبلية السعيدة، فإذا لنا من الذكريات البعيدة، ومن طبيعتها المحسنة، ومن فتنة جبالها وآجامها، ومن روعة وديانها وقيعانها ما لا حيلة لنا معه إلا أن نبقى على العهد فلا ينقطع لنا حنين إليها ولا يردنا عن الصعود إلى حيث تجثم عزيزة منيعة حائل بالغًا ما بلغ، كما هزنا الشوق إليها، أو طاف بنا طائف الذكرى، أو وسوس السأم والملل في صدورنا حين يبلغان بنا حدهما الأقصى في غمرة حياة شد ما تفور وتضج بأسباب القهر والألم جميعًا.

أكتب إليك إذن هذه الرسالة وأنا أدير عينين مأخوذتين بكل ما يحيط بي من مفاتن هذه القرية، وقد حملني إليها هذه المرة وهن في الأعصاب، وإلحاح الذكريات البعيدة، وصدى نداء خفي يرعشني، ويهز مشاعري هزًا فيه —على شدة العنف والإلحاح - عذوبة رقيقة، مخدرة، أشبه ما تكون بنغم موسيقي عميق القرار وضعه صاحبه في لحظة حلم فاتن كانت فيها روعة هذا الحلم أشد أخذًا للنفس وأقوى ازدهافًا للقلب، وأعمق هزًا للإحساس من وهج أية حقيقة رائعة في جمالها وقوتها. وأغلب الظن أن مثل هذا الإحساس المباغت إن هو إلا أثر من آثار الغموض والابهام اللذين يرافقان، بعض الأحيان، حالة نفسية خاصة خارجة عن اتزانها العادي، المألوف في الحياة اليومية، فتنحرف شيئا ما فتختلط إذ ذاك حقيقة الواقع بوهم حلم ضبابي يكون الشعور خلاله ضربًا من الإحساس المموه حتى ليكاد يشبه بصوره وأخيلته ما يتراءى لنا من صور وأخيلة حين يهجع فينا العقل الواعي ليفسح المجال أمام إبهام وتمويه وتهويل العقل الباطن، وما أظن الآثار الفنية الصادقة، من شعر وأدب وموسيقى وتصوير... إلا أوشالًا أو رواسب يلتقطها الفنان ويضم بعضها إلى بعض بعد أن يستفيق من حلمه أو أن تفارقه ذهلة هذه اللحظة التي أختلط فيها فتون الحلم بحقيقة الواقع، أكتب إليك إثر استفاقة ندية من حلم آخذ استغرق أيامي كلها في هذه القرية السعيدة لا تصافحني فيها إلا وجوه أهليها القرويين البسطاء رغم بعض الخبث المركوز في طباعهم، ولكنه خبث لا يضر ولا يؤذي إنما يبعث أغلب الأحيان على كثير من العجب لهذا الإنسان الذي مهما صفا جوهر نفسه وخلا من

أسباب الشر ودواعيه مما قد يكون دخيلًا على فطرته ومما قد تكون فرضته عليه فرضًا عوامل اجتماعية وأوضاع ونظم تعسفية، أقول إنه بالرغم من هذا كله سيظل في طبع الإنسان وفي صميم فطرته نزوع إلى الجموح والانطلاق مع فورات غرائزه الأصيلة، يلبي نداءها الهادر، و ينصاع لاشتطاطها وتعسفها، بعد أن تكون هذه الغرائز قد تجردت من المضاعفات التي اندست إليها بسبب الحرمان والقهر والظلم والاستغلال وسائر هذه اللعنات التي يبذر جراثيمها مجتمع فاسد، والتي تؤدي في أكثر الأحيان إلى أن يكون في اندفاع هذه الغرائز وخروجها عن حدود الاتزان وزواجر العقل قوة غالية لا تقهر يكون الشر غايتها التي لا تنثني عنها ولا ترتد دونها. فإذا قدر - في يوم قد يطول أمده أو يقصر - لهذه الغرائز أن تتجرد من مضاعفات جراثيم المجتمع الفاسد لتبقى نقية خالصة من الشوائب الدخيلة عليها فإنها يومئذ لن تعدو مداها الطبيعي ولن تكون بعد لعنة تضر وتؤذي.

إن هؤلاء القرويين البسطاء، يا أخي، في خبثهم الذي أشرت إليه أقرب ما يكونون إلى طبيعة هذا الإنسان الذي يعيش في ظل مجتمع سعيد لا يشوه الغرائز ولا يعدل بها - قسرًا - عن مجراها الطبيعي المعقول لتكون فوراتها واندفاعاتها ونزواتها شرًا ونكرًا بالغين كما نشا هذا اليوم في ظل مجتمع خائر.

توالت الأيام يفنى بعضها في بعض وأنا في شبه حلم متصل واندماج يكاد يكون تامًا فيما يحيط بي وما تقع عليه عيناي ويصافح احساسي من ألوان هذه الطبيعة الضاحكة أبدًا رغم ما يمازجها من عسر ورغم

هاتـه الصـور المبهمـة الحائـرة التـي تحـاول أن تضيـف لونًـا مضطربًـا مـن التجهـم والابتسـار إلى هـذه الطلاقـة البادية وهـذا الإشراق المتدفـق وهـذه الحيـاة القويـة الغدقـة تفجـر سـفوح الجبـال وقيعـان الأوديـة أثمـارًا شـهية وأعنابًـا ناضجـة وأشـجارًا باسـقة تسـتقبل كلهـا شـآبيب النـور والحيـاة بغبطـة ونشـوة يـدل عليهـا هـذا النـماء وهـذا الخصـب وهـذه الخـضرة الزاهيـة النـضرة.

هـذا إحسـاسي عـلى الأقـل أو قـل هـو إحسـاس مـن لم يألـف سـوى السـهل المسـتوي والأرض المنبسـطة السـهلة المتشـابهة لـدى هـذه الجبـال القائمـة بقممهـا ومخارمهـا المتطاولـة إلى السـماء تـدوي فيهـا الريـاح وتـزأر العواصـف كأنمـا هـي مـردة جبـارة ترقـص وتضـج ثـم تعـول وتولـول... هـو احسـاس لم مـن يألـف هـذه السـفوح المنحـدرة التـي تنتهـي آخـر الأمـر إلى هـذه الأوديـة العميقـة المخيفـة تزخـر فيهـا الخـضرة الناميـة وتمـور.

أجهـدت نفـسي كيـما أتقـرب إلى هـذه الطبيعـة الغربيـة واتصـل بهـا، وقـد تهيبتهـا أول الأمـر ووجـدت عـسرًا شـديدًا في ترويـض النافـر مـن شـعوري وإلانـة المتجمـد مـن نواحـي نفـسي. وانهيـت إلى أن ألفتهـا واتصلـت بهـا اتصـالًا قويًـا لفـرط مـا جسـت خـلال أوديتهـا وهبطـت إلى قيعانهـا وضربـت في مسـالكها وشـعابها، وآويـت إلى جبالهـا وآجامهـا الصامتـة المهولـة، حتـى لـكأني أصبحـت جـزءًا أبديًـا مـن هـذه الطبيعـة المتسـاوقة الصـور المتسـقة الحيـاة رغـم مـا يبـدو فيهـا مـن تنافـر ونبـو.

ومن هنا هذا الحلم المستغرق الذي أشرت إليه إلى حد أن استحال لونًا من الاندماج والامتزاج أخذًا عليّ كل إرادة وشعور. ولقد ساعد على ذلك وضاعف شعوري به وأثار في نفسي شتى الخواطر إني اصطفيت - من هذه الكتب العديدة المتباينة، المختلفة باختلاف الكتاب والمفكرين، وباختلاف الموحيات والدواعي والميول والنزعات، وباختلاف وتنوع وتعدد المعرفة الإنسانية كتبًا ثلاثة لكاتب واحد، كان هو وكان نسقه في حياته، وكانت كتبه هذه أشد ما ضاعف إحساسي وأرهف شعوري بكل هذا الذي حدثتك به من مفاتن هذه القرية الجبلية ومختلف الصور والمعاني وشتى الخواطر التي قد لا تستطيع هذه الرسالة أن تعطيك منها أكثر من الإيماض الخاطف والتخطيط السريع، والإشارة والإيماءة التي قد يكون فيها بعض الغناء عما لا سبيل إلى الحديث عنه بأكثر مما تتسع له هذه الرسالة التي أكتبها إليك بعد أن تمكنت من أن أخلص من متاعب حياتنا اليومية العسيرة، ومشاقها وآلامها، إلى هذا الجبل لا يصحبني إليه شيء إلا هذه الكتب الثلاثة التي اصطفيتها من بين هذه الكتب العديدة التي تزحم مكتبتي المتواضعة والتي أنفقت في بطونها حظًا غير يسير من عمر الشباب الذي لا يعوض، إلى حد يخيل إلي معه أن هذه الكتب الصامتة على رفوفها صمت الحكماء، الناطقة بأثمن وأغلى وأنفس ما تفتحت عنه عقول وقلوب أعز أبناء الحياة الخالدين على الحياة ما خلد كل ما هو خير وجميل وحق- أن هي إلا نوع من القرضة الأكلة؛ الناهشة الدائبة على افتراس أيامنا ولياليا دون ما وناء أو كلال، بصبر عجيب، ودؤوب لا مثيل له، ونحن أعمق ما نكون غبطة بذلك وأشد ما نكون آخذًا به وإقبالا

عليه ورضاء بهذا الحظ من المعرفة - قل أو كثر - يعوض علينا ما ذهب من العمر، وما أهدرنا في سبيله من نور العين وعصارة الشباب وصفوة العافية. أما الكاتب فهو جان جيونو وأما كتبه الثلاثة فهي «نشيد العالم Le chant du monde» و«الثروات الحقة Les vraies Richesses» و«لتدم مسرتي Que ma joie demeure».

* * *

جيونو، يا أخي، من هؤلاء الكتاب الذين يتخذون من حياتهم نفسها مادة ما يكتبون، أي إنه يحيا ما يكتب ويكون أصح أن أقول أن الكتابة عنده وسيلة لا غاية. وقد يتبادر إلى ذهنك أن هذا هو المفروض وما عداه يكون قلبًا لوجه الحق وابتعاد عن القصد... ولكننا حيال جيونو ينبغي لنا أن نفهم أن الكتابة ليست فنًا بمجد غايته في ذاته، فلا تكون اللذة من بعد صدى للجمال الظاهر، أو أثر من آثار الحذق، وفتنة الإبداع في الشكل وروعة الإيقاع، وسحر الاتساق وإشراق الأسلوب، وصفاء الديباجة..... إلى آخر هذه الألوان التي تشغل جانبًا كبيرًا من قيمة العمل الأدبي. المسألة عند جيونو ليست من هذا كله بسبيل وإن بلغ هو من كل أولئك حظًا من الإبداع المعجز قلمًا يتاح لأحد غيره بلوغ شأوه أو التطلع إليه. إنما المسألة عند جيونو هي قبل كل شيء (تعبير وأداء وإيحاء) تنتهي كلها عند غاية معلومة يقف عندها جيونو، معتبرًا إياها كل قصده وكل غرضه من الكتابة والاشتغال بها وايثارها على كل شيء، بالغًا ما بلغ، طالما أنها تصل به إلى ما يريد وتحمل رسالته إلينا كشعلة ذات وهج وضياء في غمر هذا الاضطراب

الفاجـع الـذي يحيـل حياتنـا - في بحـران آلامهـا وعذاباتهـا - جحيـمًا لا يطـاق.

جيونـو إذن صاحـب مذهـب أو رسـالة لا شـبيه لهـا في عصرنـا هـذا، دفـع بـه إلى أدائهـا قلـق الإنسـان واضطرابـه البالغـين في هـذا العـصر؛ آلام هـذا

الإنسـان وعذاباتـه، غـمار القهـر والاذلال الذيـن يعيـش في سـعيرهما، مهانتـه عـلى العمـوم - التـي تحمـل مسـؤوليتها وفداحـة شرهـا رذائـل وضـع اجتماعـي بـكل قوانينـه الجائـرة ونظمـه الاسـتغلالية وقيمـه الخلقيـة الهزيلـة.

إن جيونـو ليـكاد يكـون روسـو جديـدًا في هـذا العـصر، ولكـن دون أن يكـون لـه مـا كان لروسـو مـن تشـاؤم واربـداد تفكـير وجمـوح لا كابـح لـه وكفـر بتقـدم الإنسـانية ورقيهـا العقـلي العظيـم يـرى فيـه نذيـرًا بانهيـار الإنسـان وسـببًا أكـبر مـن أسـباب فسـاده وارتـكاز عنـاصر الـشر والسـوء في طبعـه.

إن في تمجيـد جيونـو للطبيعـة ودعوتـه إليهـا لمعـاني هـي مـن الجـمال والروعـة والاكبـار مـن الكرامـة الإنسـانية غايـة مـا يصبـو إليـه العقـل والقلـب جميعًـا. ليسـت دعوتـه جحـودًا للإنسـان وإنـكارا لقدرتـه ونذيـر عجـز وفشـل، إنمـا هـي إعـزاز لهـذا الإنسـان وتمجيـد لـه وتصويـر لبطولتـه في أحضـان أمـه الطبيعـة ووصـف خـارق لاتسـاق قـواه وجبروتـه، ومظاهـر القـوة والعتـو في الطبيعـة نفسـها. إنـه لإعـزاز وإكبـار وتمجيـد للطبيعـة في مظاهرهـا ومفاتنهـا وخيراتهـا ونعمهـا، في طيرهـا وحيوانهـا وإنسـانها، اعـزاز وتمجيـد لهـذا كلـه ازاء كل مـا يسـتعبد الإنسـان في الوضـع الاجتماعـي

القائم على دعائم المال وسلطانه وجبروته الذي يهلك جني خيرات الأرض، يبيد الحيوان، يفني الإنسان، يقضي على المسرة، يدمر العالم الحق، يدك السلم ويلاشي ثروات الإنسان الحقيقية. إنها لدعوة الى البساطة الواعية النقية التوهج والتي تقربنا من الطبيعة التي تركناها وراءنا ونحن نوسع خطانا نحو مصير مشؤوم. لقد شوهت جمالنا الإنساني العظيم قذارات هذا الشوط الطويل الذي قطعناه مبتعدين عن أمنا الطبيعة فبقيت هي بكل جلالها وجبروتها بكل عتوها وجمالها، بكل نقائها الفاتن ونصوعها الأبدي، بسيطة مع هذا كله بساطة القوة الهادرة والجبروت الغالب، بساطة الحياة القاهرة بحيويتها الغائرة الأبدية الجيشان والتدفق... أفلتنا من أحضانها الرحيمة لنلقي بأنفسنا بين مخالب شقائنا الموصول وعذابنا المقيم. خرجنا من نورها العميم لندخل ليل آلامنا ومصائبنا... ولكنها تركت على جباهنا المتمردة طابعها الأبدي طابع الخالق القوي القادر على مخلوقه الضعيف الواهن، ميسم الكل على الجزء، فلا مفر لنا من الرجوع إليها صاغرين بعد انقضاء ليل عذابنا المدلهم، لا مناص لنا من ذلك ولا ندحة لنا عنه. لقد بقينا طويلًا جدًا كلحن مغلوط في موسيقى الوجود، ونشاز كريه في جمال اتساق الكون. جيونو نفسه صيحة داوية آتية الينا من أعالي الجبال، وقيعان الأودية وأعماق الأنهر محملة بشذى الزهر وأنفاس الفجر وريا الأصائل وندى الأمساء ولمعان الشمس الخاطف ولألأ الأضواء وهدير الموج وزئير العاصفة وولولة الرياح ودوي الغاب وجلجلة الرعد وعبير الأرض وأهازيج الكون؛ صيحة كلها حياة وقوة ونور، تجدد حياتنا وتنضرها وتدعونا إلى لون

من السعادة ما كان لنا أن يغيب عن وعينا وإدراكنا، إن كتابه «نشيد العالم» إن هو إلا سمفونية ألحان وأنغام هازجة موقعة على ألف آلة موسيقية أوتارها كل ما في الطبيعة من جمال وفتون من قوة وجبروت من حنان وطغيان من حركة وهدوء وكل ما في الإنسان من بطولة خارقة ومحبة عميقة وقدرة وتفوق واشرئباب، متساوقة جميعًا متجاوبة جميعًا في أعمق ألحانها وأعقد صدحاتها وأروع نغماتها، لا عداء بين الطبيعة والإنسان ولا صراع إنما تكافؤ عجيب بين القوتين واتساق أخاذ بين الإرادتين وصفاء لا تشوبه شائبة بين مظهري الكون والخليقة.

هذا هو جيونو في (نشيد العالم) قد وصل إلى قمة المعرفة واستوعب أسرار الوجود واستكنه غيب الطبيعة وامتزج بها امتزاج العابد بمعبوده والمخلوق بخالقه بعد أن لبث باحثًا منقبًا متقربًا في دؤوب والحاح وراء هذه السعادة في كتابه «لتدم مسيرتي» شارحًا مفسرًا متغنيًا هازجًا ببساطة ذكية واعية في كتابه «الثروات الحقة» إلى أن ينتهي إلى هذا النشيد، نشيد العالم يتسق فيه الإنسان والحيوان والطبيعة في وحدة مطلقة وانسجام تام كأروع ما يكون تآلف الأنغام وتساوقها وانصبابها جميعًا في سمفونية معجزة من سمفونيات بتهوفن.

***

أتراني أستطيع يا أخي أن أمضي في حديثي عن جيونو، إن هذه الرسالة وعشرات الرسائل مثلها لتضيق بذلك إنما حسبي وحسبك ما

قدمت لك وما أظنك إلا ستبحث عن كتبه لتقرأها فتحبها وتحب مؤلفها وتؤمن معه بصدق رسالته وتستجيب لدعوته كلما أتاحت لك الظروف فرصة ذلك فتسعد وقتًا ما يمثل ما أسعد أنا به في هذه القرية الجبلية النائية التي أجد فيها صورًا مما يحدثنا به جيونو في كتبه ومما هو قصة حياته كلها حيال هذه الطبيعة التي لا يفارقها لحظة واحدة يعيش في صميمها دائبًا على الخلق والإبداع كأية شجرة تعطي ثمارها من أحشاء الأرض أم الخصب والخير.

**الرِّسالة الخامسة**

# أندريه ملرو

## وتطوُّرات العصر

«.. إنَّـه ليمـوت وسـط هـؤلاء الذيـن شـد مـا كان يشـتهي أن يعيـش وإيَّاهـم، إنَّـه ليمـوت كأيّ مـن هـؤلاء المطروحـة جثثهـم أمامـه لأنَّ كلا منهـم قـد أعطى معنـى لحياتـه، مـاذا كان يمكـن أن تسـاوي حيـاة لا يسـتهان بالمـوت في سـبيلها. إنَّـه لسـهل ويسـير أن يمـوت المـرء وهـو يعلـم أنَّـه لا يمـوت وحـده..»

«أندريه ملرو – الوضع الإنسـاني»

يا أخي

أكتـب اليـك وقـد عـدت إلى المدينـة موفـور الصحـة، جـم النشـاط، طلـق المحيـا، متفائـلًا شـديد التفـاؤل دون مـا سـبب اللهـم إلا إذا كانـت اقامتـي في قريتـي الجبليـة السـعيدة قـد أفعمـت قلبـي بهـذا اللـون مـن الاطمئنـان القريـر والهـدوء العـذب واسـبغت عـلى نعمـة الصحـة والعافيـة بعـد إذ ابتليـت بمـا أوهـن النفـس وأوهـى العزيمـة وهـد الأعصـاب.

ولكننـي أتسـاءل الآن في كثـير مـن القلـق والإشـفاق عـن مـدى مـا سـيكون في الوسـع احتمالـه وعـما تسـتطيع النفـس الاخـذ بـه مـن الصـبر وعـما يمكـن للأعصـاب أن تطامـن وتحتمـل مـن كل هـذا النكـر مـن كل هـذا الـشر اللذيـن تنـذر بهـما هـذه المدينـة ولمـا يطـل البعـد بيننـا ولمـا يسـتقر بي

المقـام. لقـد غـاض الإشراق يـا أخـي وتعطـل السـحر!

لا أريـد أن أبـدو متشـائمًا أمامـك ولا أريـد كذلـك أن تظـن بي أنانيـة بغيضـة وحبًـا مفرطًـا للـذات. إني لأعلـم علـم اليقـين إن الكثيريـن منـا يقفـون كل يـوم واجفـة قلوبهـم حائـرة نفوسـهم قلقـة ضمائرهـم حيـال مـا يحمـل إليهـم كل صبـاح مـن الخطـوب والأحـداث الجسـام التـي يضطـرب بهـا عالمنـا... يقـول بعـض الساسـة - الذيـن يتجـرون اليـوم بمصائـر الشـعوب ويعدونهـا لمجـزرة آتيـة لحسـاب أسـيادهم إن الوضـع العالمـي اليـوم لا يـكاد يختلـف عـما كان عليـه عـام ١٩١٤ إن لم يكـن أكـثر تعقيـدًا وأدعـى إلى إمعـان النظـر بمـا ينذرنـا مـن شر عظيـم. إنـه لعجيـب حقًـا أن يحاولـوا خداعنـا والتغريـر بنـا بهـذا الأسـلوب المفضـوح. أليـس مـن عجـب أن يعملـوا جاهديـن لخلـق الأزمـات وتمهيـد الطـرق أمـام كل مـا يـؤدي إلى الاضطـراب وإلى كل هـذا الـذي نشـهد مـن خطـوب وأحـداث تروعنـا إيمـا ترويـع وتجعلنـا نرقـب بعيـون زائغـة أن ينفجـر الـبركان فتكـون أنـت وأنـا ونحـن جميعًـا ضحايـاه الرخيصـة عـلى هيـكل أطماعهـم وجنونهـم؟!

ولكـن، إذا كان الـبركان المخيـف لم ينفجـر حتـى اليـوم، فذلـك لأنهم يخشـون ويجزعـون أكـثر مـما نخـاف ونجـزع. إنهـم ينسـجون خيـوط المكيـدة ولا يعرفـون المصـير. إنهـم ليتخبطـون، يـرون نـذر الانهيـار يلـوح أينـما داروا بأبصارهـم. ولكنهـم لـن يتراجعـوا لـن ينكصـوا عـلى أعقابهـم وإن كانـوا في كل خطـوة بخطوتهـا إنمـا يقتربـون نحـو الهاويـة التـي سـتبتلعهم وتطويهـم في أعماقهـا المخيفـة.

إن النضال البطولي الخارق في إسبانيا نضال شعب بأكمله يكافح عن حريته وخبزه وإنسانيته ضد قوى البغي المجنونة ممثلة بفرانكو وجيوشه وأسلحته وقوى الهلاك والتدمير التي يقدمها الدوتشه والفوهرر لتبيد شعبًا بأكمله. إن النضال البطولي الآخر في أقاصي الصين نضال عن الحرية والكرامة؛ النضال في كل ناحية من هذه الحرية المخنوقة وفي سبيل الخبز ودفع الطغيان والقضاء على الفوارق وكل ما من شأنه أن يذل الإنسان ويزيد في مهانته.

كل هذا يقض مضاجع المتاجرين بدم الإنسان. إنه ليخيفهم ويروعهم ويلقي اليأس في قلوبهم، ولكن التيار يدفعهم دفعًا - رغم كل حذرهم – نحو الهاوية، إن اليوم الذي يتحرر فيه الإنسان من عبوديته فيحطم قيوده ويحطم رؤوس مستعبديه ليس ببعيد، لن تحول دون مجيئه مشرقًا، شديد اللمعان والوهج، قوة بالغة ما بلغت، من قوى الطغيان والبغي، حتى لو اضطر الإنسان أن يعبر إليه على نهر من دماء وركام من أشلاء.

المفكر الشريف لم يعد يكتفي بأن يطل على العالم من «برجه العاجي»، لم يعد يكتفي حتى بأن يؤدي رساله بأفكار تذاع وكلام ينشر، يا للروعة لقد نزل هذا المفكر إلى الميدان، ميدان العمل، ميدان النضال، إنه ليحمل قلمه ويتنكب بندقيته ويدافع عن الإنسان المهين، عن حريته وخبزه وسعادته.

إنه يضع أفكاره وكلماته اللاهبة، في خدمة هذا الإنسان المعذب، إنه

يشهر قلمه كسيف رهيب ويصوب بندقيته بحذق وقوة إرادة عاتية، وإنه ليعلم حق العلم ما يكلفه هذا من حزن وما يبتليه من مرارة أن يضطر إلى سفك الدم وإزهاق النفوس، وهو صاحب المبادئ النبيلة في إنسانيتها العميقة، هو الذي يحب الإنسان ويمجده ويضحي بحياته في سبيل سعادته وانقضاء يوم شقائه. لكنه يرى والحزن يملأ قلبه - أن المبادئ الإنسانية الرائعة ستظل دائما أحلامًا جميلة في رؤوس أصحابها، ما لم تتحقق، ما لم تعد واقعًا ملموسًا، حيًا، نابضًا، ولن يكون ذلك إلا ثمرة نضال فاجع ترخص فيه الأرواح، وتستباح فيه الدماء. إنه لشر ولكن لا بد منه وا أسفاه!

أكتب إليك، يا أخي، وقد فرغت من قراءة كثير من هذه الخطب التي ألقيت في مؤتمرات ثلاثة عقدت في مدريد وفلانس وباريس وضمت أنبغ وأشهر كتاب العام ومفكريه، ليس للدفاع عن الثقافة فحسب بل للدفاع عن الإنسان المهدد، الإنسان الفريسة، الإنسان الذي يجاهد جهاد الأبطال عن حياته وخبزه وسعادته. إن الكثيرين من هؤلاء المفكرين لم يكتف بخطاب يلقى أو كلمة تقال، لم يكتف بأن يذهب من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر داعيًا إلى مؤازرة هذا الشعب الإسباني النبيل في نضاله الرائع؛ بل إن من هؤلاء المفكرين، كثيرًا منهم، قد لبس ثوب المحارب، ليجاهد جهادا حقا في سبيل مبادئه وفي سبيل كل ما يعطي لحياة الإنسان قيمتها الرفيعة ومعناها العميق. وانه ليلقي، في كثير من الأحيان، الموت في ارتياح لا مزيد عليه، لأنه يعلم أنه إنما يضحي في سبيل الحق والواجب، في سبيل هذا الإنسان التعس

الـذي يحبـه ويمجـده، ويريـد أن تصبـح حياتـه سـعيدة حقًـا، جميلـة حقًـا، خصبـة حقًـا. إن مفكـر اليـوم؛ المفكـر الشريـف، إنسـان وصـل بـه ضميره وقلبـه وعقلـه إلى أنبـل وأجـل مـا يمكـن أن يتصـوره العقـل مـن سـمو وكـمال. ومتـى اسـتطاع الإنسـان أن يضـع حياتـه عـلى كفـه في سـبيل مبـدأ يبـذل الحيـاة لنصرتـه والـذود عنـه وتحقيقـه، فقـد وصـل إلى غايـة مـا تتشـوف إليـه القلـوب الكبـيرة النـادرة.

وأندريـه ملـرو، يـا أخـي، مـن هـؤلاء الكتـاب المفكريـن الذيـن لا قيمـة لحياتهـم عندهـم إلا مـن حيـث تكـون هـذه الحيـاة ذات أثـر بعيـد فيـما يعـود عـلى «الإنسـان» مـن خـير مطلـق وسـعادة شـاملة. إنـه ليضـع مواهبه جميعًـا، حياتـه كلهـا، جـسرًا يعـبر عليـه الإنسـان إلى شـاطئ الخـلاص مـن كل مـا يذلـه و يشـوه جمالـه ويزيـد تعاسـته. إنـه المثـل الأعـلى للمفكـر الشريـف الـذي يجـب أن يتطلـع اليـه كل مـن يحمـل قلـمًا في شرقنـا العـربي التاعـس. صفحـة واحـدة اقرأهـا لـه لتهـزني هـزًا وتجعلنـي أنظـر إلى كل هـذا الهـراء الـذي يضـج، مماسـيخ الكتـاب عندنـا مـن أعـالي «بروجهـم العاجيـة» و»قصورهـم المسـحورة» نظـرة إشـفاق ورثـاء.

إننـا أمـام مفكـر واقـف لعـصره بالمرصـاد. ولكنـه لا يكتفـي بالملاحظـة والوقـوف موقـف التذبـذب والنفـاق حيـال مـا يقلـق الإنسـان، ومصـير هـذا الإنسـان في غمـر التقلبـات والتطـورات التـي تجتـاح حياتـه اجتياحًـا. إنـه لينـزل إلى الميـدان ويختـبر بنفسـه آلام هـذا الإنسـان وعذاباتـه، دائمًـا عـلى دراسـة نضالـه وجهـاده الشـاقين. بـل إنـه ليجاهـد وإيـاه ويشـاهد بـأم عينـه جراحاتـه، ويصافـح وجهًـا لوجـه مآسـيه وفواجعـه؛ ثـم يرتـد فجـأة إلى

شبه وحدة فاتنة يخلو بها إلى نفسه فيفرغ على الورق كل اختباراته ومشاهداته وصور هذه الساعات الحافلة التي عاشها في صميم النضال البطولي والجهاد الرائع جنبًا إلى جنب مع الشعب المقهور، المتمرد على مصيره، الناقم على استعباده ومستعبديه، فما يكاد يفرغ من عمله هذا حتى يعود ثانية إلى الميدان بعزم جديد، يتابع جهاده في أصرار وإرادة عاتية، إلى جانب المستضعفين الذين ينهضون في كل ناحية نهوض الجبابرة منافحين عن حقهم في الحياة، عن حريتهم، عن خبزهم، وعن سعادتهم.

اقرأ له كتاب «الوضع العالمي La Condition Humaine» حيث ينتقل بك إلى الصين، الصين المجاهدة التي تقرأ كل يوم صفحة جديدة من صفحات مأساتها المروعة. هذه الصين التي لم تكن تعرف عنها شيئًا سوى إنها منحلة، يمتصها المتمول الأبيض امتصاصًا وهي غارقة في سحب أبدية من أفيونها المميت تغط في بحران اللاوعي، ولكن ملرو يعطيك وجهًا آخر لهذه الصين التي أخذ دبيب الثورة يدب في كيانها ويهزها هزًا من سباتها العميق، فتلتفت مذعورة، هالعة، وسط جحيمها الاقطاعي المخيف، وامتصاص المتمول الأبيض إياها امتصاصًا من نخاع العظم. انظر إلى هذه الثورة التي يضطلع بها أهل الجنوب، ثم انظر إلى هذه العناصر المتمردة على ذلها في كل مكان، وإلى هذه النفوس التي تقدم على كل شيء حتى على الجريمة والفتك والاغتيال. إن في كل قلب لحقدًا مخيفًا بدفع بصاحبه إلى الاستهتار بالحياة نفسها إذ «ماذا يمكن أن تساوي حياة لا يستهان بالموت في سبيلها».

إن ملـرو يضعنـا هنـا وجهًـا لوجـه أمـام المـوت كـما لم يخـل مـن ذلـك كتـاب مـن كتبـه، ولكـن هـذا المـوت ليـس إنـكارًا للحيـاة وزهـدًا بهـا، إنمـا هـو تعزيـز الحيـاة وإكبـار مـن شـأنها وتمجيـد لهـا: إن أبطـال ملـرو ليضحـون بحياتهـم ويبذلونهـا بـذلًا سـخيًا ولكـن في بطولـة خارقـة، في جـبروت معجـز، في وهـج خاطـف، لأن ذلـك هـو السـبيل الوحيـد الـذي يـؤدي إلى الحيـاة الموفـورة، إن التضحيـة هنـا لتغـدو حقًـا شـديدة الوهـج والضيـاء، وإنـه حقًـا لسـهل ويسـير أن يمـوت المـرء وهـو يعلـم أنـه لا يمـوت وحـده.

فـإذا انتقلـت إلى كتابـه الآخـر «زمـن المهانـة Le temps du Mepris» فـإذا أمامـك صـور مروعـة لـكل هـذه التعاسـة التـي يعيـش في سـعيرها الشـعب الألمـاني وقـد ضرب اللـه عليـه النـازي مثـلا في شـخص هتلـر. فـإذا السـجون قـد امتـلأت بضحايـا هـذا العهـد البغيـض، وحشـدت جمـوع الأبريـاء في ميادين التجمـع (Camps de Concentration) يلقـون في أعـماق السـجون وفسـحات هـذه الميادين مـن التنكيـل والتعذيـب والمهانـة مـا لا يمكـن أن يتصـوره العقـل. إنـه لزمـن قـد هانـت فيـه حيـاة الإنسـان حقًـا. ولكـن المقاومـة مـع ذلـك لم يقـض عليهـا تمامًـا والحقـد الأصيـل مضغـوط ضغطًـا في النفـوس، والكراهيـة تمـلأ كل قلـب، وسـيأتي يـوم تضيـق فيـه النفـوس بـكل هـذا الـشر فتنفجـر مسـتهترة هـي الأخـرى بالسـجون وميادين التجمـع وبالحيـاة نفسـها، إن الحريـة لـن تفقـد ثمنهـا الغـالي والتـي لهـا بـاب «بـكل يـد مضرجـة يـدق» عـلى حـد قـول شـوقي.

فلنـسر خطـوة أخـرى مـع ملـرو هـذا الـذي لا يريـد أن يبتعـد قيـد انملـة عـن فواجـع عـصره ومآسـيه كأنمـا هـو مشـدود إليـه بوثـاق. فلنذهـب

معه إلى إسبانيا على ضوء كتابه «الأمل L›Espoir»، لم يكن ملرو ثمة كاتبًا فحسب إنما جنديًا يحمل البندقية ويغامر بحياته. إنها لصفحة لا يدانيها في القوة والإشراق شيء بالغًا ما بلغ. إن قلم ملرو وحده هو الذي يستطيع أن يصف بطولة الشعب الإسباني وجهاده العنيف ونضاله الهائل. إنه ليكاد يصور بطولة كل فرد، كل رجل، كل امرأة... شعب بأسره إما أن ينتصر ويفوز ويقضي على قوى البغي والطغيان وإما ألا يكون أهلًا للحياة. ولكنه أي إيمان هذا الذي يجعل المجموع كله، كل فرد فيه، يضع حياته على كتفه، يترقب الموت كل لحظة في سبيل حريته وخبزه وسعادته؟

هذا هو ملرو، يا أخي، هومير القرن العشرين، ومسجل صور البطولة الناضلة فيه من صميم التعاسة الإنسانية وفواجعها متطلعة إلى مجيء ذلك اليوم الذي لن يكون فيه النضال في سبيل الحرية والخبز والسعادة، بل في سبيل كل ما يضيف نصرًا جديدًا إلى انتصارات الإنسان في ميادين العلم والمعرفة والتغلب على الطبيعة ليبلغ بإنسانيته إلى غاية السمو والكمال.

# مُطالَعَات

# أندريه جيد

## من خلال بعض كتبه

## تحليـل ونقد - البحث عن الحقيقة

«... إنَّمـا أقـول إنَّ المجتمـع كاذب ومنافـق حـين يعـدو عـلى الشَّـعب فيخنـق صوتـه المنبعـث ويجـول بينـه وبـين الإفضـاء بمـا في صـدره، حـين يضطهـده الشـعب ويسـتعبد ويـذل ويقـاد إلى حالـة مخيفـة مـن الحيوانيـة، والجهـل إلى حـد لا يعـود فيـه قـادرا عـلى التَّعبـير عـن ذاتـه نفسـه»

«أندريه جيد»

لقـد أرهقنـي «جيـد» طـوال هـذا الأسـبوع، أو لعـل الكلمـة «أرهقنـي» شـديدة - نابيـة، لا ينبغـي أن يقولهـا أو يتمثلهـا مـن عـرف جيـد وقـرأ لـه وعايشـه زمنًـا طويـلًا. فليـس «جيـد» بالكاتـب المتعـب الـذي يثقـل عـلى الذهـن بغمـوض تفكـيره والتـواء أسـلوبه وتعمـده الاغـراب. «جيـد» كاتـب عميـق ومفكـر قلـما يوجـد لـه نـد - في هـذا العـصر - يدانيـه خصوبـة التفكـير وقـوة العارضـة واتسـاع أفـق النفـس وأصالـة الـرأي والنفـاذ إلى لبـاب الأشـياء بقـوة ذهنيـة مشرقـة متوهجـة، إنمـا هـو إلى هـذا يبـدو لأول وهلـة سـاذجًا لصفـاء أسـلوبه وإشراق ديباجتـه وبعـده عـن التعقيـد. إذن فهـو لم يرهقنـي، إنمـا الأصـح، اسـتأثر بمعظـم الوقـت الـذي أخلـو بـه إلى كتبـي وحيـاتي الفكريـة، فلـم أقـرأ -مـدى هـذا الأسـبوع شـيئًا لغـيره،

انصرفت له انصرافًا تامًا وعكفت على مراجعة ما قرأت في كتبه خلال الأعوام الماضية. لعل السبب في ذلك أن الرجل كان - في الفترة الأخيرة مثار جدل كثير ولغط لا حد له لإعلانه الانضمام إلى الاشتراكية وانضوائه تحت لوائها واعتناقه لمبادئها وانصرافه إلى نصرتها.

لقد كان لهذا دوي هائل في الأوساط الأدبية في فرنسا أو على الأصح في الأوساط الأدبية البرجوازية المنافقة. كان انضمام «جيد» إلى الاشتراكية سبب ذعر وفزع لأصنام الأدب المترف، أدب الذهب والقصور، فلا داع للدهشة إذا كان ما أثير حول «جيد» قد جعلني في مراجعة بعض كتبه وآرائه في حالة قوية من «النهم» الذهني، غرضي من هذا كله أن أعرف مدى تطور «جيد» الثقافي التدريجي - لو صح التعبير - الذي انتهى به أخيرًا إلى اعتناق الاشتراكية وجعلها قاعدة تتمركز عليها إعماله الأدبية الماضية والآتية، أردت أن أعرف هل كانت طفرة منه، هل قفز قفزًا إلى الاشتراكية دون تبصر وامعان نظر وتطور منطقي لثقافته ونفسيته وشعوره لا لسبب إلا لإثارة اللغط وإحداث دهشة في أذهان المثقفين، وعهدنا بـ»جيد» مفكرًا رصينًا لا يندفع مع الهوى ولا يضله غرور ولا يفتنه عارض من الزهو؟

الواقع إن حياة «جيد» الفكرية حياة خصيبة مليئة، حياة نزيهة، بيضاء لا أثر فيها للرياء والتذبذب، لم يتخذ قط من ثقافته ومواهبه ستارًا للخداع والتلاعب والغش، فان بعض المفكرين في هذا العصر يعمد إلى الأدب، إلى التلاعب الأدبي، كما يعمد المضارب في البورصة أو المقامر إلى

وسائل واحابيل تؤدي جميعًا إلى الغش والتزوير والاختلاس، «جيد» كان بعيدًا عن هذه القذارات لأنه كان رجلًا أرصد حياته ومواهبه وفكره لتحقيق مثل أعلى يصل به آخر الأمر إلى الحقيقة القوية الوهج، الأبدية الاشتعال، تتبلور فيها الإنسانية من خطيئات الماضي وقذارات الحاضر وتتجه إلى المستقبل نقية، طاهرة، ناصمة، تستقبل شآبيب نور جديد غدق، آية الغفران، تنبعث منه صدحات فنية حارة، هي أهازيج وأناشيد حياة جديدة، موفورة، على الأرض.

عاش بقلبه وفكره وضميره، دائم البحث، دائم القلق، دائم الظمأ إلى ري هذه الحقيقة، في الخير، في الشر، هو أبدًا هذا الباحث المعذب عن ضالته الغالية، إذ لعل في الشر نفسه ينبثق له من بين ظلمات وأرجاس، نور هذه المعرفة، نور هذه الحقيقة ذات الوهج والضياء. أليس هو القائل: «آمل أن أكون قد عرفت الأهواء والشوائب جميعًا، إن كياني كله وثب إلى العقائد كلها، ولقد كنت في حال من الجنون، بعض الأمسية، حتى خيل إليّ إنني أضحيت أومن بنفسي لفرط شعوري بأنها تكاد تتفلت من جسدي».

حاول عن طريق الحب، حب كل شيء باهر، محمل بعبير الطبيعة النقية، الخالدة، مثقل بنفثات الكون الهازج بأحلى الأنغام وأروع الصدحات، أن يصل، أن يبلغ أمنيته، أن يلمس الحقيقة بعقله وحسه وإشراق بصيرته. ألا يقول: «ناثنائيل، سأعلمك التشوف وأبث فيك الحرارة، إن أعمالنا تعلق بنا كما يعلق بالفسفور وهجه وبريقه، الحق

أن أعمالنا تذيبنا وتصهرنا ولكنها هي سبب جمالنا وروعتنا، وإذا كان لنفسنا بعض القدر ذلك لأن اشتعالها كان أشد توقدًا من بعض النفوس الآخر - لقد رأيتك ايتها الحقول الواسعة اليانعة تغمرك أنوار الفجر الناصعة، وأنت أيتها البحيرات الزرق لقد اغتسلت في مياهك الدافقة، ولن أني أرده بأن كل نسمة هبت ناعمة مشرقة جعلت شفتي تنفرجان عن الابتسام، ناثنائيل سأعلمك التشوف وأبث فيك الحرارة، لو أني عرفت أشياء أجمل وأروع لكانت هي التي أعيدها على مسمعك، هي وليس غيرها. إنك لم تعلمني الحكمة يا «مينلك» لقد علمتني الحب».

فتح صدره لأصداء هذا الحب تضج في أنحاء صدره وروحه وتخبله وتدفع به إلى ضرب من التصوف الديني، هذا التصوف الذي يجد في كل دقيق خاف في الطبيعة سرًا كبيرًا من أسرار الله، وآية رائعة من آيات الكون. كان «جيد» في بدء حياته شديد الإيمان خاشع القلب، ولكنه إيمان آخر، إيمان لا صلة بينه وبين الإيمان الفاجر الوقح، الذي يطلب الشقاء والحرمان على الأرض ليحظى بالسماء، كان يباع كل شبر فيها بمال البؤساء التاعسين بصكوك وعقود ممهورة عليها أختام (البابوات) ظلال الله على الأرض، الذين لا يخطئون ولا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم! إيمان «جيد» لاصق في الأرض، جذوره ثابتة في أحشائها، إنه يتغذى بأغذيتها، ينشد صلوات وأدعية حارة منبعثة من أعماق أحشاء محبة والهة، كلها تمجد الأرض وتشدو بأفاويق نعيمها، وتهتف مسبحة بما ثبت من خيرات تعود بالرفاهية والنعيم

على الإنسان والحيوان، تكون لهما ثمرات حياة متجددة، متعاقبة على الأجيال والعصور ما دام هناك طبيعة تتفجر من أحشائها حياة الأرض والإنسان وكل الأحياء هاك أحد هذه الإنشاد:

«لا أقنع بأن أقرأ أن رمال الشاطئ ناعمة، حريرية، إنما أريد أن تحس هذا قدماي، كل معرفة لم يسبقها إحساس لا فائدة لي من ورائها، لم أر في حياتي شيئًا يفيض رقة وعذوبة دون أن أشتهي على الفور أن يمسه حناني. يا جمال الأرض الحبيبة: شد ما يبهرني تفتح الحياة وازدهارها على أديمك! أيتها الطبيعة التي غرست فيها شوقي، أيها الأرجاء المضيئة حيث يسير فيها بحثي وتنقيبي، أيها المرات التي تظلها أوراق البردي، أيها الغاب المنحنى على ضفة النهر، أيها الأغصان والأوراق المتشابكة الكثيفة يبدو خلال منفرجاتك المرج المترامي الأطراف كأمل فسيح لا حد له إن فيك جمالًا وسحرًا. أجل لقد سرت وئيد الخطى بين منفرجات الصخور وفي ممرات الخضرة النامية، لقد رأيت فصول الربيع تمر يعقب بعضها بعضًا»

على نور العاطفة المتوهجة، على توفز الحس، وتوقد البصيرة المؤاتية، على صفاء الروح المتشوف، المتقد حرارة وحياة، على هدى الحب أراد أن يفهم أسرار الحياة، ويفك هذه الطلاسم والرموز تكمن وراءها الفضيلة الكبرى، فضيلة الفضائل: الحقيقة. ولكن الطريق طويل ممتد الآفاق، والعمر ما يزال في أوله والشوط عند بدايته، عليه أن يواصل السير، يتابع الحياة في مجراها الأبدي، أن يختبر، أن يمر بأدوار شتى، أن

تتألب عليه حشود الألم وعصفات الأيام، أن ينغمس في الشر، ويتطهر في ينابيع الخير الفياضة، أن يدرس ويقارن ويفتح صدره للمعرفة والاستيعاب كما أباح أرجاءه لأهازيج الحب. عندئذ سيكمل ويغدو إنسانًا كاملًا لأن اخلاصه لفكره وفنه وضميره سيوصله حتمًا إلى الفضيلة الكبرى، إلى الحقيقة.

جمع بين قدس الحب وحرارة الإيمان الديني القوي، خيل له إنه يؤلف من هاتين الفضيلتين وحدة كاملة تامة، مطهرة، تنير أمامه السبيل وتقرب المسافة بينه وبين الوضوح واستكناه الحق. قرن هذا بذاك وعاش حياة طهرية بحتة وجعل قلبه وعقله هيكلًا تردد فيه أناشيد الحب وأدعية الإيمان الصارم العابس، فخرج من هذا كله بالحرمان، أراد أن ينقذ روحه بتعذيب جسده، على حساب الغرائز وبدوات البدن وميول الجسد فصور لنا هذا الصراع الهائل المميت على أقوى صوره في قصته القوية «الباب الضيق La Porte Etroite» فإذا نحن أمام ضرب رائع من تمجيد الحب والسمو به على أنقاض البدن الصريع في موكب الحرمان تجف بهذا كله لوافح دينية خانقة فوصل الأرض بالسماء حين نجد هذه وتلك في كتابه «أغذية الأرض» و«الباب الضيق» وهاك فقرتين من هذه القصة المدهشة الأولى على لسان البطل والثانية من مذكرات البطلة في نهاية القصة.

«قرأ القس بادئ الأمر الآية الأولى:

«تزاحمـوا وابذلـوا الجهـد لتعـبروا البـاب الضيـق، لأن البـاب الوسـيع والطريـق الرحيـب يؤديـان إلى ضيـاع النفـس وكثـيرون هـم الذيـن يعـبرون منـه. ولكنـه ضيـق البـاب الـذي يـؤدي إلى «الحيـاة»، ومحصـور الطريـق الـذي يقـود إليهـا وقليلـون، هـم الذيـن يهتـدون إليهـما» ثـم بعـد أن فصـل نواحـي الموضـوع، أخـذ بـادئ الأمـر يتحـدث عـن الطريـق الرحـب، فلاحـت لي حينئـذ، وقـد ضـاع رشـدي وخيـل لي أننـي في حلـم غرفـة عمتـي وقـد اسـتلقت عـلى سريرهـا وراحـت تضـج في الضحـك، والضابـط الأنيـق يضحـك هـو الآخـر بجانبهـا. فبـدا لي تصـور الضحـك نفسـه، تخيـل الـسرور، مؤلمًـا، جارحًـا، كلـه إسـاءة عميقـة، بالغـة، يتحـول بسرعـة إلى خطيئـة هائلـة، مجسـمة!» وفي نهايـة القصـة مـن مذكـرات البطلـة:

«إلهـي أردت أن نتقـدم إليـك، جـيروم وأنـا، الواحـد مـع الآخـر، الواحـد يعضـد الآخـر، أن نسـير طـوال الحيـاة كسـائحين يقـول أحدهـما للآخـر بعـض الأحيـان «اسـتند إلي أيهـا الأخ إذا نالـك التعـب» فيجيبـه الآخـر «بحسـبي أن أشـعر بـك بجانبـي» ولكـن لا! إن الطريـق التـي ترشـدنا إليهـا، يـا إلهـي، طريـق ضيقـة إلى حـد لا قـدرة لاثنـين المسـير فيهـا جنبًـا إلى جنـب»

هـذه القصـة، أو قـل هـذا النسـق، الـذي جـرى عليـه «جيـد» في هـذه القصـة فمـزج بـين الحـب عـلى أقـوى مـا يكـون الحـب، وبـين الديـن أو الاحسـاس الدينـي «الطهـرى» عـلى أشـد مـا يكـون هـذا الإحسـاس، وخيـل لـه إنـه سـيخرج مـن هـذا المزيـج «وحـدة» تامـة لا نقـص فيهـا ولا شـائبة

تعلق بها إلى حد جعل شخوصه في هذه القصة «ضحايا» ترضى بالألم والعذاب، بل تطلب هذا الألم بشدة وإلحاح لتتطهر وتسمو وتتجرد من شوائب الجسد وطغيان الغرائز وهي تدري وتعي وتجد العزاء بل النعيم في هذا العذاب. أقول إن تصوير هذا الصراع الهائل والافتتان في تحليل جزئياته وأثره المختلف الألوان في نفوس هؤلاء الشخوص بلغ من القوة والحذق والقدرة والتفوق حدًا لا سبيل لأي قلم آخر إلى بلوغه أو التطلع إليه.

وهذه القصة دون ريب المرحلة الثانية في حياته الفكرية مع ما مهد لها وتبعها من بواعث وأسباب ونتائج. كما أن كتابه «أغذية الأرض» المرحلة الأولى الفطرية بما فيها من اندفاع عاطفي فني متوفز حار يلائم الإحساس البكر ودهشة الوعي الأول وبريق الحياة بكل بهارجها وروائع آياتها لدى النظرة الأولى.

ثم تأتي أدوار جديدة يمر بها «جيد» معقدة مغلقة عسيرة تحدث في إحساسه وفطرته وتفكيره آثارًا متباينة توضح الطريق وتظهر الشر في استشرائه وطغيانه أمام الخير المستسلم المطمئن في سبحاته الرحيمة تطامن من حدة الشر وتكسر شرته ولكنها لا تنفيه ولا تقضي عليه. عندئذ تبدو «لجيد» الحياة من شتى نواحيها فيها الجمال الرائع والقبح الشائه فيها السمو والاسفاف فيها الرحمة والنقمة فيها الغفران والطيبة وفيها الجريمة والعقاب. الخير والشر على شتى صورهما ومختلف ألوانها. فازداد نظره نفاذا وذكاؤه حدة وإحساسه عمقًا

وفطرتـه توقـدًا تمثـل هـذا الـدور في حيـاة «جيـد» الفكريـة كتبـه الأكـثر دلالـة مـن غيرهـا وهـي: «الأنشـودة الرعويـة Le Symphonie Pastorale» و«إذا لم تمـت الحبـة Sile grain ne meurt» و«مزيفـو النقـود -Les Faux Monnayeurs» وغيرهـا. هنـا تبـدو «ملامـح جيـد» معقـدة صارمـة فيهـا تجهـم واربـداد فقـد عـاش طويـلًا واختـبر كثـيرًا وقطـع مـن الشـوط اكـثره وتبـدت لـه حقائـق الدنيـا وأسرار الكـون في تعقدهـا وتناقضهـا وتلاعبهـا بمقـدرات الإنسـان وظهـرت لـه الميـول والغرائـز والأهـواء. الإنسـان عرضـة دائمـة لتشوشـها واسـتبدادها وتلاعبهـا. فأفـرغ ذلـك كلـه في انتاجـه الأدبي وفي تآليفـه العديـدة. ومـا قصتـه الرائعـة «الأنشـودة الرعويـة» إلا إيقـاع متعـدد النغـم واللحـن في انسـجام واتسـاق كامـل تعـبر كلهـا عـن صراع الخـير والـشر أو بتعبـير أدق عـن تغلـب الـشر عـلى الخـير واجتياحـه إيـاه. فـإن هـذه الفتـاة الضريـرة عـثر عليهـا القـس في غرفـة مظلمـة عنـد سريـر عجـوز محتـضر. في حالـة القـذارة والبكـم وعـدم الإحسـاس والوعـي حتـى لكأنهـا حيـوان أعجـم. هـذه الفتـاة الضريـرة يأخذهـا القـس إلى بيتـه عنـد امرأتـه وينتشـلها مـن صميـم حيوانيتهـا ليردهـا إلى الحيـاة الإنسـانية ويـروح يفتـح بصيرتهـا ويوقـظ مشـاعرها ويسـكب في قلبهـا وروحهـا النـور - رغـم مقاومـة امرأتـه إيـاه - وهـو مندفـع في عملـه هـذا عـلى باعـث مـن الخـير والرحمـة والإنسـانية وقـد بلغـت عنايتـه وذهـب اهتمامـه بهـذه المخلوقـة التـي راحـت تنفتـح بـين يديـه كـما تتفتـح الزهـرة النديـة لسـاري الطـل إلى حـد أنـه جعـل وكـده أن يقـرب لذهنهـا وبصيرتهـا الألـوان وصـور المرئيـات بـأن يقربهـا بمـا ينـد عـن الطبيعـة والطـير مـن صـوت ونغـم وبمـا ينبعـث

مـن الموسـيقى مـن ألحـان، فتفتحـت روحهـا وأشرقـت بصيرتهـا بعـد أن سـمعت في ذات يـوم في حفـل موسـيقي رائـع في الريـف قطعـة «بتهوفـن» الشـهيرة «الأنشـودة الرعويـة» ولاءمـت بـين ألحانهـا وأنغامهـا وبـين الصـور التـي جهـد القـس في تقريـب أشـكالها وألوانهـا إلى ذهنـا فـإذا هـي فجـأة تصيـح صيحـه الفـرح والدهشـة إذ اكتشـفت جـمال الألـوان والصـور المـودع في الطبيعـة والمنبـث في كل جليـل ودقيـق مـن مظاهرهـا عـلى هـدى هـذه السـمفونية المدهشـة. ولكـن شـيئًا واحـدًا لم تـدرك كنهـه هـو أن بتهوفـن صـور الخـير والجـمال في سـمفونيته ليـس كـما هـما موجـودان في الحيـاة بـل كـما يجـب أن يكونـا أي خاليـين مـن عنـاصر الـشر والقبـح. جـن بهـا القـس. ألم يخلقهـا مـن العـدم؟ أليسـت صنيعتـه؟ أليسـت عمـل حياتـه؟ أليسـت مثلـه الأعـلى يتحقـق؟ فقـد صوابـه وجاشـت نفسـه بحـب هـذه المخلوقـة الضريـرة الرائعـة الجـمال. وأحبتـه هـي. أحبـت معلمهـا وخالقهـا. أحبتـه عـلى صـورة مـن الخـير الـذي تتمثلـه فيـه. فهجـر القـس زوجـه وأبعـد ابنـه الشـاب الـذي بـدا لـه أنـه ينافسـه في حـب «جرتـرود» وبقيـت لـه وحـده. محظيتـه. خليلتـه. عشـيقته. لقـد كفـر القـس وانحـط وتسـفل وهـو يـدرك هـذا كلـه ولكـن «جرتـرود» لا تـدرك شـيئًا مـن ذلـك لأنهـا مسـوقة بفطـرة خـيرة لم تتفتـح عـلى الـشر. وحـدث أن التقـى بهـا طبيـب ماهـر هـو صديـق للقـس فزعـم أن بالإمـكان رد بصرهـا إليهـا بعمليـة جراحيـة بسـيطة. وتتـم المعجـزة وتعـود «جرتـرود» مفتوحـة العينـين. وقـد رأت الآن بـأم عينهـا جـمال الطبيعـة وسـدها فـإذا هـو يـكاد يكـون طبـق الأصـل عـما تخيلتـه مـن قبـل وإذا هـي مأخـوذة بروعـة الكـون وجـلال

الطبيعة وفرحة البصر. تقع عيناها على عائلة القس جاءت تستقبلها عند قدومها إلى القرية وشاهدت القس. الشيخ الفاني، القبيح الجسم. وقارنته بابنه الشاب، يمثل الشباب والجمال، عندئذ فهمت الشر وأدركت ما غاب عنها فهتفت من أعماق أحشائها لو أنها ظلت ضريرة لا ترى. ولا تحتمل «جرترود» هذا العذاب فتفضل الانتحار بأن تلقي نفسها في النهر.

على هذا النسق سار أندريه جيد وقطع في هذا الدور شوطًا كبيرًا. لكنه كان كأنما يحس دائمًا النقص في كل شيء فما مبعث هذا الإحساس؟ وأين يكمن السر؟ عاش كأشرف وأعمق ما يعيش المفكر المخلص النزيه. أولع بالفن والأشكال والأوضاع الفنية في الأدب والشعر وأنتج في هذا كله أروع ما ينتجه فنان قدير عبقري. أخلص للبحث. أرصد حياته يقارن ويستنتج ويسبر أغوار النفس البشرية. سافر كثيرًا وعرف شعوبًا وقبائل. ذهب يسعى لاستكناه أسرار الخير والشر ولكن ما يزال هناك نقص وما يزال يشعر أنه يجب أن يستكمل هذا النقص. ولكن أين السبيل؟ لم يطل به الأمر بينه وبين الحقيقة العليا الحقيقة الإنسانية الطاهرة خطوة واحدة أن يخطها فقد وصل ووضع يده على مكمن الداء وسبب النقص. أجل لقد عرف أخيرًا أنه عاش يعمل للخير والحق والجمال في مجتمع ينكر هؤلاء جميعًا. حوله نفاق ورياء نظام وأوضاع تشيع الظلم وتقيم الفوارق وتجعل من البشر طبقات يقوم بعضها على بعض ويستثمر بعضها بعضًا وتصبغ صور الخير ومظاهر

الحـق صبغـة سـوداء وتحيلهـا شرًا كلهـا. لا خـلاص إذن إلا إذا دكـت هـذه النظـم والفـوارق والأوضـاع دكًا واحيلـت جميعًـا ركامًـا بعضهـا فـوق بعـض لتقـوم مكانهـا مبـادئ ونظـم منصفـة تحـرر الشـعوب وتفـك أسـار الجماعـات ليكـون الانطـلاق قويًـا مجتاحًـا والانعتـاق داويًـا مزمجـرًا يعـلي صـوت الحـق ويقـر فضيلـة الفضائـل عـلى الأرض: «السـعادة الجميـع». عندئـذ يثمـر الجـمال ويثمـر الخـير ويثمـر الحـق.

واتجـه «جيـد» بكلـه إلى النـور الجديـد المنبثـق هنـاك في تلـك البقعـة المائيـة حيـث يعمـل ويكـد شـعب بـأسره لتحريـر الإنسـانية وفـك اسـار الـذل ولوثـة الأجيـال عـلى الإنسـان. لقـد قـال «جيـد» كلمـة الحـق في مؤتمـر الثقافـة العالمـي الـذي عقـد بقاعـة «المتواليتـه» بباريـس خـلال «يونيـو» المـاضي. قالهـا بمـلء فيـه. جهـر بهـا بقـوة رائعـة مزمجـرة هـزت مشـاعر الجماهـير الحاشـدة وجعلتهـا تندفـع بحـماس وتقديـس نحـو هـذا الشـيخ الـذي أوصلـه إخلاصـه لفكـره وفنـه وضمـيره إلى الفضيلـة الكـبرى؛ إلى الحقيقـة.

وبعـد فهـذه دراسـة لم ارد بهـا أن أتقـصى أعـمال «جيـد» جميعًـا ولا أزعـم أني أوفيـت بهـا عـلى الغايـة إنمـا هـي كلمـة أو لمحـة سريعـة أردت أن أظهـر بهـا تقديـري واجـلالي لشـخصية أدركـت أيـن هـو الحـق فاتجهـت إليـه سـافرة لا تخـشى في سـبال إقـراره والـذود عنـه والعمـل عـلى رفعتـه قـوة بالغـة مـا بلغـت هـذه القـوة مـن عسـف.

ملحوظـة: لا تتسـع هـذه الدراسـة السريعـة للوقـوف عنـد قصـة جيـد

المعرفة والتي يعدها بعض النقاد أعظم أعماله الأدبية «مزيفو النقود». وفي رأيي أن هذا العمل يستدعي دراسة خاصة مفصلة فإن جيد حاول أن يغير مجرى القصة الأوربية ويبدل أصولها ويختط لها أسلوبًا جديدًا ما يزال حتى اليوم موضع نقاش وجدل عند النقاد جميعًا ولا نعرف ماذا يخبئ المستقبل لهذه المحاولة الجريئة من حظ. وأغلب الظن أنها ستظل محاولة فريدة في الأدب قد لا تبقي من الأثر ما يجعل منها نسقًا يحتذى أو طريقة تتبع.

هذا وأحب أن أنبه القارئ أن هذه الدراسة قد كتبت عام ١٩٣٥ أي بعد اعتناق جيد الاشتراكية وقبل إنكاره إياها أخيرًا وهذه ظاهرة لا نستطيع أن نفسرها ألا على ضوء القلق والحيرة والترد. هذه العوامل التي عذبت جيد عذابًا فاجعًا طيلة حياته كلها.

# قبل الصَّمت الكبير

## لموريس ماترلنك

## هـل الموت أفضل من الحياة؟

موريـس ماترلنـك مـن أبـرز مفكـري هـذا العـصر، متعـدد جوانـب العبقريـة، عالـج العلـم والفلسـفة والشـعر والقصـة والمسرح، عـاش طويـلًا واختـبر كثـيرًا وهـو ينحـدر اليـوم إلى وادي الفنـاء، نـشر منـذ أشـهر كتابـه «قبـل الصمـت الكبـير Avant le grand silence» لعلـه يكـون آخـر كتبـه قبـل أن يقبـض غـراب المـوت الأسـود بمخلبـه عـلى مخنقـه فـلا يدعـه إلا جثـة هامـدة.

المفـروض إذن أن يكـون كتابـه «قبـل الصمـت الكبـير» خلاصـة اختباراتـه في حياتـه، وصفـوة آرائـه واسـتنتاجاته في عمـره الطويـل، ومـا خـرج بـه مـن تجـارب بعـد طـول البحـث، في هـذا الشـوط الـذي قطعـه في الدنيـا، ومـا انتهـى إليـه مـن حقائـق نسـبية بعـد هـذا العـراك مـدى السـبعين أو الثمانـين عامًـا التـي عاشـها، فيلقـى إلينـا بهـذه الحقائـق قبـل صمتـه الكبـير لتكـون القاعـدة أو المحـور الـذي يجـب أن تـدور عليـه أعمالـه الفكريـة ومحصولـه العامـي في عهـدي الشـباب والكهولـة لتتمركـز آخـر الأمـر عـلى صخـرة «الصمـت الكبـير» فنخـرج مـن هـذا كلـه وقـد زدنـا إلى أعمارنـا عمـرًا جديـدًا وأضفنـا إلى اختباراتنـا وتجاربنـا ألوانًـا أخـرى مـما أفـاد في رحلـة

حياتـه الطويلـة لتكـون نفوسـنا بعـد ذلـك أرحـب أفقًـا ومداركنـا أوسـع نطاقًـا وبصائرنـا أكـثر إشراقًـا وأذهاننـا أقـوى عـلى الاسـتيعاب وأنفـذ إلى دقائـق الأشـياء وأسرع إلى التمحيـص والاسـتكناه وأدق في الحكـم والاسـتنتاج إلى آخـر هـذه المزايـا التـي يكسـبنا إياهـا مـن سـبقنا في الحيـاة مـن العلـماء والمفكريـن وذوي المواهـب... فهـل حقـق «ماترلنـك» في كتابـه هـذا مـا نذهـب إليـه أو هـل هـو عـلى الأقـل حقـق بعضًـا منـه؟ يلـوح لي أن الرجـل عـاش وسـيموت أن نظفـر منـه بغـير الشـك والقلـق والتأمـلات المذبذبـة أغلـب الأحيـان. بـل يخيـل إليّ أنـه لفـرط الشـك والحـيرة والتذبـذب أدى بـه الأمـر إلى لـون مـن الخبـل والهذيـان المنطقـي، إذا صـح التعبـير، غـير أننـا هنـا لا يجـب أن ننـسى إنـه جهـد كثـير ليصـل إلى حقيقـة أو إلى جملـة حقائـق نسـبية أنقطـع إلى البحـث عنهـا بـأدوات مختلفـة فلـم ينفعه الشـعر ولم يرشـده العلـم ولم يجـده القصـص والمـسرح، جـرب أولئـك جميعًـا، حتـى اسـتحالت بـين يديـه آخـر الأمـر ألهيـات وألاعيـب، عايـش أبطـال قصصـه وشـخوص مسرحـه زمنًـا طويـلًا، بـث في أذهانهـم شـتى الأفـكار ووضـع عـلى ألسـنتهم مختلـف الآراء والحلـول والاسـتنتاجات، رمـز بهـم إلى ميـول وغرائـز، عذبهـم وجعلهـم نهبًـا للشـك والقلـق، فلـم يقنـع ولم يهتـد، لجـأ إلى العلـم، أقبـل عليـه بشـغف، بمـرح جنـوني، راقـب النـمال في مسـاربها والنحـل في نشـاطه وسـعيه والعناكـب في حياتهـا العجيبـة. درس كل أولئـك بدقـة وصـبر عـلى ضـوء العلـم والمعرفـة والبحـث، فخـرج لنـا بكتـب قيمـة، نـادرة، ولكنـه فشـل أيضًـا، لقـد ظـل الـسر الأكـبر، الحقيقـة الكـبرى، الوهـم الأكـبر، مغلقًـا عليـه! مـاذا يعمـل؟ نظـم الشـعر، أرسـل نفسـه عـلى سـجيتها، أطلـق لغرائـزه العنـان، عـاش كطفـل يشـدو ويمـرح، فتـح صـدره لشـتى

الأصداء وأباح قلبه للأهواء جميعًا، وهب نفسه للخيال العارم، عايش الأخيلة المجنونة الهاذية، نقل لنا أصداء هذه الموسيقى المشوشة، أعطانا صورًا عن ضرم العواطف واتقاد الميول وتشوش الغرائز وفوضى الأحلام...كل ذلك ليصل إلى هذا السر المحجوب، إلى هذه الحقيقة الوهمية، مال آخر الأمر إلى التصوف، انصرف إلى التأمل الطويل، ترك المحسوس إلى غير المحسوس، فتجرد وتقشف، ترك الأرض ليفهم السماء، تخلى عن حقائق العلم المادية ليلحق بالافتراضات والتكهنات وينبش في الغيبيات عن سر الوجود وحقيقة المخلوقات، وآيين الكون، فقد الله على الأرض، فذهب يبحث عنه بين أوهام التصوف والخرافات الغيبية... فلم يجده... أرسلها آخر الأمر صيحة مؤلمة، متفجرة من أعماق مكبوتة، خارجة تتلهب من أغوار نفس متحرقة:

«أين أنت يا الله؟!».

دأب خمسين عامًا أو تزيد يبحث عنه فلم يجده؛ لأنه كان يجري وراءهم، وراء خرافة، ولكنه انتهى أخيرًا إلى حقيقة واحدة نسبية أيضًا، حقيقة ساذجة، واضحة لكل ذي عينين، حقيقة فطرية، لقد انتهى إلى حقيقة «الموت»، غدًا الآن هو المحور الذي تدور حوله افتراضاته وتذبذباته. كتابه «قبل الصمت الكبير» مقبرة تردد أصداء الموت، تفوح رائحته في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب، أحاط الموت بهذه الأسرار الغيبية التي عذبته وأقلقته طوال حياته، جعل منها ومن الموت موكبًا يسير ببطء رهيب الى آخر فقرة في الكتاب:

«لقد حان الوقت لندخر شيئا نجيب به الله الذي سيسألنا: ماذا تطلبون وماذا عساكم تريدون؟ فلنتهيأ إذن...»

إنني أفتح الكتاب كيفما أتفق فلن أقع إلا على تأملات وكلمات تنضج بمعاني الموت، في صفحة واحدة اقرأ هاتين الكلمتين:

«ينبغي أن نعرف كيف نكون سعداء، كما ينبغي أن نعرف كيف نموت.»

في أسفل الصفحة هذه الكلمة:

«نحن لا ندري كيف سيكون الغد، ولكن فلنثق بأنه سيكون خطوة أقرب إلى النهاية، وأكثر كآبة وأشد تجهمًا من اليوم»

في صفحات أخرى متوالية نجد هذا الموت قد استولى بقوة على عقل «ماترلنك» واستبد به وأضناه، هاك بعض ما في ثماني صفحات من المعاني والتأملات المتصلة بالموت:

«لن نفهم أبدًا أننا أموات»

«فلننتبه جيدًا إلى مظهر الموت. فأن هذا المظهر يتغير ويتبدل وفق انسياب حياتنا. ففي شبابنا يظهر لنا الموت بعيدًا جدًا إلى حد لا نفكر في النظر إليه، وكلما أدنته السنون منا فإنه كأنما يستوي بشرًا يخالطنا، وكلما ازداد وجه الموت وضوحًا وغدت معالمه أبين وأظهر كلما ازددنا معرفة بمسافة القرب بيننا وبينه»

«ما أكثر الذين لا يبدأون حياتهم إلا بعد أن تطوى صفحتهم ويختطفهم الموت. وما أكثر الآخرين الذين يموتون قبل أن يعيشوا ويحيوا. لأن الاحياء يجهلون إلى أين نمضي بعد موتنا وتركنا إياهم، تراهم يحترموننا احترامًا يشوبه القلق، ويحيوننا بإجلال لم نكن نعهده فيهم يوم كنا أحياء نرزق».

***

«ماذا تصبح الحياة بدون الموت؟ إن الموت هو الذي يعطي الحياة أهميتها ويضفي عليها هذه الألوان من جلال القدر وعمق المعنى ومختلف التصورات والآمال».

***

«الحياة سر والموت المفتاح الذي يفضه، ولكن الذي يدير المفتاح يختفي إلى الأبد في هذا السر»

***

وحول هذه التأملات في الموت نجد طائفة كبيرة من ألوان التفكير التي يؤدي إليها إدمان النظر في الموت وما وراء الحياة، وكلها لا تخرج عن حيز هذا الوهم العظيم المسيطر على نفس (ماترلنك) مثال ذلك:

«فهمنا للوجود ليس أعمق من فهمنا لله، وفهمنا لله ليس أعمق من فهمنا للوجود، فلنتخذ إذن أحدهما، فلم يكون ثمة مجهولان بدل واحدة؟ لا فائدة واحدة لنا بجانب ألف مضايقة»

***

«إن فكرة البحث عن غرض أو هدف للحياة أو للوجود لفكرة غريبة وضيقة، فما هو الهدف؟ إلى أين نريد أن نصل؟ وماذا يرضينا؟ أنريد أن نصبح آلهة؟ ولكن لسنا نملك البتة أقل فكرة عن الله. فلماذا نشكو؟ ألا نعرف إلى أين نذهب؟ هل حدث وانتهى حي من الأحياء إلى غير الموت؟ أليست مملكة الموت هي المحل الوحيد الذي نثق بأننا نحتمل فيه الخلود دون أن نسأم، دون أن نشكو ونتململ، دون أن نحلم بأحسن من هذا؟ وإلى هذا أيضًا أليس هو الهدف الذي لا مفر من الوصول إليه؟»

***

إلى آخر هذا اللف والدوران الذي توحي به الفكرة الثابتة، المتمركزة في تلافيف الدماغ، حول الموت وما يتفرع عنه من أفكار وتأملات. الذي نريد أن نصل إليه هو هل الموت في الواقع أفضل من الحياة كما يقول هو في إحدى كلماته، هو يقول هذا ويجتره في تأملات تصوفية عقيمة، يعزي نفسه بهذا الكلام لأن شبح الموت لا يفارقه، لأنه جرى في حياته وراء أوهام وأحلام عن الحقيقة الكبرى الأزلية أو عن جملة حقائق أزلية فلم يوفق إلى شيء من ذلك

فانتابه اليأس وقعدت به الشيخوخة الرازحة وحببت إليه هذه الألوان القاتمة من التصوف المريض إلى حد أن الصور جميعًا مقرونة في مخيلته بشبح الموت، عليها دائمًا مسحة من بشاعته وشوهته، تنبعث منه

رائحته الكريهة تثقل على الصدر وتغم النفس، كل شيء مقبول ما عدا أن يكون الموت أفضل من الحياة مهما دار «ماترلنك» حول هذه الفكرة وحفها بخطرات فلسفية وبهارج لفظية وتعليلات منطقية أخاذة لأول وهلة، بديهي جدًا أن المعلوم أواضح أفضل من السر المستتر والغيب المحجوب. والحياة ليست سرًا وهي واقعة ملموسة نحياها ونحسها وهي لذلك أفضل من الموت، إنما يقول مترلنك وغير مترلنك بأن الموت أفضل لأنهم رأوا في الحياة من المعضلات والمشكلات والتناحر القائم على الظلم والجهل والفتك ما حبب اليهم هذا اللون من التفكير القاتم أو ما قعد بهم عن العمل في سبيل تحرير الإنسانية وقلب الأوضاع والنظم التي تحدث هذا الخلل في ميزان الحياة. الواقع إن قولهم بأن الموت أفضل هو نوع من الجبن أو من اليأس الذي لا مبرر له حيال الطغيان الذي أتخذ في كل عصر صورًا وأشكالًا وانتهى إلينا في هذا العصر في صور الرأسمالية البرجوازية ونظام الطبقات والفوارق الاجتماعية وما تفرع عن هذا من ألوان في الحكم الرجعي إلى آخر هذه النظم والأوضاع التي تنتقص من حق الإنسانية في السعادة وتدفع بها إلى طلب التحرر والانعتاق، وبالرغم من هذا كله فإن الحياة على ما فيها من شوهات هي على أي حال أفضل من الموت على اعتبار فلسفي محض كما يريد

مترلنك». أحب قبل أن أطوي كتاب «مترلنك» «قبل الصمت الكبير» أن أعلق على حيرة مترلنك وقلقه وشكه في البحث عن الحقيقة المطلقة بكلمه آخذها من كتاب «جيتنجالي» لتاغور عرف فيها كيف يهتدي

إلى هـذه الحقيقـة عـلى ضـوء الصفـاء العقـلي والاتـزان الروحـي العميـق وهـذه هـي الكلمـة:

«اتـرك سـبحتك ودع أهازيجـك، مـاذا تظـن إنـك تمجـد في هـذا الركـن المعتـم المنفـرد في هيـكل مغلـق الأبـواب وموصـد النوافـذ، أفتـح عينيـك وانظـر، إن إلهـك ليـس أمامـك. إنـه هنـاك حيـث الفـلاح يحـرث الـثرى القـاسي وعـلى جانـب الطريـق حيـث يجهـد محطـم الأحجـار، إنـه معهـم في ضـوء الشـمس وهاضـب المطـر، وثوبـه علقـت بـه الغبـار. انـض هـذا الـرداء المقـدس وكـن مثلـه. الخـلاص؟ أيـن أنـت واجـده؟ ألم يكلـف معلمنـا نفسـه بشـؤون الخلـق في طـرب ونشـوة؟ إنـه ارتبـط بنـا إلى الأبـد...»

# د.هـ.لورنس

## ظاهـرة خطيرة في الثَّقافة الإنجليزيَّة

«سـأظلُّ أمينًـا لكتـابي وموقفـي الـذي رضيـت بـه: لـن تكـون الحيـاة محتملـة وسـائغة إلَّا إذا كان الجسـد والـرُّوح متَّسـقي المجـرى، وأن يكـون ثمَّـة بينهـما تـوازن طبيعـيّ واحـترام متبـادل»

من مقدمة د.هـ. لورنس لقصته الشـهيرة «عشـيق اللادي تشاترلي»

إلى أيـن يـؤدي طـول الكبـت وإلى مـاذا يفـضي الكبـح الشـديد والكظـم المتصـل؟ علـم النفـس يجيـب بصراحـة عـلى هـذا السـؤال الدقيـق، ثمـة طريقـان يـؤدي إليهـا طـول الكبـت وشـدة الكبـح لا ثالـث لهـما: إمـا إلى الخبـل أو الجنـون المطبـق وإمـا إلى الانفجـار والتحـدي واكتسـاح جميـع السـدود المانعـة. هـذا في الحـالات الفرديـة، أمـا إذا كان الكبـت سـمة ظاهرة في الجماعـة ونزعـة أصيلـة فيهـا لا بـد أن يفـضي الأمـر إلى شر مـا يفـضي إليـه في الحالـة الفرديـة، إذ يكـون الانفجـار مـن الشـدة والقـوة والعتـو بالغًـا أقـصى المـدى، يكـون انفجـارًا اجتماعيًـا، يظهـر فيـه متعـدد أنـواع الكبـت الصـارم ثمـرة عصـور وأجيـال طويلـة، يكـون مكتسـحًا كالسـيل العـرم يأخـذ في طريقـه كل شيء ويسـمو بالحيـاة إلى حيـث لا يطاولهـا في الكـمال سـمو بالغًـا مـا بلـغ مـن قـوة. سـنة أبديـة عادلـة في الطبيعـة: لا بـد مـن الـشر عـلى أشـد صـوره رعبًـا وهـولًا لينبثـق مـن فوضـاه الخـير عـلى

إثـم مـا يكـون جـمالًا وإشراقًـا، والتاريـخ لا ينـسى هـذه الفـترات اللامعـة في حيـاة الجماعـات، بـل إننـا في هـذا العـصر نشـهد بـأم أعيننـا هـذا التفاعـل العجيـب في نفسـية الأمـم، وهـل كان هـذا الوهـج بـل هـذا اللهـب المتـضرم هنـاك في تلـك البقعـة الثلجيـة النائيـة، يشـع اليـوم عـلى العـالم مـن ضيائـه وبهـره مـا يهـز النفـوس هـزًا إلا نتيجـة محتومـة، وعاقبـة سـعيدة لطغيـان الأجيـال وعسـف الظلـم واسـتبداد الـشر واسـتفحال الـذل؟ فـكان القهـر سـبيلًا إلى الثـورة والانفجـار، وكان الكبـت - مـدى عصـور طويلـة متعاقبـة - سـببًا للانعتـاق المدمـر العـاتي وسـيكون آخـر الأمـر وقـدة ملتهبـة تقـضي عـلى مـا بقـي في العـالم مـن ظلـم وشر وطغيـان لتقـوم عـلى الأرض دولـة الإنسـان الكامـل، الحـر الموفـور القـوة المتحـرر مـن قـذارات العصـور.

تتمثـل ثـورة الجماعـة عـلى الألم المحتجـز، عـلى الكبـح الشـاق، والكبـت الفاجـع، بـادئ الأمـر، في بضعـة أشـخاص أو عـلى الأصـح في بضعـة ضمائـر يقظـة واعيـة تـتردد في أعماقهـا صرخـات الجماعـة، وهـذه الصرخـات المخنوقـة، لا سـبيل إلى إعلانهـا والجهـر بهـا إذا وجـدت الحاجـة، الـضرورة الملحـة - لفـرط العسـف والضغـط - الأسـباب المبـاشرة، ناتجـة عـن التفاعـل القديـم المعقـد، ليقظـة، لوعـي هـذه الضمائـر التـي تتمثـل في نقمتهـا وتمردهـا أشـواق جماعـات إنسـانية معذبـة، تجـتر ألمهـا مـدى عصـور حتـى لكأنمـا تعتـاد هـذا الألم وتلتـذه ولكـن «إرادة» التحـرر تظـل بالرغـم مـن هـذا الركـود والتطامـن لـلألم محجوبـة، أو كامنـة تحـت وهـم الرضـا والسـكون والإخـلاد إلى الطمأنينـة كالجمـر تحـت الرمـاد، فـلا تـكاد تـبرق ومضـة مـن أمـل، ومـا تلبـث أن تسـنح الفرصـة المؤاتيـة حتـى تزمجـر هـذه

الإرادة الحية وتنطلق بقوة جبارة عاتية، تعوض عن الحرمان الطويل بالاستباحة المطلقة لتتعادل الكفتان ويستوي الميزان ويتسق مجرى الحياة. فلا ينبغي والحالة هذه أن ندهش وتأخذنا الحيرة أو يعترينا الذهول حين نرى كاتبًا مثل «د. هـ. لورنس» يهز التقاليد الثقافية الإنجليزية هزًا، فيهزأ بالقيم الموروثة فيدكها دكًا، ويتناول أميز ظاهرة في الحياة الاجتماعية الانكليزية وهي الجانب «الطهري Puritanisme» فيمزقه شر تمزيق، أقول لا ينبغي أن نذهل لأن «د. هـ. لورنس» في الواقع إنما هو بادرة ثورة على المجتمع الإنجليزي وبدء انقلاب، وظاهرة خطيرة فاصلة في الثقافة الفكرية والاجتماعية في إنكلترا، وهذه المعارضة الشديدة، بل هذا الأذى الكثير الذي ناله من النقاد المحافظين المتعفنين لخير دليل على أن الرجل إنما جاء يهز ناحية من أقوى النواحي وأشدها إمعانًا في النفاق والرياء في المجتمع الإنجليزي. نستطيع أن نقول إذن إن «د.هـ. لورنس» شرارة أولى، أو بذرة أولى، حية لانقلاب جديد، لثورة جديدة، في المجتمع الإنكليزي.

***

بين يدي عدة كتب له قرأت معظمها بينها مجلدان يحتويان على رسائل قدم لهما الكاتب الإنجليزي المشهور «الدوس هكسلي» وليس في الإمكان التحدث عن كتبه جميعًا وليس هذا ميسورًا في مقال الغرض منه تعريف أميز خصائص الكاتب وأبرز نوازعه وأقوى اتجاهاته بسرعة وإيماض بالمعنى دون الوقوف عند التفصيل والتدقيق والإلمام الشامل، هذان الكتابان هما «عشيق اللادي تشارلي» و«الرجل الذي

كان ميتًا» ولست أجد بين كتب «لورنس» أحق من هذين الكتابين في لفت النظر إلى هذا الطابع العام الشائع في مختلف إنتاجه الفكري، ولا أظهر منهما في تحديد شخصية لورنس وإبراز أقوى مميزاته وخصائص روحه ولا أشد منهما وضوحًا في تعيين ناحية «الثورة» في مزاج لورنس: هذه النزعة «الانقلابية» التي أرصد حياته وفكره لتحقيقها وافشائها كرجع صدى قوي في نفسه لهذا التمرد المكبوت الذي يحس به في الوسط الذي يعيش فيه.

اهتم لورنس عند ظهور كتابه «عشيق اللادي تشارلي» بالاباحية المطلقة ورمي بالفجور ووسم بالاستهتار والخلاعة وقام فريق كبير من النقاد وجعل وكده هدم شخصية لورنس الأدبية وبث الدعاية ضده والترويج لها عند السذج ذوي العقول البسيطة والتفكير السطحي، الواقع إذا أخذ كتاب لورنس على علاته وقرئ على أنه كتاب متعة وترفيه - كما يريد الأدب بعض الكتاب في هذه الأيام - فلا شك في أن لورنس قد اجتاح في كتابه الحدود جميعًا وعبث بالفضائل الموروثة عبثًا جريئًا، بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن لورنس داعية صريح للفجور ومروج كبير للرذيلة. هذا إذا قبلنا أن نلغي عقولنا ونأخذ الأمور على ما هي وكما تبدو في سذاجتها وبساطتها للوهلة الأولى أو أن نكون خبثاء ماكرين فنعرف الحق وفي مكتنا أن نتقصى ونستكنه ونعرف ما يكمن وراء الظاهر وما يختفي تحت الأستار البادية ولكننا إلى ذلك منافقون لأننا نخدم مصالح معينة ونتملق شعور طائفة أو طبقة من الناس لا يرضيها بل يقلقها ويقض مضجعها أن تثار عليها

ثـورة أو يحـدث في حياتهـا انقـلاب! أو أننـا نريـد أن يظـل نظـام بعينـه قائمًـا لا يتغـير لأن في وجـوده وقيامـه قويًـا متحكـمًا ضمانًـا لنـا في اطـراد حياتنـا عـلى نسـق اسـتغلالي متمكـن وهـذا هـو الـدور الـذي لعبـه النقـاد حيـال «د. هــ. لورنـس». أراد لورنـس أن يـضرب الجانـب الطهـري في الحيـاة الإنجليزيـة الضربـة القاضيـة فاصطنـع - لتحقيـق نزعتـه هـذه - لونًـا أدبيًـا صارخًـا كان وقعـه في أذهـان المتعفنـين كلـذع السـوط يدمـي ظهورهـم، قالـوا «كاتـب مجنـون قـام يمجـد البـدن ويشـيد بالرذيلـة ويعـلي شـأن الخطيئـة ويكشـف القنـاع عـن وحـش فاتـك يطـل عـلى القـرن العشريـن مـن قلـب الغابـة» وقـال هـو «أتيـت لأحـرر الإنسـان مـن قيـد اللعنـة الأبديـة نصبهـا (التلموديـون) صنـمًا بيـده سـيف النقمـة مصلـت أبـدًا لا ينفـك ينـذر بالعقـاب وسـوء المصـير » قالـوا «مجـرم، فاتـك، مخيـف، جـاء يسـمم العقـول ويخنـق الفضيلـة ويـدوس الشرائـع ويهتـك التقاليـد ويمـزق العقائـد فأجهـزوا عليـه» وقـال هـو «أتيـت لأمـزق الحجـب الصفيقـة التـي يختبـئ وراءهـا نفاقكـم ورياؤكـم، أتيـت لأفضـح أسراركـم النجسـة، أتيـت لأفتـح أمـام أعينكـم الضالـة أبـواب السـعادة وأخلصكـم مـن القهـر» وهكـذا بقيـت الحـرب مسـتعرة بينـه وبـين المنافقـين. ولكنـه لا يحفـل بـشيء مـن هـذا، يتـألم لحظـة عابـرة ولكنـه يتابـع عملـه، يتابـع أداء الرسـالة لا ينـال منـه الحقـد ولا يقعـد بـه التثبيـط ولا يفـتر همتـه عـواء الذئـاب ونبـاح كلاب المغرضـين، حتـى وافـاه أجلـه متأثـرًا بـذات الرئـة عـام١٩٣٠ وهـو مـا يـزال في الرابعـة والأربعـين.

قصة اللادي تشاترلي تكاد تكون قصة ساذجة، بسيطة من حيث هي قصة ولكنها معقدة شديدة التعقيد لأنها تخفي وراء سذاجتها فكرة معينة، رسالة خاصة جديدة، دعوة جريئة في حد ذاتها ولكنها مخلصة صادقة. هاك ملخصًا سريعًا لهذه القصة «كانت اللادي تشاترلي فتاة حرة لعوبًا في السنوات القليلة التي سبقت الحرب، كانت في ألمانيا فأحبت شابًا ثم اضطرت إلى تركه والعودة إلى إنجلترا حيث اقترنت بابن بارون رقيق المزاج مترف مؤدب ولكنه ضعيف خائر وبعد زواجها بقليل يتركها زوجها ليذهب يقاتل في الجبهة الحربية فما يكاد يستقر حتى يصاب بشظية قنبلة في نصفه الأسفل فيرجع ومزارعه وهو بين الموت والحياة وبعد انقضاء أشهر يشفى البارون ويظل نصفه الأسفل مشلولًا إلى الأبد، وهو أديب وكاتب معروف فيتعزى بحياته الفكرية ويجمع حوله طائفة من الكتاب والأدباء يقضون أوقاتهم جميعًا في الجدل والنقاش بينما المرأة تحترق وتذوب ولا تجد منفذًا لغريزتها المكبوتة فتظل تحترق، وتتخذ من أحد رواد القصر من الكتاب عشيقًا لها ولكن نفورًا أصيلًا، نفورًا غريزيًا يحول دون استمرار هذه العلاقة فتتركه غير آسفة إلى أن تقع على ضالتها المنشودة في شخص أحد حراس الغابة، رجل منيف، عات، جبار، أشبع غريزتها ونضر حياتها ورقرق في وجهها ماء الحياة فتقبل عليه بكل جارحة من جوارحها يعيشان في كوخ منعزل أسعد ما يكون عاشقان أحرار الغريزة» قصة بسيطة ولكن من ذا الذي لا يرتجف هولا عندما يقرأ هذه الصفحات الهائلة التي يصف فيها حرقة اللادي تشاترلي وحرمانها المخيف إبان أعوام طويلة يصفها من خلال تمجيد هذه المرأة لعضو الرجل التناسلي في

ذهـول، في حالـة شـبيهة بالإغـماء، بومـق، بجنـون غريـزي ملتهـب، أفـتن لورنـس بوصـف هـذا كلـه ليرينـا هـول الحرمـان وطغيـان الغريـزة المكبوتـة كيـف يكـون آخـر الأمـر عارضًـا أشـبه مـا يكـون بالجنـون. هـذا مـا لم يفهمـه المنافقـون أو لعلهـم فهمـوه ولكنهـم تعامـوا وتغافلـوا وأخـذوا الأمـر عـلى ظاهـره ومـع ذلـك فـإن في عـرض هـذه القصـة صفحـات بالغـة مـن القـوة الفنيـة حـدًا لا يطاولـه إليـه كاتـب نـرى خلالهـا كيـف تكـون اللمحـة الدالـة تغنـي عـن التفصيـل المسـهب، والإشـارة اللبقـة توحـي بالمـراد عـلى أوفى مـا يكـون التعبـير قـوة وجـمالًا. خـذ هـذا المثـل مـن عـرض كتـاب الـلادي تشـارلي: «... وخيـل إليهـا أنهـا كانـت كالبحـر، كلهـا أمـواج مظلمـة ترتفـع وتتضخـم متصاعـدة بقـوة عاتيـة، إلى أن تغـدو كلهـا - قليـلًا قليـلًا وفي حركـة متعاقبـة كأنهـا محيـط يجيـش ويضطـرب. وفي أعـماق أعماقهـا كأنهـا تشـعر بـأن أعـماق البحـر ينفصـل بعضهـا عـن البعـض الآخـر وتسـتمر منطلقـة مـن هنـا وهنـاك في موجـات بعيـدة طويلـة تتفلـت بعيـدًا دائمًـا في أرق موضـع منهـا حيـث يهبـط الغائـص بتـؤدة ولكنـه يغـوص دائمًـا حتـى ليـدرك الأعـراق القصيـة ويمـس القمـر، ولقـد شـعرت بـأن الغائـص أصـاب منهـا الهـدف، وكانـت الموجـات الداخليـة مـا تـزال تنـداح وتعاقـب متفلتـة نحـو شـاطئ معلـوم تاركـة إياهـا سـافرة. ومـا يـزال المجهـول يفـتن في الغـوص، ومـا تـزال الأمـواج تنـداح وتذهـب بعيـدة عنهـا، إلى أن ارتجفـت فجـأة وعرتهـا ارتعاشـة عذبـة إذ شـعرت بـأن أدق موضـع في الأعـماق قـد أدركـه الغائـص، علمـت بذلـك، فتـلاشى كل شيء واختفـت ولم تعـد هـي نفسـها لقـد ولـدت مـن جديـد، غـدت امـرأة...».

وأما في كتابه الآخر فقد جرى الكاتب على نسق آخر، الشكل فقط تغير؛ طريقة التعبير، أما الجوهر، أما اللباب فقد ظل هو هو، وشخصية لورنس كما تعهدها. لجأ هذه المرة إلى الرمز والإشارة والتلميح ومزج الماضي بالحاضر ورمز بقيام المسيح بعد موته بثلاثة أيام إلى معنى آخر، ذهب إلى أعماق الماضي السحيق، نبش الحياة الإغريقية القديمة وجعل من حياة المسيح بعد موته خاتمة لمطاف عابدة إيزيس الباحثة عن آخر عضو ضائع من جسد أوزيريس. يظل المسيح بعد قيامه والموت في أثره لا يتركه، رائحة الموت تلحق به أين سار وتنبعث من أردانه حيثما اتجه، إلى أن يأتي بعابدة إيزيس ويتم بينهما الاتصال الجسدي وفي هذه اللحظة تندمل الجروح ويرتد إلى الحياة قليلًا قليلًا فيرجع (أوزيريس) موفور القوة، حيًا خالدًا، قضى على آخر أثر من الموت في جسده. قصة فلسفية ولا شك، ولا ريب البتة في هذا الجهد البالغ ليوفق بين النبرتين ويمزج بين اللونين المختلفين. هاك بعض فقرات من هذه القصة المدهشة:

«فجأة غمره نور مباغت، لقد طلبت إليهم جميعًا أن يخدموني ببدنهم الميت في الحب. ولم أعطهم آخر الأمر إلا حب جثة. هذا جسدي خذوا وكلوا... كلوا جثتي» فاعتراه الخجل بسرعة «بعد كل هذا لقد طلبت إليهم أن يحبوا بأجساد ميتة، فلو أعطيت يهوذا قبلة الحب الحي لكان ممكنا ألا يعطيني قبلة الموت. كان مستطاعًا أن يحبني بجسده ولكنني اشتهيت أن يحبني بدون جسد، ببدن ميت» والآن فإن يقظة ضمير الرجل كان في هذه المرأة المتربعة، فانحنى عليها وراح

يداعبها بتؤدة دون أن يرى، يتمتم أشياء غير مفهومة. وغدا موته وحبه للتضحية لا معنى لهما البتة الآن. ولم يعد يعرف إلا صفاء هذه المرأة، هذه الصخرة البيضاء صخرة الحياة «على هذه الصفاة لقد أقمت حياتي» الصخرة ذات المنفذ في أعمق ثنيات المرأة الصحيحة؛ هذه المرأة التي تخفي وجها. وانحنى عليها كله قوة متفوقة ناصعة كالفجر ثم جثم عليها وأحس بشعلة قوته وشبابه تجري في عروقه وصاح لقد قمت من بين الأموات. فك عقدة ثوبها ونضا عنها ثيابها وحينئذ شاهد بياض ثدييها الممجدين يشعان كالذهب، تلمسهما فأحس الحياة تترقرق في جسده فصاح «أبت! لم أخفيت عني كل هذا؟» ولمسها بإعجاب وقال «إن هذا فوق الصلاة» لقد كانت البدن الحي ذا المنفذ هي المرأة وقلب الوردة «إن قلب هذه الوردة مسكني وازدهارها وتفتحها غبطتي وسروري عندئذ امتزج بها ولم يعودا إلا جسدًا واحدًا وبعد أن لمت المرأة ثيابها وغادرت المعبد بسكون، جلس يفكر «ما أعذب نعومته، وما أكثر ما فيه من ثبات كأنما هو وردة خفية مزدهرة بتلاصق اوراقها التي تكون الوضع الذي ينصب فيه ساري الطل ويصل إلى أعماقها. إنه ملآن وعظيم، عظمة تفوق عظمة الآلهة. أحس كأنما أنا جزء من هذه الوردة العظيمة، والكون، كأنما أنا خلاصة طيبه وعطره والمرأة جماله. إن العالم الآن زهرة واحدة تضغط عليّ بآلاف أوراقها وبراعمها ذات الظلال وأنا مغمور بعطرها كأنما أنا في عناق جميل.

***

هـذه بعـض فقـرات تـدل عـلى مذهـب لورنـس، هـذا المذهـب الانقـلابي الـذي يريـد بـه تحريـر مجتمعـه الـذي تسـيطر عليـه النزعـة الطهريـة مـن ناحيـة، ومـن ناحيـة أخـرى هـي ثـورة عنيفـة عـلى هـذه اللعنـة «التلموديـة» التـي يقـوم بسـببها شـقاء كثـير في العـالم إذ لولاهـا لمـا كنـا ننظـر إلى هـذا العمـل الجليـل يجـدد حيـاة الإنسـان ويخلـد النـوع عمـلًا مشـينًا وخطيئـة دهريـة أبديـة. وفي رأينـا أن لطمـة لورنـس لصنـم هـذه اللعنـة مـن الشـدة والقـوة بحيـث تدكـه دكًا وتحقـق ناحيـة مـن السـعادة الإنسـانية حـين لا تغـدو الحيـاة محتملـة وسـائغة إلا إذا كان الجسـد والـروح متسـقي المجـرى. وإن يكـون ثمـة بينهـما تـوازن طبيعـي واحـترام متبـادل.

# كاترين منسفلد[1]

## من خلال قصصها

## لمحات من فنِّها

-١-

القصص من أصعب الفنون وأدقها وأرفعها، وأدعاها إلى الثقافة الشاملة والفكر الممحص والإحساس المرهف. والقصة الجيدة تخرج من بين يدي خالقها كما يخرج التمثال البارع من بين يدي ناحته. أو كالصورة المعبرة الحية تزجيها ريشة الفنان الحاذق المبدع أو كاللحن الصافي المتموج المنساب يتسرب في أطواء النفس. ويطوف في فسحات الروح.

وكما أن النحت والرسم والموسيقى وما إليها معاني تختلج وشعور خافق وإحساس دقيق وتعبير حاذق. كذلك فن القصص، فهو نبضاب روح ووحي عقل وفيض عاطفة وومضات ذهن قوي خالق والتماعات عبقرية جبارة، وهو يمتاز عما قدمنا من ألوان الفنون بكونه عالمًا رحيب الجنبات يزخر فيه كل ما يزخر في الحياة النابضة الحية من قوى دافقة.

مسرح هذا الفن الكون بأسره وغرضه الإنسانية كلها، خيرها وشرها ضلالها ورشدها إيمانها والحادها أملها ويأسها، جدها وهزلها، ذرى

١ في أوروبا اليوم حركة نسائية أدبية رائعة، وقد لا أغالي إذا قلت إنَّ الأثر الأدبي النسوي في هذا العصر كاد يفوق كل أثر عرفناه في أي عصر آخر. وقيمة هذه الدِّراسة في أنَّها تعطي صورة عن أقوى شخصيَّة أدبيَّة نسائيَّة في هذا العصر. (هكذا في النّسخة الأصليَّة للكتاب)

فضائلهـا، ومعـارج مثلهـا ومهـاوي ضعفهـا ودركات خورهـا، وشـخوصه الإحساسـات والميـول والنزعـات والرغبـات وصراع الـروح والجسـد وأزمـات الوجـدان الطاحنـة وفـورات العواطـف وجمـوح النـزوات وهجسـات الضمائـر.

ورسـالة هـذا الفـن العـالي لا يضطلـع بهـا إلا الفنـان القديـر وأسـباب الإبـداع والإعجـاز فيـه لا يؤتاهـا إلا العبقـري الملهـم. وكاتريـن مانسـفلد مـن رسـل هـذا الفـن الخالديـن - بمـا أنتجـوا فيـه - عـلى الحيـاة مـا خلـدت الحيـاة.

وقـد كانـت حياتهـا قصـيرة الأمـد وشـيكة الفنـاء ولكنهـا عامـرة بأسـباب الخلـق والإبـداع مليئـة منتجـة أخصـب إنتـاج وأروعـه. وبعـد فـأني أريـد أن أعطيـك صـورة سريعـة عـن حياتهـا قبـل أن أتحـدث عـن خصائـص فنهـا وعنـاصره ومميزاتـه، فـإني أشـعر أن حياتهـا بـكل ألوانهـا وحوادثهـا وصورهـا قـد اشـتركت اشـتراكًا كبـيرًا ذا أثـر بعيـد في تلويـن فنهـا وطبعـه بطابـع خـاص.

قضـت عهـد الطفولـة «في، زيلنـدا الجديـدة» ولمـا بلغـت الثالثـة عـشرة أرسـلها ذووهـا إلى لنـدن لتتـم تعليمهـا. وهنـاك في ذلـك الوسـط المشـبع بـروح الفـن والجـمال والشـعر تفتحـت عيناهـا عـلى ألـوان مـن البهـر والجـلال والروعـة مـا أخـد عليهـا مشـاعرها وأيقـظ في أغـوار قلبهـا إحساسـات دافقـة. ثـم اسـتدعاها أهلهـا إلى جزيرتهـم النائيـة ولمـا تبلـغ الثامنـة عـشرة. وهنـاك في وحدتهـا الكئيبـة الموحشـة لمسـت الفـرق بـين حياتهـا الحـاضرة الراكـدة وحياتهـا النشـيطة النابضـة في لنـدن في ذلـك

الصمت الشامل أحست أن روحها حبيسة تريد أن تنطلق نحو النور والحركة.

وأذعن أهلها أخيرًا لرغبتها وأرسلوها إلى لندن ثانية وجعلوا لها راتبًا ضئيلًا تستعين به على العيش. فاضطرت أن تعطي دروسا وتمتهن الغناء والتمثيل. ومما يثير الدهشة أنها خلال ذلك كله لم تفكر أن تكتب. ولكن أي اختبار وأية معرفة في شؤون الحياة أتاحت لها ظروف حياتها الطليقة! بينما معظم لداتها في تلك السن ما زلن تحت سيطرة العائلة لم يخرجن عنها. فأي شيء لم تشهد في الحياة؟ وأي حادث من حوادث حياتها لا يصلح أن يكون أغزر مادة وأخصها للخلق القصصي:

ولم تدرك حقيقة ميولها الفنية إلا حين مرضت مرضًا خطيرًا اضطرها أن تقيم في بلدة صغيرة في ألمانيا وهناك في فترة الاستجمام ومضت في ذهنها فكرة الكتابة. فأخرجت أول كتبها في عام ١٩١٠، وفي عام ١٩١٥ تزوجت جون مدلتون مري الناقد الإنجليزي المعروف. وكان يومها في بدء حياته الأدبية ما يزال.

وفي تلك السنة أيضا وقع أكبر حادث هز كيانها وأفقدها رشدها وشرد ذهنها. فجعها القدر بموت أحب الناس إلى قلبها وألصقهم بروحها. فجعها بموت شقيقها الشاب « Leslie Heron Beauchamp» ذهب ضحية الحرب وكان قبل ذلك ببضعة أيام قد مر بها في لندن في طريقه إلى القتال. وكان اجتماعها القصير بعد ذلك الغياب الطويل

مـما أذكى في قلبيهـا كل معـاني الأخـوة الرقيقـة الحادبـة وذكريـات الطفولـة الحلـوة.

آذتهـا هـذه الصدمـة الفادحـة وعصفـت في قلبهـا فتركتـه حطيـمًا. هـذه اللحظـة القاسـية المـرة كانـت اللحظـة الحاسـمة في حياتهـا. وكان ألمهـا الكظيـم سـبيلها إلى الإبـداع. إذ أحسـت بعـد أن التأمـت جراحـات قلبهـا النغـارة، أن فيضًـا مـن نـور يغمـر روحهـا. راحـت تسـتمد أسـباب فنهـا مـن تلـك الذكريـات الحيـة، ذكريـات الطفولـة الباسـمة البهيجـة في تلـك الجزيـرة النائيـة، واسـتوت في بهـرة خيالهـا صـور حياتهـا كلهـا هنـاك. ومفاتـن الطبيعـة وروائعهـا مـما تلمـح أثـره قويًـا في معظـم قصصهـا.

كانـت تكتـب وصـورة أخيهـا لا تـبرح خيالهـا، تلهـب قواهـا الخالقـة وترهـف إحساسـها. وهـي تقـول: «إني حـين لا أكتـب أسـمعه يدعـوني ويتـألم. وحـين أكتـب: أو إذ أكـون عـلى وشـك ذلـك، حينئـذ فقـط يهـدأ ويطمـئن».

بهـذه الـروح الحالمـة الحزينـة الآسـية أقبلـت كاتريـن عـلى عملهـا بشـغف وومـق، فأخرجـت للنـاس عـام ١٩١٨ قصتهـا الخالـدة «البـدء» أتبعتهـا بأخـرى لا تقـل عنهـا جـمالًا وروعـة «عـلى الخليـج» ومـن ثـم كانـت الشـهرة المسـتفيضة وكان الإعجـاب الكبـير والتقديـر الفائـق؛ فقـد كان ذلـك فتحًـا جديـدًا في الأدب القصـصي، ولونًـا طريفًـا جميـلًا رفيعًـا. غـير أن القـدر السـاخر أراد أن يتـم مهزلتـه ويمثـل آخـر فصولـه في حيـاة كاتريـن، فقـد انـدس مـرض السـل في صدرهـا وراح يمـزق رئتيهـا بصـبر وأنـاة، وكانـت إذ ذاك في أوج مجدهـا الأدبي. ولكـن عزيمتهـا لم تفـتر وقوتهـا الخالقـة لم تهـن،

فهـي أثنـاء تنقلهـا في المصحـات المختلفـة كانـت الكتابـة شـغل حياتهـا. وكانـت لا تفتـأ تذيـب ذكرياتهـا وأحلامهـا وخواطرهـا وإحساسـاتها فيـما تضـع مـن قصـص هـي اليـوم مـن أروع مـا أخـرج للنـاس في هـذا الفـن وأبقـاه.

وفي عـام ١٩٢٢ اشـتدت عليهـا وطـأة المـرض وأحسـت هـي أن نهايتهـا قـد دنـت فعكفـت في بيـت قديـم في (فونتنبلـو) عـلى التأمـل والحلـم، ووضـع المـوت حـدا لهـذه الحيـاة الحافلـة وذلـك الشـباب النـضر الغـض الإهـاب في ٩ ينايـر عـام ١٩٢٣ ودفنـت في مقـبرة آفـون الصغـيرة، وديعـة غاليـة مـن إنجلـترا في ثـرى فرنسـا.

***

كل مـا في الحيـاة مـادة صالحـة لفـن كاتريـن منسـفلد يشـغل ذهنهـا ويسـترعي انتباهها ويحتـل تفكيرهـا كل ظاهـرة مـن ظواهـر هـذا الوجـود. وليـس مـن خلجـة مـن خلجـات الحـس - مهـما كانـت خفيفـة - إلا وتمـس مـن روحهـا أدق أوتارهـا وليـس مـن همسـة تطـوف في نفسـها - مهـما كانـت غامضـة خفيـه - إلا وتعيرهـا التفاتهـا وتوليهـا عنايتهـا وتجيـل فيهـا فكرهـا حتـى تلمسـها بجـلاء ووضـوح فـلا يبقـى عليهـا إلا أن تصورهـا عـلى القرطـاس كـما هـي مطبوعـة في ذهنهـا.

وهـي تعنـى أكـثر مـا تعنـى بالقالـب التصويـري الممـزوج بالعنـصر الشـعري الحـالم الرقيـق. تصـب فيـه مـا وعتـه روحهـا وتأثـر بـه حسـها واختزنتـه ذاكرتهـا فانـت مـن فنهـا في معـرض صـور حافـل تقـسرك كل صـورة فيـه

أن تقف حيالها تتأمل مهارة التخطيط وبراعة التلوين وجمال العرض والدقة في توزيع النور والظلال تستشف خلال ذلك كله سمو الخيال وجلال الفكرة وما تبعث في خاطرك من معان وتثير في نفسك من أصداء، وهي مع ذلك الجمال الفائض يترقرق في قصصها جميعًا، وذلك الجرس العذب النشوان ينبعث من أسلوبها، لا يجد القارئ إلا بساطة في التعبير والعرض وبساطة في السرد والأداء. ثم لا يخطئ في هذا كله البلاغة العميقة والبيان المشرق المتين.

وكاترين منسفلد لا تغفل بصيرتها اليقظة وسليقتها الواعية الملهمة أن نتخذ مادة لفنها أدق الإحساسات وأخفاها. ويكفيها الشعور الوامض يستولي على أعصابها ليكون موضوع قصة طريفة كما في قصتها «النعيم» وموضوع هذه القصة غاية في البساطة. وأنت فيما لو خطر لك لما حفلته ولكنت حقيقا أن تذهل وأن تتساءل:

كيف تستطيع أن تخرج للناس منه قصة في حين لو طلب إليك أن تصفه لما بلغت من ذاك أكثر من بضعة أسطر يقف قلمك بعدها عاجزًا أشد عجز؟

كثيرًا ما تمر في حياة الإنسان لحظات يغمره اثناءها إحساس من السعادة والنعيم. لا يعرف مصدره ولا يستبين أسبابه ودوافعه. ولكن طبيعة كاترين الفنية تعرف في هذا الإحساس الطارئ موضوعًا جليلًا وتلمس فيه أسبابًا قوية لإبداع قوي. وهي تستهل قصتها هكذا:

«بالرغم من أعوامها الثلاثين كانت لبرتايانج لحظات مثل هذه تشعر فيها أنها تريد أن تنطلق راكضة بدل أن تسير أو أن تدور على الرصيف راقصة أو أن تقذف شيئًا في الهواء ثم تتلقاه ثانية أو أن تظل واقفة بدون حراك تضحك، تضحك لغير سبب، وماذا أنت فاعل فيما لو كنت في الثلاثين وشعرت فجأة أن إحساسا من «النعيم»، النعيم الخالص، يغمرك كأنك ازدردت - على حين غرة - قطعة لامعة من هذه الشمس الغاربة، تظل تحترق في صدرك باعثة في كل جزء من أجزاء جسمك لهبًا من ضرامها، وتظل تتبع بعد ذلك كل حركة من حركات برتايانج في تصعد سلم مسكنها بسرعة غريبة. وهي تحس أن جسمها كله يهتز ويريد أن ينطلق نحو شيء مجهول فلا تطيق - وهي في غرفة الطعام الباردة - أن يبقى معطفها على جسمها فتلقيه حيثما اتفق دون أن تحفل البرد. وهي لا تكاد ترفع بصرها إلى المرآة ولكنها مع ذلك تحدق فيها فترى وجهًا نضرًا مشرقًا وشفاهًا راعشة باسمة وعينين مظلمتين يخيل للرائي أنها تنتظران أن يحدث شيء وأن يقع أمر إلهي جليل، وهي لا تخطئ بأن ذلك كله واقع لا محالة.

وهي تسكن إلى غبشة المساء تتأمل في ظلالها الخافتة المائدة وضعت عليها الاعناب والتفاح وشتى الاثمار. وهي تحكم وضع ذلك كله بحيث يبدو مغريًا جذابًا. وما تكاد تتأمل عملها حتى تنفجر بالضحك!

ثم هي بعد ذلك تفيض بأسباب الحنان، حنان دافق مختلج فتغمر ابنتها الصغيرة بفيضه. ولا يقع أي شيء بين يديها إلا وتبعث فيه روحًا نابضًا من الجمال. فهذه الوسائد الحريرية الموضوعة في صالونها بنظام

وتنسيق ما تكاد تتناولها واحدة واحدة بين يديها ثم تلقي بها حيثما اتفق حتى يصبح للصالون رونق جديد وتسري في جوه حياة مفعمة.

وهي إذ تلقي نظرة خاطفة من النافذة على حديقة مسكنها تعروها رعشة غريبة. فهناك تلك الشجرة المزهرة المثقلة بأغصانها وأوراقها وثمرها، تحفها عند جذوعها ألوان عديدة من الأعشاب والأزهار، ثم ذاك القط الأسود يمر في هذه اللحظة الصامتة الشاملة يتبع أنثاه بسرعة وحركة.

ثم تطوف في خيالها صور ضيوفها في تلك الليلة، فهذا نورمان نايث الرجل المسرحي الحاذق وزوجته، وذلك الشاعر الشاب «ادي وارن» ما كاد صدر أول كتاب له حتى تهافتت عليه السيدات المترفات يدعونه إلى صالوناتهن وتلك هي صديقتها «بيرل فولتن» الغامضة كلغز. وتذهب لترتدي ثياب السهرة نشوانة ثملة يرنحها هذا الإحساس المتسلط على روحها، الإحساس بالنعيم دون ما دافع إليه.

وأقبل الضيوف وانتظمتهم مائدة الطعام وهم يتحدثون حديثًا فيه لذة ودعابة. وهم إذ يأكلون تحصي برتا عليهم حركاتهم ولفتاتهم وهي تلحظ أن زوجها، هذا الزوج القوي الممتلئ صحة وحياة، يلتذ طعامه ويستمرئه، فيطغى عليها إحساسها، وينتهي العشاء ويذهب الجميع إلى الصالون ويسمرون ويتحدثون في الشعر والأدب والمسرح وهي تشعر بعد هذا كله أن إحساسها الغريب الزاخر بدأ يتطور وبدأت هي تفهمه ولكنه أيضًا ما يزال مشوبًا بشيء من الغموض»

فقد هتف في نفسها صوت خفي، بخفوت وهمس، إن هؤلاء الناس جميعًا سينصرفون عما قريب، وسيصبح البيت هادئًا، والاضواء ستطفأ، وتغدوان أنت وزوجك وحيدين معًا في الغرفة المظلمة والسرير الدافئ.

وفجأة أحست برتايانج للمرة الاولى أنها تشتهي زوجها. هي أحبت زوجها، أحبته كثيرًا ولكن هذا الشيء الذي يهز الآن أعصابها، هذه الرغبة، هذه الشهوة كانت تنكرها كلها على زوجها، أما الآن فإن هذه الرغبة تضطرم في أغوار صدرها كنار لافحة فهل هذه هي نتيجة «إحساسها الغامض بالسعادة والنعيم»؟ أجل هل هو كذلك؟ وانصرف بعض المدعوين والبعض الآخر أخذ يهم بالانصراف.

وتلمح برتا زوجها في باب الردهة المؤدي إلى الصالون وهو يساعد صديقتها بيرل فولتن على ارتداء معطفها، تلمحه وقد جذب بيرل إلى صدره بقوة وعنف وكأن شفتيه الراعشتين تقولان لها: «إنني أعبدك»، وهما يتهامسان ويحددان موعدًا للقاء بصوت خفيض ولكنه يصل إلى سمع برتا ... إذن فزوجها يخدعها! ولكنها لا تثور، ولا تحطم، ولا تندفع. كلا. ليس شيء من ذلك كله. إنما تذهب إلى الشرفة المطلة على الحديقة وهناك تنبعث من قلبها هذه الصرخة الكظيمة: «أوه! ماذا عسى يحدث الآن؟»

ولكن الشجرة هناك هي الآن أروع منها في أي وقت وأحفل بالزهر وأكثر إمتاعًا وأرفق هدوءًا

***

هـذه اللحمـة السريعـة مـن فنهـا تبـين لـك أخـص مميزاتـه. وأنـت لا شـك قـد لمسـت خـلال هـذا التلخيـص الوجيـز شـيئًا كثيرًا مـن ذلـك ورأيـت كيف كاتريـن تمـزج روحهـا وإحساسـها وخفقـات قلبهـا في فنهـا كاتريـن منسـفليد فنانـة هادئـة ومفكـرة حالمـة، لا تميـل بطبعهـا إلى الألـوان الصارخـة تفجأ بها إحسـاس القـارئ. وهـي لا تتنـاول في قصصهـا الإحساسـات الفائـرة الجائشـة ولا العواطـف العنيفـة الصاخبـة. لا تلجـأ إلى التهويـل والافـزاع والعـرض العاصـف، ولا يغريهـا الخيـال العـارم الـذي لا كابـح لجماحـه. إنمـا هنـاك هـدوء واتـزان وشـمول وحلـم وشـعر وحـب دافـق وحنـان وسـنان وروح متشـوقة إلى أسـباب الجـمال، فهـي في قصتهـا «البـدء» تبـدو لـك الشـاعرة الكبـيرة التـي لا تمـر بالألـوان والأضـواء والأشـجار والأزهـار دون أن تفتـح صدرهـا لنفحـات النسـيم الهافيـة ودون أن تهـز أعطافهـا وترتعـش روحهـا وتنتـشي حواسـها، ولا تجيـل بصرهـا في صفحـة السـماء المنبسـطة الشاسـعة العميقـة دون أن يرتـد وفي ضميرهـا معـان غربيـة جديـدة «عائلـة تنتقـل إلى مسـكنها الجديـد » هـذا هـو موضـوع هـذه القصـة الفـذة الرائعـة، أزجـت كاتريـن منسـفلد في هـذه القصـة أرق صـور حداثتهـا وابهجهـا، ونفثـت فيهـا مـن روحهـا الحالمـة الشـاعرة نسـمات نديـة عطـرة تـرف وتخفـق فـإذا هـي تنفـذ إلى تضاعيـف قلبـك وتغلغـل في أطـواء حسـك كأنهـا ألحـان ناعمـة مترنحـة تلمـس مشـاعرك بحنـان فهنـاك ذلـك البيـت الجديـد ومـا يحيـط بـه مـن صـور الريـف الفاتنـة وهنـاك الجـدة الحادبـة الحنـون النشـيطة تـشرف عـلى ترتيـب البيـت وإعـداد الطعـام وتحـب أحفادهـا، وتلـك الأم الشـابة ذات الجـمال الهـادئ الحـالم. وأختهـا العـذراء بـدأ قلبهـا تتفتـح براعمـه للنـور وتطـوف في خيالهـا أحـلام الشـباب الغريبـة. وتلـك كيزيـا

الصغيرة تطفر في الحديقة الواسعة مفعمة حياة وصحة، يوسوس أبدًا في صدرها عامل الفضول والتطلع إلى المعرفة هاته الصور كلها ترسمها كاترين منسفلد في قصتها مشرفة باسمة يسطع فيها النور. ومعظم قصص كاترين منسفلد لا يخلو من الملاحظة البسيكولوجية الدقيقة. وهي تختار لذلك حالات نفسية هادئة ولكنها عسيرة التحليل، عسيره الوصف، ومع ذلك ما تزال تعالجها وتصقلها وتغدق عليها اللمسات الخفيفة الراعشة حتى توضحها وتبرزها في إطار يجمع إلى موسيقى الأسلوب وقوة الحبك والعرض وجمال الحوار وبراعة الوصف، الدراسة النفسية الموفقة السديدة والنزعة الإنسانية، والحب الشامل، ومن أمثلة ذلك قصتها «منبئات» فهي تعرض في هذه القصة حالة امرأة أشرفت على الثالثة والثلاثين. وهي مع إنها ما تزال جميلة فاتنة إلا أنها غدت تخاف الكهولة المفزعة. فأصبحت بسبب هذا الفزع تثور أعصابها لأتفه الأشياء. فإن طرقة قوية على باب غرفتها قمينة أن تستفز غضبها وتؤذي أعصابها. والريح العاصفة تفقدها حلمها ونخرج بها عن وعيها.

فتترك منزلها كمن يفر من حبس. وتذهب لترجل شعرها وتسويه عند حلاقها فيحز في نفسها مظهر الفتور يلقاها به. فإنها تشعر أنه لا يعني بترجيل شعرها كما كان يفعل كل يوم. فحركته فاترة خاملة ونظراته ذاهلة ووجهه قاتم مربد وهذا الصمت الثقيل السائد والجو الكئيب، تشعر حيال ذلك كله إنها تريد أن تبكي ثم تناول قبعتها ومعطفها وتهم بالانصراف تعتلج في صدرها احساسات محتدمة ثائرة،

وكان الحلاق يلحظ ذلك فيخبرها أن ابنته الصغيرة ماتت في صباح ذلك اليوم. فتنبجس دموعها غزيرة متداركة، وتخرج مسرعة. وهي في سيارتها ما تفتأ صورة الابنة الصغيرة الميتة تلوح لها من خلال دموعها، وكم كانت تتوق أن تضع على قبر هذه الصغيرة باقة من الزهر.

وهي في قصتها «عائلة مثلى» تصور الشعور بالفناء وزوال الشباب ونضوب الحياة وجفاف العمر أدق تصوير وأحكمه. وهي موفقة جد التوفيق حين تعرض الميول المتناقضة والاحساسات المتباينة في هذه القصة فتمزج بين إحساس الشباب المقبل على الحياة المفتون بها الذاهب في غمارها كل مذهب الممتلئ قوة وبين شعور الشيخوخة الفانية السائرة بخطى وجلة مترنحة نحو الفناء والعدم

***

أحبت كاترين منسفلد فنها حبًا شديدًا فلونته بألوان حياتها كلها. وتكاد تكون قصصها تاريخًا جامعًا لحالاتها النفسية وأزماتها الوجدانية وذكرياتها في جميع مراحل حياتها. ويجب ألا نغفل ذلك الأثر البعيد العميق القوي الذي تركه في نفسها «مرضها» المخيف، فأني أعتقد أنه وجه ميولها الفنية توجيهًا خاصًا وأكسبها ألوانًا معينة. فقد أرهف إحساسها وألهب خيالها وحفز قواها ومدى بصيرتها وضاعف حبها للحياة، أجل فقد أحبت كاترين منسفلد كل ما في الحياة حبًا دافقًا مستبدًا عاصفًا، جعلها تقف الوقفات المتأملة الحالمة حيث لا يلقي غيرها إلا النظرة العابرة الشاردة، وهذا المرض نفسه هو الذي لون

فنها هـذا اللـون الكئيـب الـذي يشـعرك دائمًـا بالفنـاء والمـوت، فهـي مهـما أقبلـت عـلى الحيـاة تعـل مـن فيضهـا فـإن هنـاك المـوت الوشـيك يتربـص لهـا، ويومـض الحـين بعـد الحـين في خيالهـا فيشـوش هدوءهـا ويفسـد عليهـا عملهـا، ولكنهـا مـع ذلـك عرفـت كيـف تقـصي عـن ذهنهـا - مـا اسـتطاعت - صـورة المـوت المشـعة. لتتفـرغ لفنهـا وتعالجـه في جـو مطمـئن لا تعصـف فيـه ثـورات الأعصـاب المريضـة، ولا تزحمـه فـورات النفـس المعذبـة المنهوكـة، ولا تسـممه الآلام العنيفـة المفزعـة، ولـك بعـد ذلـك أن تتصـور مـدى الجهـد الـذي بذلتـه هـذه العبقريـة لتتغلـب عـلى هاتـه العوامـل المثبطـة جميعًـا، لتنجـو بفنهـا مـن سـمة التشـاؤم، وتبتعـد بـه عـن مواطـن الكآبـة العابسـة والتمـرد الشـاكي

-٢-

الإشـارة الدالـة والوضـوح الشـامل والجـلاء الصقيـل والإشراق المتدفـق والنـور الغامـر، كلهـا سـمات بارعـة ومميـزات واضحـة قويـة وخصائـص بارزة يتسـم بهـا فـن كاتريـن منسـفلد، فليـس ثمـة الـشرح الطويـل الممـل الملتـوي. ولا التعقيـد المرهـق الثقيـل ولا الغمـوض الحائـر ولا الجهامـة الجافـة والعبـوس القاتـم، لا تصـدر في كل مـا ترسـم مـن صـور أو تعالـج مـن تحليـل إلا عـن وحـي شـخصيتها الرحيبـة الخصبـة. أعنـي أن قصصهـا كلهـا هـي ومضـات عواطفهـا وخفقـات وجدانهـا. هـي فلـذات قلبهـا ونبعـات روحهـا. جـماع مـا يقـع تحـت حسـها، ومـا تختلـج بـه مشـاعرها، ويخفـق بـه ذهنهـا الواعـي الملهـم ويعتلـج في تضاعيـف عقلهـا الباطـن وشـخوص قصصهـا محببـة إلى النفـس قريبـة مـن الـروح، لا يلبـث القـارئ أن يألفهـا جميعًـا

وإن تتوكد بينه وبينها وشائج الحب وأسباب التعاطف فهي في سعيها وقعودها، في نشاطها وخمولها، في يقينها وشكها، في احتدامها وهدوئها، في رضاها وسخطها، في نعيمها وألمها؛ وهي في ذلك كله شخوص فاضلة، متسامحة، رحيمة، خيرة، وقد يكون في هذه الشخصيات بعض الشذوذ. وقد تكون مستجيبة إلى دواعي الشر ومنازع الغرائز وبدوات الميول. ولكنها تعرف خطأها وتبصر إثمها فتحاول أن تتمرد عليه وتنكره، وتسمو إلى مطارح الفضيلة والخير، وأنا لا أعني بذلك إنها شخوص «مثالية» محضة، قد تبعد في نشدانها مثلها العليا، من حقائق الدنيا التي نعيش فيها، إنما أريد أن أقول إنها تحيا حياتها وإنها تتصل أسبابها بأسباب هذه الحياة وتنغمس فيها. ولكن ثورة معتلجة تنزع بها إلى عدم الرضا، إلى التمرد، إلى التشوف والتطلع والإحاطة والاستكناه والتملي. فهي عقل وعاطفة، روح وجسد، مزيج من الظلام والنور، من الضعف والقوة، من الحقيقة والحلم. وكاترين منسفلد ترسمها بصدق ونور وحرية لا تقسو عليها ولا تستبد بها، بل تدعها تعمل وتعيش، تخطيء وتصيب، تسمو وتسف، تحلم وتتشوف. ترسمها بفرح وغبطة، وتخلقها بسرور ونشوة. ترف عليها جميعًا ابتسامة صافية راعشة مضيئة. ليست ابتسامة السخر والتشفي. ليست بالابتسامة الخبيثة المنتظمة. إنما هي ابتسامة العطف والحب، ابتسامة الروح الواثقة المؤمنة، في سبحاتها وفسحات إلهامها.

وقد حدثتك في فصل سابق عن كاترين منسفلد من خلال قصصها. فأعطيتك لمحات تدل على نواحي فنها وتوضيح إلى حد ما أميز خصائصه

وأبـرز سـماته. وأنـا أحـب أن أحدثـك في هـذا البحـث عـن منسـفلد كـما تبـدو مـن خـلال رسـائلها وسـواء حدثتـك عـن منسـفلد نفسـها أو عـن فنهـا، فـإني أحدثـك عـن جوهـر واحـد ومعـدن فـرد. ولا سـبيل لـك كـما تفهـم فنهـا وتتذوقـه إلا أن تفهـم حياتهـا وتتعـرف المؤثـرات الواضحـة والخفيـة التـي وجـدت هـذا الفـن. وقـد عرفـت في البحـث السـابق بعضـا مـن ذلـك. ولكننـي أشـعر أن تلـك الأمشـاج كانـت مجـرد تخطيـط ومحـض معـالم. فـما زال الأفـق أمامنـا واسـعًا شاسـعًا. والأعـماق سـحيقة قصيـة. والأرض بكـرًا. وليـس أقـدر عـلى سـكب النـور السـاطع في أرجـاء هـذه العبقريـة وأحـق أن يذهـب في مسـارب هـذه النفـس فيوضـح دقائقهـا ويجلـو مـا اسـتسر فيهـا، ليـس أقمـن بذلـك، كلـه مـن رسـائلها. ولـن يظفـر الباحـث بسـفر يظهـر ميـول كاتريـن منسـفلد وشـتى الأصـداء المتجاوبـة في روحهـا مثـل هـذا السـفر ورسـائلها هاتـه هـي خلاصـة نظرتهـا إلى الحيـاة وتأملاتهـا في الكـون وخواطرهـا في الفـن، ومـرآة ينعكـس عـلى صفحتهـا شـكها ويقينهـا، إيمانهـا والحادهـا وشـتى المشـاعر والاحساسـات التـي تطـوف في صدرهـا، وسـائر الأخيلـة والأحـلام التـي تغمـر ذهنهـا. كانـت تبعـث بهـا إلى زوجهـا واصدقاءهـا وهـي تنتقـل مـن بلـد إلى آخـر ومـن مصـح إلى مصـح تنشـد الصحـة والقـوة والحيـاة لأعصابهـا المرهقـة ورئتيهـا الضعيفتـين النزافتـين.

كانـت كاتريـن منسـفلد تتـألم في صمـت كظيـم وإذعـان شـقي لهـذه الحيـاة القلقـة التـي فرضهـا عليهـا مرضهـا. فـما تهنـأ بصلتهـا الزوجيـة إلا لمامًـا ومـا تعـرف لهـا بيتًـا تتوفـر فيـه أسـباب الهـدوء والراحـة، وتنعـم في كنفـه بالسـعادة العائليـة. ومـا ضـم صادرهـا ولـدًا تحنـو عليـه وتغـدق

مـن عطفهـا وحبهـا إيـاه مـا يسـعدها ويـروي أوام غريزتهـا، فكانـت لهـا لحظـات سـاخطة متمـردة، تثـور فيهـا «أمومتهـا المحرومـة» وعاطفتهـا المكبوتـة فتهـز أوصالهـا وتبعـث شـجنها، فتحملهـا أن تكتـب إلى زوجهـا بمـرارة وأسـف:

«لكـن حـين تأملـت ذلـك كلـه برهـة طويلـة تبينـت أننـي في حلـم. فلـم لا يكـون لي بيـت حقيقـي؟ وحيـاة صحيحـة، وطفـلان يعـدوان نحـوي بـسرور؟ إننـي امـرأة أشـتهي أشـياء كثـيرة، فهـل قـدر لي ألا أحصـل عليهـا قـط؟ وهـل ليـس ثمـة شيء آخـر غـير أن أكتـب اليـوم كلـه إلى أن تـأزف سـاعة النـوم؟ بينـما كل هـذا الحـب

يعتلـج في أعماقـي وتلـك السـعادة تتصـارع في روحـي تريـد أن تعلـن عـن نفسـها، بينـما كل هـذه الحيـاة تنضـب وتجـف.

أوه! إني أريـد أن أحيـا. أريد أصدقاء. أريد أن أعطي وأهب»

وفي رسالة أخرى:

«لا أشـعر أني مريضـة وبي شـوق ملـح أن أراك. وأن يكـون لنـا بيـت نعيـش في أرجائـه معًـا. وطفـل صغـير... إن شـيئًا جـد قاتـم، جـد عابـس، جـد مخيـف، يجـوس في نفـسي ويهـدد هاتـه الأمـاني جميعًـا. إننـي اوقـن أن هـذا الشـعور سـيعاودني الحـين بعـد الحـين، فيغمـرني إلى حـد لا أقـوى معـه عـلى المقاومـة. إنـه إحسـاس غريـب أو عـلى الأصـح فظيـع مرعـب»

وفي ساعة من ساعات يأسها المريرة تقول:

هل سنظل أبدًا بعيدين؟ إن حياتنا ليست بالحياة الزوجية الحقة، أجل ليست هي الحياة التي أفهمها. لشد ما أغبط (...) فليس مما يدعو إلى الاستغراب أن يترقرق في كل ما تكتب حرية هادئة في التعبير والأداء، تدل على أنها تعيش في سلام تحت سقف بيتها، قريبة من زوجها المستجيب لندائها»

لكن كاترين منسفلد ما تكاد تستسلم لمثل هذه الخواطر، وما تكاد تندفع مع هذا التيار الجارف المدمر حتى تلوح لها بوارق الجمال المنبث في صور الطبيعة الحافلة العامرة... فتصرفها عن الاسترسال في ثورتها وتدفعها إلى معبدها تؤدي فيه فروض التقديس والعبادة وتفني روحها في بهر جلاله، وتنشد في باحته أخلد الأغاني.

والحق والجمال والحب والخير والفضيلة في نظر كاترين منسفلد هي العناصر المكونة للقانون الوحيد الذي يجب أن يعيش في ظله الفنان المبدع. فليس سواه قانون يخضع له فكر الفنان وعقله وعواطفه. وليس لأي عامل خارج عن هذه العناصر أن يستبد بملكات الفنان ومواهبه، ويتحكم بميوله ونزعاته. ومن خلال هذا القانون فليتوجه الفنان دائمًا إلى تأمل كل شيء بإحساس جديد، وأن يرضى بهذا القانون على ما فيه من صرامة، فإنه قانون التضحية والاخلاص والاستكناه

والولـوج في صميـم الحيـاة واكتشـاف أغوارهـا السـحيقة. وهـي تشـير إلى ذلـك بقولهـا:

«إننـا نخضـع لقانـون الفنانـين، وهـو قانـون صـارم. ولكـن لعلنـا لـو تعاضدنـا، وعشـنا جميعًـا في الحـب نسـتطيع أن نتعـاون. إني أعبـد الحيـاة وأجثـو أمـام الحـب والجـمال»

والفنـان لا ينبغـي لـه أن يخـاف الحيـاة ويهـاب الاندفـاع في غمارهـا إذ أراد أن يكـون عملـه مليئًـا صادقًـا، وإلا كان عملـه مجـرد صـور باهتـة واحساسـات ميتـة خامـدة، ومـن هنـا هـذه الحيويـة الزاخـرة التـي تترقـرق في قصصهـا جميعًـا. والأصـداء المتجاوبـة في روحهـا بسـبب هـذا الاتصـال الوثيـق. والفقـرة الآتيـة توضـح نظرتهـا:

«مـررت بعـدد غـير قليـل مـن الأعـمال الأدبيـة المعـاصرة في هـذه الأيـام الأخـيرة ويظهـر أن مـا يفسـد هـذه الأعـمال هـو نـوع مـن «الخـوف». والكتـاب، عـلى الأقـل، يشـعرون الآن أن إحساسـهم بالحيـاة يـكاد ينضـب. هـذا محـزن، ومـن رأيـي أن سـبب ذلـك هـو اجـداب عاطفـة الحـب في قلـوب الأفـراد. والحـب يكفـر بالخـوف وينكـره ويجحـده. هـذه هـي حقيقـة شـواهدها عديـده في كل يـوم. وبـدون الخـوف نحـن حتـمًا أحـرار . هـو الخـوف الـذي يسـتعبدنا ويتعسـف بنـا... «

والعقـل والـروح يجـب أن يشـتركا في خلـق العمـل الفنـي، عـلى أن العقـل لا ينبغـي لـه أن يطغـى عـلى الـروح ويسـتبد بهـا. فـإن لـه حـدوده المرسـومة

فلا يتعداها وإلا فقد هذا العمل جماله وشموله وروعته. ولها في هذا رأي عميق:

«العقل هو مجرد أداه جميلة. هو عبد الروح وإني أوقن أن عند كثير من الفنانين لا تلمح أثرًا للسيد فليس ثمة إلا العبد. وهذا العبد رائع إلى حد يحجب عنا غياب السيد، ولسنا نحيا حياه حقة صحيحة إلا إذا اعترفنا بالاثنين. هذا ما يبدو لي على الأقل. والعمل الفني الكبير لا يتم ويكتمل إلا إذا قام الاتزان

الكامل بين الروح والعقل. ولكن هذا جم الصعوبة» وهي توضح رأيها هذا بصورة أدق حينما تقول:

«يبدو لي أن كل ما ينشده كل منا هو أن يعمل بعقله وروحه مجتمعين فالروح هي التي تقيم الوزن الصحيح للعقل. وأنا أتخيلها هكذا: عقلي أداة معقدة ولكنها حاذقة بارعة، مظلمة في صميمها، يمكنها أن تعمل في الظلام وتقذف أشياء مختلفة متعددة. ولكن وراء هذه الأداة تتلألأ الروح كأنها نور رقيق متوهج أبدي، وهي فقط حين تستطع على العقل يستطيع الفنان أن يخلق العمل الخالد».

ومن العناصر البارزة في فن كاترين منسفلد هو أنه – أي الفن - مهما امتزج فيه الشعر والحلم، ومهما تشوفت الروح واشرأبت إلى ذرى العواطف النبيلة، هو في ذلك كله ينبع من الحياة نفسها، ويلتصق بحفائفها، ويفهم هذه الحقائق. وليس أدل على ذلك من قولها:

«إنني واثقة أنه لا ينبغي لنا أن نفصل الفن عن الحياة. وليس يحق لأي لفنان أن يضع الحياة جانبًا، فإذا أردنا أن نعمل فليذهب مباشرة إلى الحياة ننشد فيها غذاءنا».

وفي رسالة أخرى:

«الحياة خلابة. حلوة مرة، هي في كلها شجن وفرح - أجل لا أريد أن أخضع، أريد أن أنهل من الأعماق. فهل أستطيع أن أعبر عن هذا كله؟

فمهما كانت الحياة بشعة مفزعة، ومهما كان الناس - غالبًا - أشرارًا قساة، محتقرين، فإن وراء ذلك كله شيئًا ساميًا نبيلًا لو أتيح لي أن أفهمه وأحسه لغدا كل شيء رائعًا جميلًا، ولكني لست أرى من ذلك إلا ومضات عابرة واحساسات إلهية ودلائل سريعة».

والولوع بالتخطيط الدقيق والافتنان بالتنسيق والشغف بالقالب الجميل الذي تصب فيه عصارة ذهنها ومادة عبقريتها، عناصر لا بد منها للإبداع الفني. وإليك رأيها في هذا الصدد:

«إنه لمن الغريب أن تتحكم الصنعة هذا التحكم في التأليف، ففي قصتي «مس برل» لم أختر حدود كل جملة فحسب بل تجاوزت ذلك إلى جرس كل منها. فقد اخترت الموسيقى الملائمة لكل فقرة من الفقرات حسب وحي شخصيتي في تلك الآونة، وبعد أن أتممت قصتي رحت اقرأها مرات عديدة بصوت جهوري، كأنني أردد نغمًا موسيقيًا، وما زلت بها أعالجها حتى تمكنت من إبرازها وتوضيحها، ويخيل إليّ

أن العمل لا يتم له الكمال والنجاح إلا إذا خلا من كل كلمة قلقة زائفة. هذا غرضي حين أكتب»

والآن أيها القارئ فلأنتقل بك إلى ناحية جديدة من هذه العبقرية المتعددة النواحي؛ إلى «عقيدة» كاترين منسفلد الدينية، فما زلت تجهل نوع إيمانها، وما زلت تجهل آراءها الدينية ونزعاتها الروحية، وقد يتبادر إلى ذهنك أن هذه المرأة التي اتصلت بالحياة هذا الاتصال العميق واندمجت في مظاهر الحق والفضيلة والخير هذا الاندماج وفتحت صدرها لكل ما هو جميل رائع ورصدت جهودها لخدمة الفن في أسما صوره، قد يتبادر إلى ذهنك إنها متواضعة مع الناس جميعًا على ما يؤمنون به، مؤتلفة معهم فيما يعتقدون. كلا ليس شيء من ذلك، هي في عرف هؤلاء كافرة جاحدة لأنها تنكر ما اصطلحوا عليه، تنكر أوهامهم وتنكر خيالاتهم وتنكر عليهم أن يظلوا سادرين في متاهاتهم. فمهما أعملت فكرها وأجهدت نفسها كيما تقنع، كيما تفهم، كيما تقترب منهم فلا سبيل إلى ذلك لأن عقلها يثور على ذلك كله ويأبى أن يرضخ ويستكين فهي لا تقبل العقائد والمصلحات كما هي. فلا بد أن تسلط عليها عقلها فيحللها تحليلًا هادئا لا يرضى منها إلا بما هو حق ويلائم مزاجها الفلسفي وطبيعة خلقها الصريح المخلص وجوهر عبقريتها، ولن تجد هذه النفس الحائرة المتشككة التي تنشد الهدى، لن تجد إيمانها المستقر القوي إلا في طبيعة روحها الي تنضح بالحب. فالحب هو قوام هذه الشخصية. بواسطته نحس بالخلود وبواسطته تتصل بكل مظاهر هذا الوجود وغوامضه، وإليك

مـا تقـول:

«إني أود أن أعتقـد بوجـود اللـه ولكـن هـذا مسـتحيل، إذ يبـدو لي أن العلـم يحـول بيننـا وبـين مثـل هـذا الاعتقـاد. فالحيـاة كـما أراهـا سر خفـي ولغـز غامـض. فلنقنـع بـأن جوهرهـا الحـب والألم. فأنـا أشـعر بـأني في حاجـة أن أحيـا في حـب كل شيء وأن أنفـذ إلى كل شيء بعمـق وصـدق. هـذا لا ينفـي وجـود الكـره والحقـد والسـخط. كلا. إنمـا أقـول إنـه يسـتحيل عـليّ أن أسـتحدث أي شيء بـدون حـب، أنـا لا أتحـدث عـن حـب شـخصي. إنمـا أتحـدث عـن العاطفـة الأزليّـة. فالحـب كـما أشـعر نـور لازم لحيـاتي كيـما أرى الأشـياء صحيحـة في وهجـه»

وفي عرض رسـالة ثانية تقول بشيء من السـخرية والتهكم:

«الآلهـة تماثيـل مرمريـة محطمـة الأنـوف. ليـس ثمـة إلـه ولا سـماء ولا عـون لنـا في أيـه قـوة خـلا الحـب، فهـو وحـده القديـر عـلى كل شيء وأنـا جعلتـه مصـدر عقيـدتي وإيمـاني».

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

مشروع النشر الرقمي